

تأملات في الآيات

تأملات في الآيات

من سورة الجمعة إلى سورة المائدة

مع استنباط تربية وعقيدة

إعداد

أ.د. أحمد خاشع الشكري

الجامعة الأردنية وجامعة قطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله منزل الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى رفيع الجناح، وعلى الآل والأصحاب، ومن سار على دربهم بإحسان إلى يوم البعث والحساب، وبعد.

فإن البحث في تفسير كلام الله تعالى من أفضل القربات وأجل الأعمال، والأوقات التي تُقضى في هذا المجال من أكثرها سعادة وبركة، والحمد لله على ما أكرمنا به أن جعلنا من أمة النبي الخاتم والكتاب العظيم المنزل عليه.

وفي هذا الكتاب تفسير لمجموعتين من السور، المجموعة الأولى: خمس سور تشكل بمجموعها الحزب السادس والخمسين من المصحف الشريف، وهو النصف الثاني من الجزء الثامن والعشرين، كما تشكل نصف منظومة السور المدنية المتتابعة بدءاً من سورة الحديد وانتهاء بسورة التحريم، وهي السور المدنية العشر المتوالية بلا فاصل، ويتلوها في التتابع أربع سور مدنية هي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وباقي السور المدنية متفرقة.

وتشكل منظومة هذه السور العشر تكاملاً في المعنى والبناء، لمن يتأمل في تتبعها وتناسقها والروابط التي بينها، وموضوعاتها المتكاملة والبنائية، ففي سورة الحديد تأسيس وبيان لأهمية القوة مقترنة بالعدل لإنشاء المجتمع، وفي سورة المجادلة بيان لصفات متعددة لهذا المجتمع، فهو

متماسك تجمع بين أفراد رابطة العقيدة القوية، ومهذب يلتزم بآداب المجالس والنجوى، ولا يخلو بعض أفراد من قصور أو إشكال سرعان ما ينتهي ويحل، وفي سورة الحشر بيان للأعداء الخارجيين المؤثرين في مرحلة البناء وكيفية التصدي لهم وإبعادهم عن ساحة المواجهة، وبيان للتوزيع المثالي للأموال في المجتمع المسلم، وأن الأفضلية في هذا المجتمع لمن يبذل ويقدم ويضحى، وبيان للأعداء الداخليين من المنافقين المتآمرين مع الأعداء الخارجيين، وكشف لصفاتهم وتعريف بالله من خلال سرد مجموعة من أسمائه الحسنی ذات المدلول الكبير، وفي سورة الممتحنة بيان لما قد يحصل في نفوس بعض المسلمين من ضعف فيبدر منه ما قد يسيء لآخرين دون قصد الإساءة ودعوة للبعد عن مثل هذا السلوك والاقتراء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وحدود العلاقة مع الآخر، وبيان لكيفية التصرف مع المؤمنات المهاجرات والمبايعات، وفي سورة الصف دعوة لتوحيد الصف في مواجهة الأعداء الخارجيين وإلى البذل في سبيل نصره الدين ورفع رايته، وفي سورة الجمعة بيان لمنزلة هذه الأمة ومقامها المتقدم ومحااجة لليهود وبيان لفضيلة ومنزلة صلاة الجمعة ويومها، وفي سورة المنافقين إمعان في كشف ستورهم وفضح مؤامراتهم على الإسلام، وتعرية باطلهم، ودعوة للإنفاق في سبيل الله فالمال عصب الحياة ووقود العمل والإنجاز، وفي سورة التغابن تلخيص لقصة الحياة وإشارة إلى البعث والحساب والجزاء، ودعوة إلى التسليم لقدر الله، وعدم الافتتان بالمغريات القريبة من المرء كالمال والأهل والولد في حال كونهم فتنة له وصارفا عن الخير، وفي سورة الطلاق تنظيم للعلاقات في الأسرة وحل للإشكالات التي قد تبدر من أحد طرفي الأسرة، وتبيين لتفاصيل التعامل في مثل هذه المرحلة وتذكير بالتقوى عدة

مرات لما لها من أثر كبير في تهذيب النفوس، وتذكير بانتقام الله ممن عتا وكفر من السابقين، وفي سورة التحريم دخول إلى البيت النبوي وذكر لبعض ما يمكن أن يحصل في أي بيت ولكيفية التصرف في مثل هذه الأحوال، وتحذير من إيذاء النبي ﷺ ذي المقام العظيم عند الله العلي الكبير، ودعوة إلى التوبة النصوح والاعتناء بالأسرة وتحذير للكافرين ودعوة إلى جهاد جميع الأعداء، كل بما يناسبه، وضرب المثل للنساء بامرأتين كافرتين وآخرين صالحتين، لتكون النساء على بينة من أمرهن، ويلتزم بطاعة الله، فإن في صلاح المرأة صلاح المجتمع كله، وبهذا نرى التكامل والارتقاء في موضوعات هذه السور العشر المدنية.

وقد اقتصرنا في هذا الكتاب على خمس سور منها أملا في إتمام الباقي لاحقا، بالطريقة نفسها أو بزيادة مباحث وعناوين.

والمجموعة الثانية: سور الجزء التاسع والعشرين، المشهور باسم جزء تبارك لافتتاحه بهذا اللفظ، وهي إحدى عشرة سورة كلها مكية، ولم يختلف سوى في سورة الإنسان والراجح مكيتها، وكذا بعض الآيات من سور هذا الجزء والراجح مكيتها كذلك.

والتزمت في هذا الكتاب السير على طريقة واحدة، حيث أبدأ بمدخل إلى السورة يتضمن اسمها ونزولها وعدد آياتها وفضلها - إن وجد - ومقصدها ومناسبتها لما قبلها، ثم أنتقل إلى التفسير، والمعتاد تقسيم السورة إلى عدد من المقاطع، والبدء بمعاني المفردات فالمعنى الإجمالي، فالاستنباطات التربوية والدعوية منها، مع الإشارة إلى بعض ما تضمنته من قيم، وأتبع ذلك بنشاط مناسب لموضوع الآيات، ولم ألتزم توثيق جميع ما

أورده من معلومات اكتفاء بسرد قائمة المراجع آخر الكتاب، ولحصول بعض الأفكار والاستنباطات في خاطري، أو لنقلها من عدة كتب وصياغتها بعبارتي.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما كتبت، وإن كانت الأخرى أسأله سبحانه العفو والصفح عن الزلل، وهو ولي التوفيق، وإليه يرجع الأمر كله، وله الحمد على نعمه وفضله.

الدوحة - قطر

في ١٤/٣/١٤٤١ هـ ١١/١١/٢٠١٩ م

تفسير سورة الجمعة

مدخل إلى السورة:

اسمها: الجمعة بضم الميم، كما ورد في الآية، وهو الفصيح، ويجوز تسكينها تخفيفاً.

نزولها: مدنية في قول جمهور أهل العلم، وهو الراجح، والظاهر أن الآيات المتحدثة عن صلاة الجمعة نزلت في بداية المرحلة المدنية قبل بدر، ونزل باقيها لاحقاً لما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة، فلما بلغ: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ الآية [الجمعة: ٣]»^(١)، وهو نص في نزول أولها^(٢) بعد إسلام أبي هريرة الذي كان بين الحديبية وفتح خيبر^(٣)، وموضوع السورة يؤكد مدنيته حيث تحدثت آياتها عن صلاة الجمعة وعن أهل الكتاب.

عدد آياتها: إحدى عشرة آية باتفاق.

فضائها: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين^(٤)، وعن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة

(١) رواه البخاري برقم ٤٨٩٧.

(٢) أو نزول هذه الآية تحديداً، وهو ما نص عليه ابن حجر مؤكداً أن نزول آيات صلاة الجمعة كان قبل ذلك (فتح الباري ٨/ ٦٤٢).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٧/ ٤٣٤.

(٤) رواه مسلم برقم ٨٧٩.

والمناقفون^(١)، ويُجمع بين هذين الحديثين والأحاديث التي ورد فيها أنه كان يقرأ في هاتين الصلاتين سوراً أخرى بأنه فعل هذا وهذا.

مقاصدها: موضوع السورة الرئيس هو الحديث عن صلاة الجمعة، وأهميتها في الإسلام، وسبق ذلك الحديث عن تنزيه الله تعالى وتمجيده، ومنة الله على الأمة ببعثة النبي الكريم ﷺ، وبيان مهامه التي أرسل بها، ودم بني إسرائيل لعدم قيامهم بما أمروا به، وعلاقة الناس مع الموت.

مناسبتها لما قبلها (سورة الصف): تظهر المناسبة بين السورتين من عدة جوانب، فكلاهما بدأت بالتسبيح، وفي سورة الصف البشارة ببعثة النبي محمد ﷺ، وهنا الإخبار عن بعثته، وفي سورة الصف ذكر لعبادة الجهاد وهنا ذكر لعبادة صلاة الجمعة، وسمت سورة الصف الجهاد تجارة ووصفتها بالرابحة، وهنا ورد ذم التجارة التي تلهي عن الذكر والصلاة، وأمرت سورة الصف المؤمنين أن يكونوا صفاً في الجهاد وهنا الأمر غير المباشر لهم أن يكونوا صفاً في الصلاة، وفي السورتين ذم بني إسرائيل وتحديداً اليهود لإيذائهم نبي الله موسى عليه السلام، ولزعمهم أنهم أولياء الله دون غيرهم^(٢).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ

(١) رواه البيهقي في الكبرى برقم ٥٥٢١، ووصف العشاء بالآخرة تمييزاً لها عن صلاة المغرب، فقد سماها بعض الأعراب العشاء قبل النهي عن ذلك (يُنظر فتح الباري ٢/٤٣).

(٢) التفسير الموضوعي ٨/١٤٨.

لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝

معاني المفردات:

يسبح لله : ينزهه سبحانه عما لا يليق به .
القدوس : المطهر من جميع النقائص .
الأمين : العرب الذين كان معظمهم لا يحسن القراءة والكتابة .

المعنى الإجمالي:

المخلوقات في هذا الكون الواسع منقادة لأمر الله تعالى ، تسير وفق ما خلقها له ، وهي دائمة الاستجابة لأمر الله تعالى ، وبدأ سبحانه بذكر من في السماوات لأنهم أكثر عدداً ، وأعظم خلقاً ، وفي الآية الكريمة وصف الله سبحانه بأربع صفات : فهو الأمر الناهي بين خلقه بما يشاء ، وهو المطهر من العيوب والنقائص ذو العظمة المطلقة ، وهو القوي الذي لا يُغلب ولا يُقهر ، وهو الذي يضع الشيء في موضعه الصحيح المناسب .

والله سبحانه هو الذي اختار نبيه محمداً ﷺ ليكون خاتم رسله ، واختار أن تكون انطلاقة البعثة في قومه العرب ، الذين كان معظمهم لا يجيد الكتابة والقراءة ، حيث كان اعتمادهم على الحفظ أكثر ، وقام النبي الكريم بمهمة الدعوة المرسل بها ، والمتمثلة في تلاوة الآيات على قومه ، وتطهيرهم من دنس الشرك والمعاصي ، وتعليمهم ما أنزل إليه من آيات ومعانيها ، وما أكرمه الله به من وضع الأمور في مكانها الصحيح وما علمه إياه من السنة الشريفة ، فخرج من آمن منهم بذلك من الضلال الواضح الذي كانوا فيه إلى نور الحق والهدى .

ورسالة النبي الكريم ليست محصورة في قومه، فهم مبدأ الدعوة لا منتهاها، وهو مرسل إلى جميع الخلق المكلفين إنسا وجنًّا، وقد توافد كثير من القبائل زمن البعثة ودخلوا أفواجا في هذا الدين، وانتشر نوره شرقًا وغربًا، فتبع الصحابة الكرام مسلمون من جميع الأمم والملل، وهذا من فضل الله تعالى عليهم، أن هداهم إلى الحق، ووفقهم لطريق الهداية، وفضل الله على خلقه كبير وعظيم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- عظمة الله الذي يسبح له كل ما في السماوات والأرض، طوعًا أو كرهًا، مكلفين وغير مكلفين، فالكون كله منظومة واحدة في الانقياد لحكم الخالق الجبار.
- ورود الفعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ مضارعًا يدل على التجدد، وفيه تعريض بمن تركوا صلاة الجمعة وانصرفوا إلى اللهو بأن اللائق بهم دوام التسبيح والمحافظة عليه.
- يناسب الحديث عن التسبيح بيان أنه سبحانه الملك المتصرف في هذا الكون بما يشاء، والمنزه عن النقائص، ذو العزة التامة، والحكمة الثابتة، وكلها من صفات الكمال المطلق.
- على المتدبر ملاحظة العلاقة بين الأسماء الحسنى التي افتتحت بها السورة والآية الثانية، فالملك يدبر أمور عبادته، والقدوس يزكي نفوسهم، والعزیز يرفع درجاتهم، والحكيم يعلمهم الحكمة والدين^(١).
- وصف العرب الذين بعث النبي ﷺ فيهم بالأميين لا يدل على استمرار هذه الصفة فيهم، فنحن مأمورون بإزالتها والإقبال على العلم، ولا أدل

(١) يُنظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٨/٢٠٧.

على ذلك من أن أول ما نزل ﴿أَقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، ومن أوائل ما نزل ﴿وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ومما نزل ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقد انتقلت هذه الأمة في فترات كثيرة من التاريخ من الأمية إلى القيادة والسيادة.

- تخصيص الأميين بالذكر لا يدل على أنه لم يرسل إلى غيرهم، فقد جاء النص على عموم البعثة في آيات وأحاديث، والقصد الامتنان عليهم، ولا ينافي ذلك عموم الرسالة^(١).

- من أوجه الامتنان بكون النبي ﷺ أمياً: موافقة بشارة الأنبياء، ومماثلة حال أمته، ولينتفي عنه ادعاء تعلم ما يدعو إليه من الكتب أو الحكم^(٢).

- أخبرنا سبحانه أن إبراهيم عليه السلام دعا بقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وكانت إجابة الدعاء مطابقة له بكل جزئياته، حتى إن اسمي ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وردا في هذه السورة في الآية السابقة واللاحقة للآية المخبرة عن إجابة الدعاء.

- إعجاز الإخبار عن غيب المستقبل، حيث تحدثت الآيات عن دخول أقوام آخرين في الإسلام، وقد حصل لاحقاً، ولا يمكن لغير عالم الغيب سبحانه أن يخبر جزماً بما سيحصل، وهو من أعظم الأدلة على أنه كلام الله.

- تبين مهمة الرسول الكريم ﷺ، وهي الدعوة والتزكية والتعليم، وهي مراحل متتابعة، تسوق كل منها إلى التي بعدها.

- التكامل في الدعوة، فليست مقتصرة على جانب دون آخر، ففيها التلاوة والتزكية والتعليم، وباجتماعها تتكامل مراحل بناء شخصية الداعية.

(١) حقائق الروح والريحان ٢٩ / ٢٩٠.

(٢) النكت والعيون للماوردي ٦ / ٦.

- التدرج في الارتقاء بالمدعو، حيث يكون البدء بالتلاوة وهي المرحلة الأولى، وتتبعها مرحلة التزكية حيث التطهر من الأدناس وبقايا الجاهلية، ثم مرحلة تعلم ما أنزل من الكتاب، وما في السنة من حكمة، وما يؤخذ منهما من فروع العلم وتتماته.
- الإنسان ضال بلا وحي من الله، ومن رحمة الله به أن أرسل له من يدلّه على الحق والإيمان.
- دلالة الهاء في ﴿مَنْهُمْ﴾ تتسع لتشمل العرب وغيرهم، وتتسع لتضم الزمان والمكان، ويؤكد عمومها الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال له رجل: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجع حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع النبي ﷺ يده على سلمان وقال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»^(١).
- تقدم منزلة الصحابة على من جاء بعدهم، فهم السابقون إلى الإيمان والعمل، ومن بعدهم لاحق وتابع لهم.
- يدل قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ﴾ على استمرار الخير في هذه الأمة ولو انقطع في فترات من عمرها، ولكنه يعود ويبقى، وهذا تاريخنا شاهد على قيام الأمة واستلامها المركز المتقدم بين سائر الأمم عدة مرات في أزمنة متنوعة، وفي هذا أمل كبير بعودتها إلى الصدارة والريادة، عند الأخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك، وأمتنا في هذا الزمان أحوج ما تكون إلى يقظة عامة تامة، نسترد بها مقدساتنا وننتصر على أعدائنا الظاهرين

(١) رواه البخاري برقم ٤٨٩٧، ومسلم برقم ٦٦٦٢.

والأخفاء، وما أكثرهم فقد تكالبوا علينا لما رأوا من ضعف وهوان وبعد عن الله، وانتقل إلى صفهم من ضعفاء الإيمان أو مدّعيه أعداد كثيرة، والأمل كبير بتحول الحال إلى ما يسر ويرضي ربنا سبحانه.

- أهمية توريث العلم للأجيال التابعة، فمعنى قوله ﴿يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: يسيروا على منهجهم وطريقتهم، وهذا يقتضي قيامهم بمهمة التعليم وتبليغ الأمانة إلى من بعدهم ليتابعوا حملها وتبليغها، وتستمر رسالة الدعوة والخير حية في النفوس.
- عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة ببعثة النبي ﷺ، حيث كانوا أميين يعيشون في جهل وضلال، فأصبحوا متعلمين ومعلمين، وقادة وسادة يلحق بهم من بعدهم.

القيم:

- قيمة التنزيه والتعظيم لله العلي سبحانه.
 - قيمة شكر الله تعالى على نعمة بعثة النبي ﷺ.
 - قيمة استشعار عظيم فضل الله تعالى على عباده المؤمنين.
- نشاط:** استخرج العلاقة بين التلاوة والتزكية والتعليم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥﴾ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمُ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلَاقِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨﴾

معاني المفردات:

أسفارًا: كتبًا.

الذين هادوا: اليهود.

لم يحملوها: لم يعملوا بما فيها.

المعنى الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى فضله على هذه الأمة باستجابتهم للنبي ﷺ واتباعه، ذكر حال أهل الكتاب السابقين، وأنهم في الغالب لم ينتفعوا من رسلهم، فأشبهوا الحمار الذي يحمل الكتب كما يحمل غيرها من الأشياء، فلا ينتفع من ذلك شيئًا، ونصيبه منها النصب والتعب، فظلموا أنفسهم بابتعادهم عن الهداية، وهم مع ذلك يزعمون ولاية الله لهم، ولإبطال هذا الزعم أمرهم سبحانه بتمني الموت، فإن أولياء الله لا يخشون الموت وما بعده، وهو سبحانه يعلم أنهم لن يفعلوا ذلك التمني، فهم منغمسون في كفرهم وضلالهم، وأخبر أنهم لا يفعلونه، وهم يسمعون هذه الآيات ويملكون الإرادة والاختيار لفعل ما أمروا به، ولكن كفرهم وعنادهم وظلمهم لأنفسهم يمنعهم منه.

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بإعلامهم أنه مهما أخذوا بأسباب البعد عن الموت وتجنبه فإنه حاصل لهم وحتم قاطع لا بد منه يحصل به انتهاء حياة المخلوقات عند تمام أجلها، وبعد الموت يكون الرجوع إلى الله تعالى الذي يعلم الظواهر والبواطن وكل ما غاب عنا في الحال والمستقبل، ويحاسب الخلق على أعمالهم ويجزيهم بها.

استنباطات تربوية ودعوية:

- كان اليهود يفتخرون على العرب بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وبأنهم أهل كتاب وبأنهم أصحاب السبت أفضل أيام الأسبوع، فردّ الله تعالى عليهم في هذه السورة، وأبطل مزاعمهم كلها.
- في الآية إشارة واضحة إلى أن حامل العلم ينبغي أن يكون فطنا لبيبا، واعيا لما يتعلم ولما يعمل، وليس مجرد حامل علم ينقله كآلة الصماء.
- تشبيه حال اليهود في رفضهم دين الله وشرعه بالحمارة فيه تحقير عظيم لهم، وتبيين لحقيقة حالهم، فالبهائم التي لا تعي ما تحمل ولا أين تسير ولا لماذا تعيش غير مؤاخذة على ذلك، أما الإنسان الذي يعيش بلا هدف ولا يتبع الدين الحق ويبطل عقله ويمسح فطرته فهو أشد من هذه البهائم ضلالا وأدنى منزلة.
- اختيار التمثيل بالحمارة لاشتهاره بنقل الأحمال أكثر من سائر البهائم، والنقل عليه أسهل وأسلم لكونه لين الانقياد، ولاشتهاره بالجهل والبلادة، ولما فيه من الحقارة والذلة أكثر، مع ما بين لفظي الأسفار والحمارة من مناسبة لفظية^(١).
- الفرار من الموت يعني الحذر الشديد منه، وهي استعارة تصور شدة نفور الناس من الموت.
- نفى الله سبحانه عن اليهود تمني الموت الذي طلبته منهم الآية، وهذا من إعجاز غيب المستقبل، حيث أخبر الله أنهم لم ولن يفعلوا ذلك، وحصل

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٦/٣٠.

- ما أخبر عنه ولم يقم أي واحد منهم بهذا الفعل، ولو حصل لكان نقضاً لما أخبر به القرآن، فسبحان من هذا كلامه وهو العليم بما في القلوب والصدور، وأعلم الله سبحانه رسوله ﷺ بما كان سيحدث لو أنهم فعلوه فقال ﷺ: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار»^(١).
- في الآيات الكريمة إشارة إلى استمرار عدائهم وكيدهم بالإسلام، واستمرار مواجهتهم ورد كيدهم وباطلهم من قبل المسلمين في جميع الأزمنة والأماكن، وأنهم لن يفلحوا فهم يحاربون الله ويكذبون عليه، ومن كان هذا حاله فهو الخاسر.
- كثر في القرآن الكريم ضرب الأمثال للناس، لأخذ العبرة والموعظة منها، كما في هذه الآية التي جعلت مثل من لم ينتفع بهدى الله تعالى كمثل الحمار حامل الأسفار ولا ينتفع منها.
- الكذب على الله إثم عظيم وقد كذب هؤلاء اليهود على الله وزعموا أنهم أبناءه وأحباؤه، فأكذبهم الله ولهم عذاب شديد على جرأتهم ووقاحتهم وافترائهم.
- الهروب من الموت والفرار منه مركوز في طبائع الناس وسائر الأحياء، وللدفاع عن النفس ومحاولة تأخير حصول الموت صور كثيرة عند الإنسان وسائر الأحياء، وهذا الأمر المركوز في النفوس مما يؤدي إلى عمارة الأرض، والناس عادة يأخذون بكل سبب ممكن لدفع الموت أو تأجيله، ولا يؤاخذ المرء على هذا الشعور المركوز في نفسه، ويكون ذكره في الآية لا على وجه الذم وإنما على حكاية الحال.

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٢٢٧، وهو صحيح.

- التعبير عن الفرار من الموت بالفعل المضارع لإفادة تجدد حصول ذلك من الناس، وكأنه من أهم الأعمال والوظائف.
- قد يطلب المؤمن الموت في ساحات الوغى والجهاد لما في الحصول على الشهادة من أجر عظيم، وقد كثرت الرواية عن الصحابة ومن بعدهم التي فيها طلب الموت أو الرغبة فيه أو استعجاله^(١)، وهم بهذا يخالفون عامة الناس الذين يفرون من الموت ويخشونه وما بعده، وقد قيل للتابعي الجليل أبي حازم: ما بالنا نكره الموت؟ فقال: «لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب»^(٢).

القيم:

- قيمة الحذر من أفعال من لم يحملوا الأمانة بحق.
 - قيمة استحضار الرد على أهل الزعم الباطل بما يبطل زعمهم.
 - قيمة اليقين بحصول الموت.
- نشاط:** وازن بين الآية التي فيها التشبيه بالحمار والآية التي فيها التشبيه بالكلب، وبين وجه الشبه والاختلاف في كل منهما.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢١٧.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٢/ ١٤٧.

معاني المفردات:

نودي للصلاة: رفع الأذان الداعي لحضورها.

ذروا: اتركوا ودعوا.

انفضوا إليها: تفرقوا عنك وقاموا إليها.

المعنى الإجمالي:

بعد أن أخبرت الآيات عمن لم يستجب لأمر الله، توجهت بالنداء إلى المؤمنين أن لا يكونوا مثلهم، وأن يجيبوا النداء للصلاة يوم الجمعة فيسارعوا إلى المساجد ويتركوا عمل الدنيا من بيع وغيره، فإن طاعة الله أفضل لهم من مصالحهم الدنيوية، وكثير منهم لا يعلم ذلك، ولا مانع بعد انتهاء الصلاة من العمل للدنيا والسعي في تحصيل الرزق، مع المواظبة على ذكر الله في كل حال فإنه سبيل الفلاح والخير، ولا يليق بالمؤمنين الانشغال عن صلاة الجمعة والخطبة بعمل دنيوي، وإن طراً شاغل عن الصلاة والخطبة فلا ينبغي ترك الصلاة والانشغال به، مهما كانت الذرائع لذلك، فما عند الله تعالى من الأجر والثواب أعظم وأفضل من ربح الدنيا وزينتها، وهو سبحانه يرزق من يشاء من عباده وعنده خزائن الرزق يصرفه بين عباده.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تخصيص صلاة الجمعة بالأمر بالسعي إليها، فيه تبين لقدر هذه الصلاة ومنزلتها وأهميتها، وذلك لما يحصل فيها من اجتماع المسلمين ولقائهم في المساجد في كل أسبوع، ولما في الخطبة من تذكير بالأوامر والنواهي وأحكام الدين، ولما لها من أثر كبير في التوجيه إلى الخير والنهوض بالمجتمع والارتقاء بالسلوك والتعامل، ولذلك شرع لهذه

الصلاة مجموعة من الآداب والأحكام الخاصة كالإغتسال والتطيب والتبكير ووجوب السعي لأدائها حين يضيق الوقت، والإنصات وعدم العبث بشيء أو الحديث أثناء الخطبة، وعدم تخطي الرقاب، وتقوم الخطبتان فيها مقام ركعتين، ويقف الخطيب أثناء الخطبة، ويشعر الأذان لها، ويحرم التجارة أثناءها على المكلفين بها، وينبغي أن يكون وقت الصلاة خالياً من الشواغل والملاهي لاستحضار الخشوع والإنصات للخطبة.

- ورد في بيان فضل صلاة الجمعة وفضل يومها أحاديث، منها قوله ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»^(١)، وقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله، فغداً لليهود، وبعد غد للنصارى»^(٢).
- نزلت هذه الآيات بسبب وصول قافلة أثناء خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة، فخرج معظم من في المسجد إليها، ولم يبق فيه إلا اثنا عشر رجلاً^(٣)،

(١) رواه البخاري برقم ٨٨٣، وعند مسلم برقم ٢٠٢٥: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام، ومن مس الحصى فقد لغا».

(٢) رواه البخاري برقم ٨٩٦، وفي رواية: «إنهم - أي اليهود - لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام أمين»، رواه أحمد في المسند برقم ٢٩٠٢٩، وقال محققه: صحيح.

(٣) الحديث عند البخاري برقم ٩٣٦، وعند مسلم برقم ٨٦٣.

والراجح أن هذه الحادثة كانت بعد الهجرة بقليل، ومما يؤيد هذا الترجيح ما ورد أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة ثم يخطب، حتى حصلت هذه الحادثة^(١)، فخرج من خرج أثناء الخطبة مغتفر لأن الصلاة حصلت قبلها، ولقوة الدافع للخروج حيث أصاب المدينة في ذلك الوقت جذب وجوع وغلاء سعر^(٢)، ولحادثة إيمان عدد منهم.

- مع أن الصحابة هم الجيل المميز، حصل لعدد منهم الانصراف عن الخطبة إلى التجارة واللهو، وفي هذا درس واضح لهم ولمن بعدهم أن يكون الإقبال على الله بقوة وبدون التفات إلى أمور الدنيا الدنية، وأن المرء مهما علت منزلته يبقى معرضاً للفتن والمحن فعليه أن يوطن نفسه على الثبات على الحق.

- أول صلاة جمعة في الإسلام كانت قبل الهجرة، وأم المسلمين فيها أسعد بن زرارة رضي الله عنه، وأول جمعة صلاها النبي ﷺ في ديار بني سالم بن عوف وهو متوجه من قباء إلى المدينة بعد هجرته، وأدركه وقت صلاة الجمعة هناك^(٣)، وما يزال في تلك المنطقة إلى الآن مسجد يسمى مسجد الجمعة، فمشروعية صلاة الجمعة سابق لنزول الآيات التي تبين فرضيتها، وهذه مسألة نص عليها العلماء وهي تقدم الحكم على نزول الآية الآمرة به أو الناهية عنه^(٤).

(١) أن الصلاة كانت قبل الخطبة رواه أبو داود مرسلًا، وقال السهيلي: «خليق أن يقبل»، وذلك من باب إحسان الظن بالصحابة الكرام، ونص عدد من المفسرين على تقدم الصلاة على الخطبة أول الأمر، يُنظر: الجامع لأحكام القرآن ٤٧٨/٢٠، وحداثق الروح والريحان ٣٠٤/٢٩.

(٢) ذكر عدد من المفسرين حصول الجذب والجوع وغلاء الأسعار في المدينة وقت نزول الآية، كما في التفسير الموضوعي ١٦٠/٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٦١/٢٠.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٨/٢٠٥.

- من لا تجب عليه الجمعة كالمرأة والصبي لا يُنهى عن البيع والشراء أثناءها.
- الأمر بالانتشار بعد الصلاة للإباحة لا للجوب، ولا يُمنع من العمل وقضاء الحوائج والبيع والشراء قبل الصلاة ولا بعدها.
- الظاهر أن الضرب بالدف وقت وصول القافلة لم يقصد به إلهاء الناس عن الخطبة وصرفهم عنها، سواء كان معها أو كان ممن يستقبلها، وقد يكون هؤلاء الضاربون بالدف من الغلمان أو الأرقاء الذين لا تجب عليهم صلاة الجمعة، أما القافلة فالرجال فيها مسافرون ولا تجب عليهم الجمعة، وكانت عادة الضرب بالدف حال وصول القوافل لتنبيه الناس إلى وصولها والإقبال عليها منتشرة بينهم، ولعلمهم لم ينتبهوا إلى أن حصول ذلك منهم متزامن مع وقت الصلاة إلا بعد حصوله، ولو انتبهوا لتوقفوا وأخروا فعلهم.
- تقدم ذكر التجارة على اللهو أول الآية لأنها كانت السبب الرئيس لما حصل، واللهو تابع لها، وتقدم ذكر اللهو آخر الآية لعمومه وكثرة أنواعه التي منها التجارة، وذكرهما جميعاً في الآية لاجتماعهما في الحادثة، وقد يكون ذكرهما لبيان حال من انفص عن الخطبة، فمنهم من قام لأجل التجارة، ومنهم من قام لأجل اللهو.
- حصل النهي عن البيع في قوله تعالى ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ فلم يذكر الشراء أو التجارة، لما هو معهود من حرص البائع على إتمام الصفقة أكثر من المشتري.
- افتتحت السورة بالتسبيح واختتمت بالأمر بالذكر، فحال المسلم بين ذكر في أول أمره وآخره ما أمكن ذلك.

- التدرج في موضوعات السورة، حيث بدأت بالحث على العلم ثم الأمر بالعبادة، فالعلم سابق للعمل.

القيم:

- قيمة الاستجابة لأمر الله تعالى والمصارعة إلى طاعته.
- قيمة إدراك عظيم فضل الله تعالى على عباده.
- قيمة اليقين بأن الرزق بيد الله وحده.

نشاط: احرص على التبكير في الذهاب لصلاة الجمعة، وتدبر في فوائد ذلك وبركاته.

تفسير سورة المنافقون

مدخل إلى السورة:

اسمها: سورة المنافقون بالواو على الحكاية، أو بالياء للإضافة.

نزولها: هي من السور المدنية، نزلت في السنة الخامسة من الهجرة في غزوة المصطلق أو في أعقابها مباشرة^(١).

عدد آياتها: إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدد.

فضلها: ورد في فضلها الحديث السابق في فضل سورة الجمعة، وفي إحدى روايات الحديث تفصيل يبين الحكمة من قراءة السورتين، فعن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين، وفي الثانية سورة المنافقين فيقرع بها المنافقين»^(٢).

مقصدها: كشف المنافقين وبيان بعض صفاتهم والتحذير منهم، والحث على الإنفاق قبل حلول الأجل.

مناسبتها لما قبلها: ورد في سورة الجمعة بيان حال المؤمنين، وفي هذه السورة بيان حال من يضادهم وهم المنافقون، وفي كلتا السورتين ذكر

(١) كانت غزوة بني المصطلق في شعبان من السنة الخامسة على الراجح (يُنظر: السيرة النبوية للصلاحي، ٥٧١) وكانت في موضع يقال له المريسيع، على ساحل البحر الأحمر، جنوب رابغ.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم ٩٢٧٩، وحكم عليه الهيثمي بحسن السند.

الموت والتنبيه على الاستعداد له، وفيهما الدعوة إلى ذكر الله، وفي سورة الجمعة كشف كذب اليهود، وهنا كشف كذب المنافقين.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحَسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

معاني المفردات:

المنافقون: المراد بهم هنا من يخفي الكفر ويظهر الإيمان.

نشهد: نخبر خبراً مؤكداً.

جُنَّةً: وقايةً وسترًا.

طبع على قلوبهم: ختم عليها فلا يدخلها الإيمان.

لا يفقهون: الفقه فهم الحقائق الخفية.

أجسامهم: هيئتهم.

خشبٌ مسندة: ألواح خشبية ممالة إلى جدار أو نحوه.

أنى يؤفكون: كيف يُصرفون عن الهدى.

سبب النزول: عن زيد بن أرقم قال: «كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولو

رجعنا من عنده ليخرجنا الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكره للنبي ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقته، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قطُّ، فجلست في البيت فقال لي عمي: ما أردتَ إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ...﴾ فبعث إلي النبي ﷺ فقرأ، فقال: إن الله قد صدّقك يا زيد^(١). وفي روايات أخرى تبين سبب هذه المقالة وهي الخصومة التي حصلت في تلك الغزوة بين مهاجري وأنصاري على الاستقاء من ماء، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، ولطم المهاجري الأنصاري، فلما بلغ ذلك ابن أبي قال ما أخبرت عنه الآيات، ومما قال: «أو قد فعلوها! والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك»^(٢).

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة الكريمة بأسلوب مشوق لما بعده، حيث تصف مشهد حضور جماعة من المنافقين إلى الرسول ﷺ يشهدون له بالإيمان وبالرسالة، ويردّ الله عليهم بأنه لا حاجة إلى هذه الشهادة الكاذبة، فالله يعلم أن محمداً هو رسوله حقاً، وليس محتاجاً إلى هذه الشهادة الكاذبة، فإن هؤلاء المنافقون يُقسمون الأيمان المؤكدة ليخفوا نفاقهم وليتمكنوا من محاربة الدين خفية عن الرسول وأتباعه دون خوف من انكشاف أمرهم، وبئس ما

(١) رواه البخاري برقم ٤٩٠٠.

(٢) كما في رواية الترمذي برقم ٣٣١٣، وجامع البيان للطبري ٦٦٦/٢٢، وأسباب النزول للواحدي ٤٥٨-٤٦١.

فعلوا بحلف الأيمان الكاذبة والخروج من الإيمان بعد الدخول فيه، واستحقوا بذلك الطبع على قلوبهم فلا يدخلها إيمان ولا خير، ولا يميزون بين الخير والشر والنافع والضار، وقد يكون هؤلاء المنافقون أصحاب هيئة حسنة ومنظر جميل ومنطق مؤثر، ولكنهم في حقيقة أمرهم خبيثاء البواطن والسرائر، وضعاف النفوس يخشون من اكتشاف أمرهم والخزي بسبب ذلك، ولذا ينبغي الحذر التام منهم، وهم مستحقون للعنة الله عليهم، لعدم استجابتهم إلى الهدى، مع وضوح دلائله وكثرة الدواعي لاتباعه، لكنهم أعموا أعينهم وأصموا آذانهم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- في هذه السورة التي حملت اسم المنافقين حملة عنيفة على النفاق، وتبيين عظيم خطرهم على المجتمع المسلم، ولأهمية هذا الموضوع وخطره سميت السورة باسمهم.
- تعددت المواقف السلبية للمنافقين في المرحلة المدنية من البعثة، وكان لبعض منها أثر كبير احتاج إلى وقت وجهد في علاجه ومحو آثاره، ومن هذه المواقف: الانسحاب قبيل معركة أحد، والاستشفاع ليهود بني قينقاع، والتهرب من العمل في الخندق، وإشاعة الفتنة في حادثة الإفك، وما فعلوه في غزوة تبوك من إيذاء النبي ﷺ ومحاولة قتله، وبناء مسجد الضرار.
- كثرة المؤكدات في كلام المنافقين، باستخدام الفعل «نشهد» الدال على الخبر الأكيد، وكونه فعلاً مضارعاً، وإن، واللام، وكاف الخطاب، تدل على اهتزاز ثقتهم بأنفسهم، وحاجتهم إلى تصديق كلامهم، فأكثروا فيه

من المؤكدات، وكثرت المؤكدات في جملة الرد عليهم كذلك ليتساوى
الخيران في القوة.

- الرد على المنافقين في ادعائهم من الله تعالى مباشرة فأكذبهم بشهادته،
يدل على أن حرب هؤلاء إنما هي مع الله تعالى، فليتعضوا من ذلك ويثوبوا
ويعودوا إلى الإيمان، فإنه لا قبل لهم ولا قدرة على محاربته سبحانه.
- المنافقون الذي جاؤوا معروفون بأشخاصهم لمن حضر الحادثة، ولكنّ
القرآن لم يبين أسماءهم اكتفاءً ببيان صفاتهم وأحوالهم، وقد يكون هذا
التعريض بهم أشد على نفوسهم من التصريح.
- تدم هذه الآيات الأفعال المنكرة الصادرة عن المنافقين، وهي: الكذب،
وتأكيد الكذب باليمين لاتقاء العقوبة، والصدّ عن سبيل الله بمحاربة
دينه بخفاء ودهاء، وقد استحقوا على ذلك لعنة الله والطرده من رحمته.
- الطبع على القلوب مرحلة لاحقة لختمها، فالختم هو الغلق، والطبع هو
إحكام الغلق بعد الختم على القلوب لتيقن عدم إمكان إيمانهم.
- الحكم عليهم بالكفر بعد الإيمان يحتمل أن منهم من آمن ثم ارتد إلى
النفاق، أو كاد أن يؤمن، أو أظهر الإيمان كذبا فيسمى مؤمنا حسب
ظاهره، وهذا الفعل الشنيع يؤدي إلى الطبع على القلوب وما يتبعه من
ضلال بعيد وجهل عظيم.

- الحكم على المنافقين بعدم الفقه هنا وفي الآية السابعة، نتيجة الطبع
على قلوبهم، والفقه هو فهم الحقائق الخفية، ويشمل الحكم عليهم
بعدم الفقه أموراً عديدة، فهم لا يفقهون الإيمان وحقيقته ولذا انصرفوا
عنه، ولا يفقهون ما سيقودهم إليه نفاقهم من عذاب شديد وخزي عظيم

يوم القيامة، ولا يفقهون أن الله تعالى يعلم سرهم وجهرهم وأحوالهم، ولا يفقهون أن سعيهم في حرب الإسلام إلى بوار وخسران، ولو فقهوا شيئاً من هذا لما كانوا في ذلك الحال.

- قد يوجد في المنافقين من هو جميل الصورة عظيم الجسم قوي البنية والهيئة والمنطق، ومن هؤلاء ابن أبي بن سلول فقد قال ابن عباس: «كان ابن أبي جسيما صحيحا صبيحا ذلق اللسان»^(١) كما قد يوجد فيهم الدميم قبيح المنظر، ووصفت الآية الفئة الأولى منهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لأن حصول النفاق منهم أشنع وأعظم، ولنفي التأثير بحالهم ومنظرهم، فهو مجرد مظهر خارجي، أما القلوب فخاوية، وجمال الظاهر وحسن المنطق لا يغني عن صلاح الباطن، فالعبرة في الكمال والنقصان بالأصغرين: القلب واللسان، لا بالأكبرين: الرأس والجسد، فإن الله لا ينظر إلى الصور والأموال بل إلى القلوب والأعمال، ويروى أن حكيماً رأى شخصاً حسن الوجه فظنه ذكياً فطنا، فما تكلم لم يجد عنده معنى، فقال: «ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن»^(٢).

- تشبيههم بالخشب المسندة فيه تحقير لهم، بجامع عدم الانتفاع، فالخشبة المسندة لا ينتفع منها كما ينتفع بالتي تتخذ سقفاً أو جداراً، ويدل على ضعف الشخصية عند المنافق فهو مسند، أي أنه قابل لأن يكون تابعاً لمن يلقي عليه الأوامر بلا تفكير ولا تأمل، وفيه لفت النظر

(١) ذكره الثعلبي في تفسير الكشف والبيان ٣٢٠/٩، والبغوي في معالم التنزيل ٩٨/٥، وأورده دون نسبة لابن عباس السمعاني في تفسيره ٤٤١/٥، وورد في تفسير مقاتل ٣٣٧/٤، وأورده مفسرون في تفاسيرهم.

(٢) حقائق الروح والرياحان ٣٢٧/٢٩.

إلى أن أصل الخشب اليابس كان غصنا طريا يمكن الانتفاع منه، وإلى أن الخشبة المسندة أحد طرفيها إلى جهة والآخر إلى جهة أخرى، والمنافقون كذلك فإن إحدى جهتيهم إلى الكفار والأخرى إلى المؤمنين^(١).

- يؤخذ من تشبيه المنافقين بالخشب المسندة أن الاستناد إلى جدار ونحوه في مجالس العلم من ترك الأدب^(٢).
- تصوير مشهد المنافقين في قوله تعالى ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ بالمذعورين المترقبين من أي شيء يفضح حالهم وأمرهم، ومن عاش في رعب دائم وقلق متواصل لم يهنأ ولا يقر له قرار.
- قوله تعالى ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم باللعن، وهو دعاء مستجاب لصدوره من القادر على فعله، فهو سبحانه الطالب والمطلوب منه، أو هو تعليم للمؤمنين ما الذي يقولونه عن هؤلاء المنافقين.

القيم:

- قيمة الحذر من الأيمان الكاذبة.
 - قيمة اليقين بعلم الله تعالى لحقائق الأشياء.
 - قيمة عدم الاعتزاز بالظواهر.
- نشاط:** تعددت الحوادث التي أقسم فيها المنافقون كذبا على النبي ﷺ، اذكر ثلاثاً منها، وتأمل في عاقبة فعلهم.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦/٣٠، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٣٥٧٤.

(٢) حدائق الروح والريحان ٣٢٧/٢٩.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾

معاني المفردات:

لووا رؤوسهم: أعرضوا عن المتحدث.
ولله خزائن السماوات والأرض: بيده الأرزاق كلها.
المدينة: المراد بها هنا المدينة النبوية، وكان اسمها قبل الهجرة يثرب.

المعنى الإجمالي:

تذكر الآيات مجموعة من أفعال وأقوال المنافقين القبيحة، ومنها: أنهم إذا دعوا ليستغفر لهم رسول الله ﷺ رفضوا ذلك، ورأوا أنهم ليسوا بحاجة لاستغفاره، مع أن هذا الاستغفار لن ينفعهم عند الله بسبب نفاقهم المؤدي بهم إلى الفسق، ومن أقوالهم القبيحة ما قاله زعيمهم ابن أبي في غزوة بني المصطلق: «لا تنفقوا على أصحاب محمد ليتفرقوا عنه»، وهو لا يعلم أن خزائن الرزق بيد الله وحده، وبلغ الغرور بابن أبي أن قال: «حين نرجع إلى المدينة لن نسمح لمحمد ولمن جاء معه من المهاجرين بالبقاء فيها، فنسخرجهم منها وهم أذلاء ونحن الأعزاء»، وترد الآية عليه بأنه هو ومن تبعه من المنافقين أذلاء، ومحمد ﷺ ومن معه من المؤمنين هم الأعزاء، حيث أعزهم الله بالإيمان والطاعة، وقد ظن المنافقون أن العزة ستكون لهم، وأنهم سيقدرّون على فعل ما أرادوا، ولكنهم باؤوا بالخسران.

استنباطات تربوية ودعوية:

- أراد ابنُ أبيّ استغلال الفرصة بوقوع حادثة شجار بين مهاجري وأنصاري ليوقد نار الفتنة ويدعو إلى إخراج النبي ﷺ والمهاجرين من المدينة، ولكن كيده انقلب عليه، وبدل أن يثبت أنه الأعز ثبت أنه الأذل، حيث لم يدخل إلى المدينة بعد مقولته هذه إلا بعد أن أذن له رسول الله ﷺ بذلك، وكان الذي تولى منعه ابنه عبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ أبيّ، وكان الابنُ صادقاً في إيمانه بخلاف والده، وكان تصدره لإيقاف والده قبل أن يفعل ذلك شخص آخر من علامات صدق إيمانه، ودليلاً على تقديمه الولاء للدين على الولاء للعائلة والعشيرة.
- قال ابنُ أبيّ مقولته في مجلس خاص والذين سمعوه أتباعه من المنافقين أمثاله، ولم يكن ليعلن مقولته أمام المؤمنين، إلا أن الفتى زيد بن أرقم كان قريباً منهم وسمع مقالته ونقلها للنبي ﷺ من باب النصيحة للمؤمنين، ولكن لما صدّق الرسول ﷺ ابنُ أبيّ وقع في نفس زيد همٌ عظيم وحق له ذلك، ولم يكن تكذيب النبي ﷺ تهمة له بالكذب، ولكن لعله لم يضبط ما سمع، وبما أن ابنُ أبيّ أنكر المقولة، وهو صاحب المنزلة المتقدمة اجتماعياً، قدّم قوله على قول زيد، وكان نزول الآيات فرجاً وفرحاً عظيماً لزيد ومنقبة كبرى له وميزة اختص بها.
- منذ وصل خبر مقولة ابن أبيّ للرسول ﷺ سارع ابن أبيّ وجماعته من المنافقين إلى إنكارها ونفيها، ومحاولة رأب الصدع غير المتوقع، ويبين لك ذلك: الرعبُ الذي في قلوبهم، وقدرتهم الكبيرة على الكذب واختلاق الأكاذيب وترويجها، وسعيهم الحثيث إلى عدم افتضاح أمرهم.

- حكمة الرسول ﷺ في علاج المشكلة، ويتجلى ذلك من خلال: عدم موافقته على قتل ابن أبي لا من أحد المسلمين ولا من ابنه، وارتحاله بالجيش في وقت لم يكن يرتحل فيه عادة والمسير بهم سائر النهار والليل وقسمًا من النهار التالي، فلم يلامسوا الأرض حتى ناموا من الإعياء والتعب، وكان ذلك الارتحال الطويل لقطع الكلام في الموضوع مدة من الزمن^(١).

- الموقف الرائع للصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي، فقد اقترح على النبي ﷺ إن كان يريد قتل أباه، أن يقتله هو دون غيره، وكان بلا شك صادقًا في عرضه مع ما فيه من ثقل عليه، ولكنه سيكون أخف من أن يرى قاتل أبيه يمشي بين الناس، وإن قتله بآثمه وإن تركه ثقل عليه ذلك، ولكن النبي الكريم ﷺ لم يكن يريد قتل المنافق ابن أبي، ومن حكم ذلك؛ أن لا يقول الناس: محمد يقتل أصحابه، فإن البعيد عن مثل هذه الحادثة قصارى علمه أن ابن أبي من أصحاب النبي ولا يعلمون عن خفايا الأحداث والمواقف شيئًا، وإكرام الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي فإنه كان صادق الإيمان، وفي قتل أبيه إساءة نفسية له، وأكمل هذا الصحابي موقفه الرائع بعد أن أعلمه النبي ﷺ أنه لا يريد قتل أبيه، فسبق الجيش ووقف عند مدخل المدينة ولما هم أبوه بالدخول أوقفه ومنعه وقال له: لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنك أنت الذليل وهو العزيز، وبقي أبوه واقفًا ينتظر الإذن له بالدخول، وثبت بذلك فعلا أنه الذليل وأن رسول الله ﷺ وأصحابه هم الأعزاء الكرام^(٢).

(١) السيرة النبوية للصلاحي، ٥٧٦ و ٥٧٧.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب، ٣٥٧٧ و ٣٥٧٨.

- الكبر صفة مذمومة، وتؤدي إلى التماذي في الباطل، فقد كان الكبر دافع ابن أبي إلى ردّ الدعوة له بالقدوم على النبي ﷺ وطلب الاستغفار له، ويتضمن ذلك اعترافه بخطئه في مقولته، ولكنه لم يرض ولوى رأسه كبراً وعناداً، وبقي على ذلك إلى أن توفي منافقاً.
- في قوله تعالى ﴿لَوْ أَرُءُوا سَهْمًا﴾ تصوير ما في نفوس المنافقين من إعراض عن الحق مترافق مع كبر وغطرسة وتعالٍ أدى بهم إلى عدم قبول مثل هذه الدعوة.
- في قوله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ دلالة على أن الاستغفار لا مرئ لا ينفعه إن لم يفعل هو أو يرغب به، أو يأخذ بأسباب قبوله، ودلالة على انطماس بصيرة من لم يرض استغفار النبي ﷺ له.
- ظنُّ المنافقين ومن أشبههم القدرة على منع الرزق عن الخلق، بالتضييق والتقتير، والمنع من العمل وإيجاد العوائق أمام وصول الرزق للمؤمنين، وقد ردّ سبحانه عليهم بما يبطل ظنهم، ويؤكد أن الرزق بيده يصرفه كيف يشاء.
- ظنُّ المنافقين ومن أشبههم أنهم الأعداء وأن غيرهم الأذلاء، كبراً وغروراً وقلباً للحقائق ظن باطل، بل هم الأذلاء، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فمن انتسب إلى الله وعمل بطاعته هو العزيز الكريم عند الله وعند خلقه، وإن أصابه في الدنيا ضيق أو كرب، وأصابته المنافقين عزة ظاهرية ورفعة مؤقتة فلا يغير ذلك من الحقيقة المطلقة شيئاً.
- تشابه مواقف المنافقين مع المشركين، فالمشركون ضيقوا على النبي ﷺ وأصحابه وحاصروهم في الشعب ومنعوا عنهم الميرة والمدد حتى عانوا معاناة قاسية شديدة^(١)، واستمر التضييق في زمن النبوة وما بعده

(١) السيرة النبوية للصلاحي، ١٣٠-١٨٢.

بصور مختلفة وأشكال متنوعة، وأشبههم المنافقون في عزمهم على مثل ذلك التضييق بعدم الإنفاق أو السماح به على المؤمنين، وهم يظنون القدرة على ذلك، كما يظنون أنفسهم أصحاب المال والغنى والمؤمنين أصحاب الفقر والحاجة.

- تقديم المسند على المسند إليه في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ لقصد القصر، وإعادة اللام في ﴿وَلِرَسُولِهِ﴾ مع أن حرف العطف مغني عنها لتأكيد عزة الرسول ﷺ، وأنها بسبب عزة الله، وإعادة اللام في ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتأكيد أيضاً، إذ قد تخفى عزة بعضهم، خاصة ذوي القلة والحاجة^(١).
- الإعلام بقصر العزة لله ولرسوله وللمؤمنين يقتضي من المؤمن الافتخار والاعتزاز بدينه، وأن لا يجل سوى الله سبحانه أو من أمر بإجلاله، ولا يطلب العز إلا من ربه، ولا يكون العز إلا في طاعته^(٢).
- في قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وقوله في الآية بعده ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنهم لم يعلموا دقائق الأمور فنفي عنهم الفقه، ثم تمادوا في ضلالهم وغيهم فاستحقوا الحكم عليهم بعدم العلم الذي هو أعم من الفقه، فمن فعل مثلهم وتدرج في الإيغال في الضلال حري به أن يوصف بعدم الفقه ثم بعدم العلم، فيكون قد أساء لنفسه ونزل بمقامه وخط من قيمته.
- في هذه الآيات دليل واضح على أن القرآن كلام الله تعالى، ففيها فصح ما أسره المنافقون وكشف ما أخفوه، ولما كان موافقا للواقع لم يملكوا إلا

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٥٠.

(٢) حقائق الروح والريحان ٢٩ / ٣٣٥.

الإذعان والتسليم، فهو سبحانه العليم بدواخل النفوس وأسرار المجالس، ومضمون النجوى.

القيم:

- قيمة الحذر من الكبر.
- قيمة اليقين بأن رحمة الله لا تصل لمن لا يستحقها.
- قيمة الحذر من سبيل أهل النفاق في القول والفعل.
- قيمة الثقة بعزة الله تعالى وعزة رسوله ﷺ والمؤمنين.

نشاط: ارجع إلى أحد كتب التعريف بالصحابة، واقرأ سيرة الصحابي الجليل زيد بن أرقم، واستخرج ما فيها من فوائد وعبر.

﴿بَيَّأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٠ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ١١ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٢﴾

معاني المفردات:

فأصدق: فأصدق، وأدغمت التاء في الصاد تخفيفاً.

جاء أجلها: حان وقت موتها.

المعنى الإجمالي:

انتقلت الآيات إلى نهي المؤمنين عن الالتئام عن طاعة الله وذكره، بالأموال والأولاد أو بغيرهما من الملهيات، لما يؤدي إليه هذا الالتئام من

خسران للثواب والنعيم في الآخرة، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بالمبادرة إلى الإنفاق من رزقه، لئلا يندموا على عدم الإنفاق أو يطلبوا تأخير الأجل عند وقوع الموت، ليتمكنوا من تدارك التقصير، فإنه لن يستجاب لهم، وإذا حصل الأجل فلا تأخير ولا ردّ له، والله سبحانه هو الخبير بأحوال خلقه وأقوالهم وأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تقديم الأموال على الأولاد في قوله تعالى ﴿لَا تُهْلِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ﴾ لكثرة التفكير في إنمائها والاشتغال بها أكثر، والانشغال بخزنها وحفظها، وذكر الأولاد لما لهم من معزة خاصة في نفوس الوالدين.
- يؤخذ من الآية الكريمة ﴿لَا تُهْلِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أن الاشتغال بتنمية الأموال ورعاية الأولاد إن لم يُلْه عن ذكر الله فلا نهي عنه، بل هو أمر مطلوب لحفظ النفس ومن يعول، ولكن ينبغي أن يبقى في نطاق عدم الإشغال عن ذكر الله، ويؤخذ منها كذلك أن الاشتغال عن ذكر الله بغير الأموال والأولاد أشد ذماً وأولى بالنهي، لأن في الانشغال في الأموال والأولاد مصلحة أو مصالح، وقد لا يتحقق ذلك في الانشغال بغيرهما والالتهاؤ به عن ذكر الله وطاعته.
- ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ﴾ تفيد التبعية، فالمطلوب إنفاقه إنما هو بعض وشيء يسير مما رزقك الله إياه، ولفظ ﴿رَزَقْنَكُمْ﴾ ليس مقصوراً على المال الذي هو بعض رزق الله لعباده، فالإنفاق لا يحصر في إنفاق المال، بل يتسع ليدخل فيه كل صور الإنفاق الممكنة، كبذل العلم، والجاه، والوقت، والجهد، والفكر، والقوة، والخبرة.

- مجيء الأمر بالإنفاق والنهي عن الالتهاة بالأموال والأولاد عن العمل الصالح بعد الإخبار عن مقولة المنافقين ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ لبيان أن في المؤمنين من يملك المال الكثير، وهو مستغن عما يقدمه هؤلاء المنافقون من إنفاق يظنون في منعه التسبب بانفضاض المؤمنين عن الرسول ﷺ والارتداد عن دينه، والواقع أن ما يقدمه المؤمنون الصادقون من إنفاق في سبيل الله يفوق كثيرا ما يقدمه المنافقون وأمثالهم رياء وادعاء، فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه اشترى بئر رومة ووقفه للمسلمين، وجهاز معظم جيش العسرة من ماله الخاص، حتى قال عنه رسول الله ﷺ: «ما ضر ابن عفان ما فعل بعد اليوم»^(١)، وأمثاله في الأمة قديما وحديثا كثر بحمد الله تعالى.

- تشير الآية إلى شدة تعلق الناس بالدنيا إلى درجة ما يحصل عند حلول الأجل من قول عبارة ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ممن يمكنه قول ذلك، وتخبر الآية أنه لا يمكن الاستجابة لهذا الطلب، فإن الأجل إذا حصل لا يؤخر ولا يقدم، ووقته محدد باللحظة وما دونها، ووصف التأخير بالأجل القريب لا البعيد من باب الاستعطاف رجاء أن يجاب الطلب أكثر من طلب الأجل البعيد، ولكن كلاهما ممنوع وغير ممكن الحصول.

- في قوله تعالى ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ﴾ عطف مجزوم على منصوب، ووجه النصب في ﴿فَأَصْدَقَ﴾ بأن مقدرة بعد الفاء في جواب التمني، ووجه

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٠٦٣٠ وهو حسن، وحادثة شراء بئر رومة رواها الترمذي برقم ٣٧٠٣، والحديث حسن.

الجزم في ﴿وَأَكُنْ﴾ العطف على محل ﴿فَأَصْدَقْ﴾ والتقدير: إن أخرتني أصدق وأكن من الصالحين^(١).

- عدم الاستجابة لطلب من يطلب التأخير في الأجل فيه حكمة عظيمة وهي إغلاق هذا الباب قطعياً، فإنه لو حصل واستجيب لمن يطلب التأجيل لكثير طلبه، وكلما حل الأجل تجدد طلب التأجيل، فإن التعلق بالدنيا والرغبة في البقاء فيها أمر ثابت في النفوس محبب إليها، فعدم الاستجابة لأحد تئيس لهم جميعاً أن لا يطلب أحد منهم هذا الطلب فلن يُستجاب له، ومع ذلك يتعلق بعضهم بالأمل الضعيف أو المعدم ويطلب، والله تعالى أخبر عن علمه بأنه لو استجاب لمن يطلب هذا الطلب لعادوا لما نهوا عنه، فالتأثر لحظي، والتوبة ابنة ساعتها فقط.

- في الآية الكريمة إرشاد للاستعداد للموت في كل وقت، فقد يأتي بغتة بلا مقدمات، ومن لم يكن متهيئاً لاستقباله فقد الكثير، وحال كثير من الصالحين الاستعداد التام للموت، لا يبالون متى يكون اليوم أو غداً، كما قال نبينا ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»^(٢).

- في ختم السورة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بيان لشمول علم الله بجميع أحوال خلقه الظاهرة والباطنة، فإن الخبرة أعمق وأدق من مطلق العلم.

(١) حقائق الروح والريحان ٢٩/ ٣٣٩.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٥٠٧، ومسلم برقم ٦٩٩٦.

القيم:

- قيمة الحذر من كل ما يلهي عن ذكر الله تعالى .
- قيمة الاستجابة لأمر الله تعالى بالإنفاق في سبيله .
- قيمة اليقين بحصول الأجل في وقته المحدد .

نشاط: ارجع إلى كتب الحديث النبوي واستخرج منها حديثاً يبيّن فضل الصدقة .

تفسير سورة التغابن

مدخل إلى السورة:

اسمها: سورة التغابن، وليس لها اسم آخر، ووجه التسمية انفرادها بلفظ التغابن حيث لم يرد في غيرها.

نزولها: هي من السور المدنية عند الجمهور، وقيل إنها مكية، وقيل فيها مكّي ومدني، وما عليه الجمهور من أنها مدنية أرجح لكثرة خصائص المدني فيها، وللروايات في نزول بعض آياتها^(١).

عدد آياتها: ثمان عشرة آية بلا خلاف بين علماء العدد.

فضلها: لم يصح في فضلها منفردة حديث^(٢).

مقصدها: بيان عظمة الله تعالى، والتحذير من إنكار البعث، وعرض بعض مشاهدته، وتثبيت عقيدة الإيمان بالقدر، والتحذير مما يلهي عن الله وذكره، والأمر بالإنفاق والعفو الصفح والتقوى والصبر.

(١) ذكر ابن عطية الأقوال الثلاثة ٣١٧/٥، وفي فتح القدير ٢٣٤/٥ أنها مدنية ونسبه لأكثر العلماء، وفي التحرير والتنوير ٢٥٨/٢٨ أنها مدنية عند الجمهور، وفي التفسير الوسيط ٤١٩/١٤ أن نصفها الأول مكّي وباقيها مدني، وفي ظلال القرآن، ٣٥٨٣ ترجيح أنها مدنية.

(٢) ومما لم يصح في فضلها حديث عن ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا وفي تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن» ذكره عدد من المفسرين منهم ابن عطية ٣١٧/٥، والقرطبي ١٣١/١٨ وابن عاشور ٢٥٨/٢٨ وهو ضعيف، وقال ابن كثير ١٣٥/٨: منكر، وحديث أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: «إن منهن آية أفضل من ألف آية» رواه أحمد في المسند برقم ١٧١٦٠، وهو ضعيف.

مناسبتها لما قبلها: في كلتا السورتين حث على الإنفاق، وتحذير من فتنة المال والولد، وذكرت سورة المنافقين الإعراض عن طاعة الله ورسوله، ودعت هذه السورة إلى طاعة الله ورسوله^(١).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٣ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٤ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُ وَكَانَ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٦﴾

معاني المفردات:

يسبح لله: ينزهه ويقدهه ويذكره.
بذات الصدور: بما في القلوب من خطرات واعتقادات.
وبال أمرهم: عقاب كفرهم.
بالبينات: بالحجج الواضحة والأدلة على صدقهم.
تولوا: أعرضوا عن الإيمان.

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة بالإخبار عن قيام المخلوقات كلها بتسبيح الله تعالى وتمجيده، وهو المتفرد بالملك كل ما في السماوات والأرض من شيء، فهو خالقه ورازقه والمسيطر عليه والمتصرف فيه بما يشاء، وهو وحده المستحق

(١) التفسير الموضوعي ٨/ ١٨٩-١٩٠.

للحمد على ما أنعم على خلقه، ومن مظاهر عظمته سبحانه خلق الإنسان، وترك سبيل الاختيار له، فانقسم الناس إلى كافر ومؤمن، وعلم الله بأحوالهم جميعا يشمل أدق التفاصيل وأخفى الأسرار، فهو البصير بخلقه الخبير بأحوالهم، وقد خلق سبحانه السماوات والأرض لحكمة عظمى وغاية سامية، فلم يكن خلقهما عبثا ولا لعبا، ومن كمال قدرته تعالى جعل الإنسان في أحسن صورة بين سائر الخلق، وسيكون مرجعهم جميعا إليه للحساب والجزاء، ومن دلائل عظمة الله علمه بكل شيء في السماوات والأرض، وبما يخفيه الإنسان في صدره أو يطلع عليه خواص من حوله وما يعلنه.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المكذبين من الأمم السابقة بإجمال، مبتدئا ذلك بسؤال للتشويق والترغيب في معرفة ما يتبعه: ألم تعلموا ما أصاب الأمم المكذبة التي سبقتكم؟ لقد عذبوا ونالوا جزاء كفرهم بالإبادة والإهلاك في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع، وذلك كله بسبب تكذبيهم رسلهم وتوليهم عن الإيمان واستكبارهم عن اتباع أمثالهم من البشر، ظنا منهم أنهم يستحقون أفضل من ذلك، والله سبحانه غني عنهم وعن إيمانهم وليس محتاجا إلى أحد من خلقه وهم المحتاجون إليه، وهو المحمود من خلقه المؤمنين على هداياته وأرزاقه وسائر نعمه.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تنوعت فواتح السور المفتحة بالتسبيح، فافتحت بالفعل الماضي والمضارع والأمر وبالاسم، لتشمل جميع الحالات والجوانب.
- تناسب افتتاح السورة بالفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ الدال على الاستمرار والتجدد مع موضوعها، لاحتوائها على الدعوة إلى الإيمان والصبر والعفو الصفح والإنفاق والتقوى، وهي أمور تحتاج إلى تجديد دائم.

- نسبت الآية التسبيح لجميع من في السماوات والأرض على الإطلاق، مع أن من الخلق من لا يسبح لله ولا يعبد، لأن هؤلاء مسبحون بأحوالهم وإن لم يسبحوا بالسنتهم، فسيرهم على وفق إرادة الله في الخلق من نمو وتنفس وحركة وسعي في الأرض صورة من صور التسبيح اللإرادية منهم، ولعدم الاعتداد بهم فهم لقلتهم وهوانهم على الله كأنهم غير موجودين ولا معدودين من بين الخلق السوي المسبح لخالقه.
- احتوت هذه الآيات على خلاصة التصور الكوني الإيماني المتمثل في تأكيد الوحدانية والألوهية وبيان نشأة الكون ورعاية الله لخلقه وعلمه بأحوالهم، وقصة الانحراف عن الحق^(١).
- في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ تعريف لجزأي الجملة، وهو أحد أساليب الحصر، وهو حصر حقيقي، وفيه الرد على من يزعم القدرة على الخلق أو الإنشاء من عدم.
- وجه تقديم الكافر على المؤمن في قوله تعالى ﴿فَإِنَّكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ أن سياق الكلام في التنبيه إلى عظمة الخالق وإلى الخلق وما فيه من دلائل القدرة، ليفتح عقله وبصره على الآيات البينات.
- تكريم الإنسان بجعله في أحسن صورة وأحسن تقويم، وهو بهذا المخلوق المكرم بين سائر الخلق، فوجب عليه شكر هذه النعمة العظمى والاعتراف بها. قال الألوسي: «ولعمري إن الإنسان أعجب نسخة في هذا العالم قد اشتملت على دقائق أسرار شهدت ببعضها الآثار وعلم ما علم منها ذوو الأبصار، وخص بعضهم الصورة بالشكل المدرك بالعين كما

(١) في ظلال القرآن ٣٥٨٣ و٣٥٨٤.

هو معروف، وكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن لكن الحسن
كغيره من المعاني على طبقات ومراتب، فلانحطاط بعضها عن مراتب ما
فوقها انحطاطا بينا وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهي داخله
في حيز الحسن غير خارجة من حده، ألا ترى أنك قد تعجب بصورة
وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن
فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك
عليها، وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان»^(١).

- أصالة الحق في الخلق، فالله سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق،
فلم يخلقا باطلاً ولا للهو واللعب، فللخلق حكمة بالغة وأهداف سامية
نبيلة، وفي هذا إرشاد للمؤمنين أن يجعلوا أعمالهم وأقوالهم وسائر
أحوالهم ملتبسة بالحق قائمة به وعليه، وأن يجتنبوا الباطل واللهو.

- اشتملت الآية الرابعة على ثلاث جمل، كل جملة منها أخص من
سابقتها، فالأولى في عموم علم الله لكل شيء، والثانية في علمه بالسر
وهو ما كان بين اثنين، وبالعلانية وهي الأمور الشائعة الذائعة بين الناس،
والثالثة في علمه ببواطن النفوس وخفايا القلوب^(٢).

- في قوله تعالى ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ إشارة إلى أن العذاب الذي أهلكهم في الدنيا
شيء يسير جداً كالشيء المتذوق بالنسبة لما سيرونه من عذاب الآخرة^(٣).

(١) روح المعاني للآلوسي ٣١٦/١٤ و٣١٧.

(٢) يُنظر المحرر الوجيز لابن عطية ٣١٨/٥، والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي
٤٢٤/١٤.

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي ٤٢٥/١٤.

- اعتراض المشركين على بشرية الرسل ممتد عبر الأمم المكذبة، وكأنه شعور بنقص البشر عن هذا المقام العالي، بينما هو تكريم للبشر ورفع لمقامهم وأدعى لاستجابتهم.
- الإعلام باستغناء الله تعالى عن خلقه في قوله ﴿وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ لدفع ما قد يقع في بعض النفوس من حاجة الله سبحانه إلى خلقه، والسين والتاء فيها للمبالغة.

القيم:

- قيمة الخضوع لله تعالى وتنزيهه عن كل نقص.
 - قيمة اليقين بأن الله تعالى خالق الخلق أجمعين.
 - قيمة اليقين بعلم الله تعالى المحيط بكل شيء.
 - قيمة الاعتبار بما أصاب الأمم السابقة بسبب كفرهم.
- نشاط:** قارن بين الآيات الأربع الأولى من سورة الحديد، وسورة التغابن، وبيّن أوجه التشابه والاختلاف بينها.

﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُجْعَلَ قُلٌّ يَلِي وَرَثَتِي لَتُبْعَنَّ ثُمَّ لَتَنبَوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾
 ﴿٧﴾ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ
 التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
 يَهْدِ اللَّهُ سَبِيلَهُ وَيُؤْتِ كُلَّ شَيْءٍ عَلَىٰ حَسْبٍ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ
 رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

معاني المفردات:

زعم: قال قولاً باطلاً.

التغابن: تحسر الناس على تقصيرهم.

المعنى الإجمالي:

تبدأ هذه الآيات بالرد على الكافرين الذين قالوا قولاً باطلاً وهو أنه لا بعث ولا جزاء، فردّ سبحانه عليهم بتلقين النبي ﷺ أن يؤكد لهم مقسماً بربه الذي أرسله أن البعث كائن حقاً، وأن الحساب لهم سيتضمن إعلامهم بما عملوا في الدنيا، وأمر البعث والخلق كله يسير على الله القدير، وبعد تأكيد حصول البعث ينتقل الحديث إلى الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله وما أنزله من كتاب وتشريعات، وتأكيد علم الله بكل أعمال الخلق علماً تفصيلياً محيطاً بدقائقه وخفاياه، وحين يجمع الله الخلق يوم القيامة، سيتحسر الناس على تقصيرهم وتفريطهم في العمل ويتمنى كل مقصر منهم لو أنه لم يضيع وقته وحياته في الملهيات والشواغل عن الإيمان أو الإهمال في الطاعات والقربات، ومعظم الخلق مقصرون في حقه سبحانه، وبعد الحساب يجزي الله من آمن به وعمل صالحاً بتجاوز السيئات والعفو عنها، ودخول جنات من صور نعيمها جريان الأنهار من تحت أشجارها وقصورها، مقيمين فيها لإقامة لا نهاية لها، ولا فوز أعظم من ذلك، ويجزي من كفر به وكذب بآياته ورسله عذاباً دائماً لا ينقطع ولا ينتهي في النار، وهي مصيرهم السيئ المناسب لأعمالهم والمستحق لهم بسبب الكفر والتكذيب.

ثم بين سبحانه أن كل ما يجري في هذا الكون بأمره، من أمور حسنة أو غيرها، وأنه يعلم دقائق الأشياء وتفاصيلها، والإيمان بهذا يريح القلب من

التفكير في التدبير وحمل هموم الحياة، ويهدي قلب صاحبه إلى الهدوء والاطمئنان، ثم دعا سبحانه الخلق إلى طاعته وطاعة رسوله في كل ما يأمران به، وإن تطيعوا وتستجيبوا فقد بلغكم الرسول ما أرسل به بأوضح صورة وأتم بيان وأقام عليكم بذلك الحجة، والله سبحانه هو الواحد لا شريك له في الخلق والإيجاد والحكم والتدبير، ثم دعا سبحانه عباده المؤمنين إلى التوكل عليه دون غيره في جميع أحوالهم وأمورهم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- ذمّ الزعم دون توثق أو تبين، ولا يليق بالإنسان المخلوق المكرم بالعقل والإرادة أن يبني عقيدته وتصرفاته على أساس هش من الزعم والتهيو والتقليد ونحوها، بل عليه أن يتيقن مما يعتقد وما يفعل، وقد نهى النبي ﷺ عن النقل دون توثق في قوله: «بئس مطية الرجل زعموا»^(١).
- الالتفات من الغيبة في ﴿فَنَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى التكلم في ﴿وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا﴾ لزيادة الترغيب في الإيمان بالقرآن تذكيراً بأنه منزل من الله^(٢).
- وصف يوم القيامة بأنه يوم التغابن لم يرد إلا في هذه السورة، وهو وصف ينبئ عن حال الخلق فيه، ويتضمن توجيهها إلى الحرص على العمل واغتنام الوقت في الخير، حتى لا يتحسر المرء ويغبن في ذلك اليوم، الذي لا ينفع فيه تحسر ولا ندم ولا توبة.
- ورود الفعل المضارع في ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ﴾ والفعل الماضي في ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأن التقدير: ومن يؤمن بالله من الذين كفروا، والإفراد في

(١) رواه أبو داود برقم ٤٩٧٤، وهو صحيح.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٧٣.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ﴾ لمراعاة لفظ (مَنْ) والجمع في ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لمراعاة معنى (مَنْ) وهو جمع^(١).

- النص على أن عذاب جهنم هو ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بعد النص على خلود أهل النار فيها، تأكيد بعد تأكيد، وتصريح بدل التلميح، لزيادة الوعيد والتخويف^(٢).

- تأكيد خلود أهل الجنة فيها بزيادة لفظ ﴿أَبَدًا﴾ وعدم حصول هذا التأكيد في حق أهل النار، إشارة إلى عظيم رحمة الله بعباده وأنها تسبق غضبه، ولترغيب المؤمنين أكثر بالسعي إلى الجنة، وطمأنتهم بأن خلودهم فيها أبدي لا انقطاع له.

- في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ تطمين وترغيب في الصبر والثبات، وبيان لفضل الله على عباده، ولحسن عاقبة الإيمان في الدنيا قبل الآخرة.

القيم:

- قيمة الإيمان بالبعث.
- قيمة الثقة بما وعد الله تعالى به عباده المتقين من أجر عظيم.
- قيمة الثقة بأن كل ما يجري في الكون بأمر الله تعالى.
- قيمة الطاعة التامة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

نشاط: اذكر آية أخرى فيها الرد على إنكار البعث، وقارن بينها وبين الآية (٧) في هذه السورة، وبين ما بينهما من أوجه التشابه والاختلاف.

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٥.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٥، وحقائق الروح والريحان ٢٩/ ٣٩٤.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوا هُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِشْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٦ إِنْ تَقَرَّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٨﴾

معاني المفردات:

فتنة: ابتلاء واختبار.

شح نفسه: ما جُبلت عليه من البخل والحرص.

سبب النزول: ورد في سبب نزول هذه الآيات أن عوف بن مالك شكاً إلى

النبي ﷺ جفاء أهله وولده فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ...﴾ إلى آخر السورة^(١)، وعن ابن عباس أن رجلاً من أهل مكة أسلموا وأرادوا الهجرة إلى المدينة فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا النبي ﷺ، فلما أتوا النبي ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهُمْوَا أَن يَعَاقِبُوهُمْ فَأَنزَلَ اللَّهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوا هُمْ﴾^(٢)، ومن المحتمل أن يكون كلاهما سبباً لنزول الآية.

المعنى الإجمالي:

تبدأ هذه الآيات ببناء المؤمنين جميعاً، وتبعه تحذير لفئة منهم قد تحصل بينهم وبين أزواجهم وأولادهم عداوة وإشكالات بسبب اختلاف

(١) أورده الطبري في جامع البيان ٢٣/ ١٥، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢١/ ٥، والشوكاني في فتح القدير ٥/ ٢٣٤.

(٢) رواه الترمذي برقم ٣٣١٧، وهو حسن.

العقيدة أو السلوك أو المفاهيم أو الخلاف في جوانب من الحياة، أو ضيق الحال، فتنقلب الصلة داخل البيت الواحد من علاقة ود ورحمة إلى علاقة عداوة وتدابير وتقاطع، فتحذر الآية من يحصل معه ذلك إلى الحذر والانتباه وحسن التصرف، والتعامل مع الأهل باللين والعفو الصفح عن الإساءة بدل الغلظة والشدّة وتوسيع دائرة الخلاف، فإن الحياة هي دار الابتلاء والتمحيص.

وقد يكون الابتلاء في المال والولد، وله صور كثيرة متنوعة، منها حصول العداوة وعدم التوافق، وقد أعد الله الأجر العظيم لمن اجتاز الابتلاء، والتزم بأمر الله واتقاه بقدر وسعه وطاقته، وأنفق مما رزقه من مال وغيره، فإن الإنفاق خير له من الإمساك والشح، وفي الإنفاق انتصار النفس على ما جبلت عليه من شح يمنعها من البذل والعطاء، ومن تجنب الشح والبخل وأنفق كما أمر فقد أفلح وفاز.

ومن الترغيب في البذل والإنفاق:

- التعبير عنه بالقرض الحسن، فإن المال المقرض سيرجع إلى صاحبه.
- نسبة القرض إلى الله، تأكيداً لحصول الثواب وإطعاماً في الإقبال عليه.
- وعد من ينفق ويقدم العون لعباد الله المحتاجين بمضاعفة الأجر، وغفران ما مضى من ذنوب.

والله سبحانه كثير الشكر لعباده المنفقين، حلیم على عباده العاصين فلا يعجلهم بعقوبة وجزاء، وهو سبحانه واسع العلم بعباده وخلقه، يستوي عنده العلم بالجهر والسر، وبما في عالمنا المشاهد وبما في العالم المغيب عنا، له العزة والمنعة، وهو ذو حكمة بالغة يضع كل شيء في موضعه الأنسب، ويحكم بما يريد.

استنباطات تربوية ودعوية:

- التحذير في هذه السورة - كما في سورة المنافقون قبلها - من الالتئام عن الخير بالأموال والأولاد، وفي هذه السورة زيادة بيان أن من الأولاد والأزواج ما يكون عدوًا للمرء يمنع من الخير ويمنع الخير عنه، ولن تكون جميع العائلات والأسر متفقة متآلفة، ولكن من الواجب الانتباه إلى النفس والأسرة، والحرص الشديد على إقامة العلاقات فيها على التواد والتراحم والتآلف، وتقليل حدة الخلاف حين يوجد إلى أدنى ما يمكن، والتخفيف من آثاره على الأسرة وتماسكها، والأخذ بهذا التحذير الرباني من حصول العداوة وتناميها داخل الأسرة الواحدة.
- عداوة الأولاد والأزواج لفعالهم لا لذواتهم، فمن فعل فعل العدو كان عدوًا، وكما أن الزوجة قد تكون عدواً لزوجها، قد يكون الزوج عدوًا لزوجته، فعموم قوله ﴿مَنْ أَزْوَاجُكُمْ﴾ يدخل في الذكر والأنثى^(١)، و﴿مَنْ﴾ فيه للتبعيض.
- في الجمع بين الأفعال الثلاثة: العفو والصفح ومغفرة الزلات بيان لما ينبغي أن يسود العلاقات في الأسرة من عفو وتسامح حتى وإن ظهر من بعض أفرادها تعامل سلبي، يعالج بالحكمة واللين والحسنى، وتعد هذه الثلاثة من مكارم الأخلاق التي تقرب البعيد وتلين القاسي، وتدفع الشحناء والبغضاء بين الناس، ولذا كثر في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الحث على الالتزام بها، وهي من مفاتيح الوصول إلى رحمة الله ومغفرته.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢١/١٧ و ١٨.

- عدم ذكر جواب الشرط في قوله تعالى ﴿وَأَنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ لدلالة ما بعده عليه وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وتقديره: يحب الله ذلك منكم^(١).

- تتعدد وتكثر وتنوع صور وحالات الفتنة بالأولاد والأموال، فقد تصل إلى كسب الحرام من أجلهم، ومنع حق الله تعالى، والتقصير في الطاعات والقربات لجمع المال وكفاية الأولاد، وقد تلهي عن بعض الأعمال الصالحة وتشغل عنها، وقد تكون عملاً صالحاً في نفسه يشغل عن عمل صالح آخر، ففي الحديث عن بريدة قال: «رأيت النبي ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما، ثم أخذ في خطبته»^(٢).

- قد يُظن أن الأمر بتقوى الله على قدر الاستطاعة في هذه الآيات يُعارض الأمر بتقوى الله حق تقاته في سورة آل عمران، وفي الحقيقة لا تعارض بينهما، فإن فعل التقوى بقدر الاستطاعة هو حقها اللازم أدائه.

- تكرر الأمر بالإنفاق في الآيات حثاً عليه وترغيباً فيه، لما له من أثر كبير في بناء الثقة والتحاب بين أفراد المجتمع وسد الخلل والحاجة عند فئات فيه، فيكتفي ذو الحاجة المعطى، ولا يتضرر المنفق المعطي بل يُبارك له في ما أعطى وفي ما بقي، وتنوع الأمر بالإنفاق لزيادة الترغيب،

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٨٥.

(٢) رواه الترمذي برقم ٣٧٧٤، وهو صحيح.

فكان الانتقال من الأمر المباشر ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ إلى تبين حصول الفلاح لمن يصنّي نفسه من الشح العالق بها، إلى الالتزام بمضاعفة الأجر على الإنفاق والحث عليه بتصويره كأنه قرض يقدمه المنفق لله سبحانه، الذي لا يمكن أن يخلف وعده بتنمية هذا القرض ومضاعفة أجره، إلى وصف القرض بالحسن إشارة إلى حسن العاقبة والثمرة له، وحسن نية المنفق في أداء وبذل ماله للمحتاج وكأنه لا يريد من وراء ذلك أجراً ومثوبة، لأن القرض الحسن مع الناس هو الذي لا اشتراط لزيادته.

- ورد إضافة الشح إلى النفس هنا وفي سورة الحشر في سياق مماثل ﴿وَمَنْ يُوقِشْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وورد بيان ملازمة الشح للناس في قوله تعالى ﴿وَأَخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] فالشح وهو أشد البخل متأصل في النفوس، وتشرع مجاهدته ومقاومته لاتقائه والترفع عنه.

القيم:

- قيمة الحذر من الفتن الظاهرة والخفية.
- قيمة التقوى وبذل الجهد في حصولها.
- قيمة الاستجابة لأمر الله تعالى في فعل الخير.
- قيمة اليقين بشمول علم الله تعالى.

نشاط: بين أوجه التشابه والاختلاف بين الآية (٢٨) من سورة الأنفال، والآية (١٥) من سورة التغابن.

تفسير سورة الطلاق

مدخل إلى السورة:

اسمها: سورة الطلاق، وتسمى سورة النساء القصرى، أخذنا من الرواية عن ابن مسعود قال: «نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى»^(١)، ويقصد بالقصرى هذه السورة وبالطولى سورة البقرة حيث ورد فيهما أحكام تتعلق بالنساء والطلاق.

نزولها: هي من السور المدنية، وقد ورد في سبب نزولها أو نزول أولها أن عبد الله بن عمر طلق زوجته وهي حائض، فأمره رسول الله ﷺ بمراجعتها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، فإن بدا له أن يطلقها فله قبل أن يمسه^(٢).

عدد آياتها: إحدى عشرة آية في العدد البصري، واثنى عشرة آية في سائر مذاهب العدد^(٣).

مقصدها: تبين أحكام الطلاق وتقريرها، والتذكير بتقوى الله، وبيان عاقبة الكفر والتكذيب.

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٥٨.

(٢) رواه البخاري برقم ٥٢٥١، ومسلم برقم ١٤٧١.

(٣) المواضع المختلف في عددها ثلاثة: ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عده الشامي وتركه الباقر وهم المكي والمدني الأول والأخير والبصري والكوفي، ﴿يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا﴾ عده المدني الأخير والمكي والكوفي وتركه الباقر، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ عده المدني الأول وتركه الباقر (الميسر في علم عدّ آي القرآن، ١٩٥).

مناسبتها لما قبلها: ذكرت سورة التغابن الابتلاء، وحذرت من عداوة الأزواج، وبينت هذه السورة حالات من ذلك، وسبيل الخلاص من الخلاف بالطلاق، وفي السورتين تبين عاقبة المكذبين والمؤمنين، وخُتِمتا بتعظيم الله وبيان إحاطة علمه وكمال قدرته، وفي كليهما الأمر بتقوى الله والترغيب في العمل الصالح^(١).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرٍ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾

معاني المفردات:

لعدتهن: مستقبلات لها.

أحصوا العدة: اضبطوها وأكملوها.

بلغن أجلهن: قاربن انقضاء عدتهن.

لا يحتسب: لا يخطر في باله.

حسبه: كافي.

قدرًا: أجلًا ينتهي إليه.

(١) التفسير الموضوعي ٨ / ٢١٤.

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة بنداء النبي ﷺ وأمته في ذلك الأمر تبع له، وفي البدء بهذا النداء تبين لأهمية الموضوع الذي سيأتي بيانه، وهو أحكام تفصيلية تتعلق بالطلاق، ولما كان الطلاق مظنة النزاع والخصام، وما قد ينتج عنه من افتراء وكذب وتقاطع بين الزوجين وعائلتيهما بينت الآيات الكريمة دقائق الأحكام المتعلقة به، وأكثرت السورة من التذكير بالتقوى لعظم حاجة الناس إليها في حال الطلاق والخصومة.

وبدأت بأول هذه الأحكام وهو أن يكون الطلاق إن عزم عليه أحدكم في طهر لم يمسه^(١) فيه، لما في ذلك من الرفق بالمرأة والبعد عن الإساءة لها وتطويل مدة العدة عليها، وينبغي ضبط مدة العدة بدءاً وانتهاءً، ولا يجوز خروج أو إخراج المرأة من بيت الزوجية خلال فترة العدة فحقها وواجبها أن تبقى فيه إلا أن يحصل سبب يقتضي غير ذلك مثل حصول ما يُسيء إلى الزوج أو وقوعها في عمل فاحش كالزنى أو السرقة أو الإساءة بالكلام للزوج أو أهله أو الجيران.

وهذه الأوامر من الله يجب العمل بها ولا يجوز إهمالها ولا تعديها، ومن تعدى حدود الله فهو ظالم لنفسه بذلك، والله حَكَم في كل ما شرعه لعباده في هذه الأحكام وقد يحصل من خلال التزامها ما يغير الأحوال السيئة إلى حسنة، والخصومة إلى صلح، والغضب إلى رضى.

(١) فإن حصل الطلاق في غير هذا الحال كأن يقع في حيض أو في طهر مسها فيه، يحسب عليه ولا يكون باطلاً ويسمى طلاقاً بدعياً، ويقابله الطلاق السني الحاصل في طهر لم يمسه فيه (الجامع لأحكام القرآن ٢١ / ٣١).

وفي حال أراد الزوج مراجعة مطلقته فينبغي أن يكون ذلك قبل انتهاء العدة، فإذا انقضت مدة العدة ولم يراجع الرجل مطلقته فقد انفصلت عنه وحرمت عليه، ويندب في حال المراجعة أو المفارقة الإشهاد على ذلك حفظاً للحقوق ورفعاً للخصومة، وهذه الأحكام ينبغي على المؤمنين بالله واليوم الآخر الالتزام بها والعمل بمقتضاها.

ثم اتجهت الآيات إلى الأمر بالتقوى والحث عليه وبيان آثاره، فإن التزام التقوى يؤدي إلى تفريج الكروب وحصول الخيرات، مما يتوقعه المرء وما لا يتوقعه ولا يخطر بباله، كما أن المتوكل على الله يكفيه ربه ما أهمه ويقضي له حاجاته ويسر له أمره، فإنه سبحانه هو الحاكم في هذا الكون بما يريد، وهو الذي يقدر ما يكون وما لا يكون، ويجزي الأتقياء والمتوكلين عليه بما يكافي عملهم الصالح.

استنباطات تربوية ودعوية:

- جاء الإسلام بتنظيم أمور الحياة كلها، ومن بينها الزواج والطلاق والميراث، وقد كان للعرب في الجاهلية عادات سيئة في هذه الأمور، فضبطها الإسلام وهذبها، ومن ذلك تحديد عدد مرات الطلاق، ومدة العدة، وأحكام الرجعة، وأحكام الظهار والإيلاء وغيرها، وقد تولت هذه السورة وآيات من سورة البقرة تبين الأحكام المتعلقة بالطلاق.
- يدل بدء السورة بخطاب النبي ﷺ على أهمية موضوع الطلاق، وأنه ينبغي على المجتمع إيلاؤه الاهتمام المناسب، وأن يغلف في جميع الأحوال بالإحسان وتحيط به التقوى، ويقترن بحسن التعامل والعدل والإنصاف، لتبقى صورة المجتمع المسلم صافية نقية.

- يشير قوله تعالى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ بأداة الشرط إلى أن الطلاق ليس الأصل في المجتمع، وأن الأصل استمرار الحياة الزوجية، فعقد الزواج حصل ليبقى، ولتقوم من خلاله أسرة متماسكة العلاقات والوشائج، ولكن في حال حصول ما يستدعي الفراق ويجعل استمرار هذه العلاقة صعباً أو مستحيلاً كان تشريع الطلاق.
- لما كانت أحوال الطلاق مظنة لسوء التعامل وتبادل الاتهامات والافتراءات بين الزوجين، ويبين من يتبع كلا منهما، ذكرت الآيات الكريمة تفاصيل ودقائق هذا الحكم، رفعاً للخلاف فيها، وتأكيذاً على ضرورة الالتزام بها وعدم تجاوزها.
- يحصل في نفوس بعض الناس حال الطلاق شحناء وتعدّ، ولذا حصل التذكير في السورة بتقوى الله عدة مرات، فلا يليق بالمرء المسلم أن يتجاوز ثوابته ويخرج عنها في حال الغضب والخلاف، فتذكره الآيات الكريمة بالتقوى التي هي ميزان لعمله وضابط لسلوكه، وتعهده بما يترتب على التقوى من تفريج الهم وذهاب الغم والرزق الوفير وتيسر العسير.
- امتزج التذكير بالتقوى والأمر بها في ثنايا الآيات بشكل كبير، لكسر الجمود في عبارات التشريع، ولترقيق القلوب في هذه المواقف المتوترة، وتعددت وتنوعت العبارات الآمرة بالتقوى والتوكل، كما تنوعت في تبين ثمره ذلك.
- الاعتناء بالأسرة والاهتمام بها قوام المجتمع الصالح، وفي حال مشوب خلاف فيها، يكون البدء بخطوات الإصلاح بالتدرج، فإن تعذر كان اللجوء إلى الطلاق هو الحل النهائي، وعلى الزوج أن يتحلى بالمعروف

في تعامله مع مطلّقه إن أراد إمساكها أو مفارقتها، فلا يضارها بالرجعة ليعيد طلاقها ويطيّل مدة بقائها بلا زوج، أو يراجعها ليعلقها أو يكايدها لتفتدي نفسها، أو يسب ويشتم ويغلظ القول، وهي مأمورة أن تعامله بالمعروف كذلك^(١).

- الطلاق وإن كان مباحاً فإنه محصور في نطاق الضرورة وبعد استيفاء الوسائل الممكنة لمنعه، وفي حال حصوله كثرت المرغبات للتراجع عنه، مثل: تحديد وقت العدة، وبقاء المطلقة في بيت مطلقها فترة العدة، وتفريق الطلقات الثلاث^(٢)، وإن جمعها شخص فتعد واحدة عند عدد من العلماء.
- تأكيداً للأمر ببقاء المرأة المطلقة ببيت الزوجية وعدم مغادرته أضاف سبحانه البيوت إليهن في قوله ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾، ونهى الرجل عن إخراجها ونهاها عن الخروج من تلقاء نفسها، ولهذا الحكم حكم عديدة منها: حفظ عرضها وصيانة سمعتها من الكلام، وأنها قد لا تملك مكاناً مناسباً ومأوى خاصاً بها، ولا تجد من يؤويها، ولما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من عودة الأمور إلى طبيعتها واستئناف الحياة الزوجية وإنهاء حالة الطلاق^(٣).
- قوله تعالى ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾ أي قاربن بلوغه، وهو من المجاز المرسل وعلاقته ما سيكون، وليس وقت المراجعة محصوراً في قرب انتهائه بل هو مفتوح من لحظة وقوع الطلاق، لكن حين يضيق الوقت يحسن التذكير بإمكان المراجعة.

(١) في ظلال القرآن ٣٥٩٥-٣٥٩٨.

(٢) حدائق الروح والريحان ٤١١/٢٩.

(٣) يُنظر: التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي ٤٤٦/١٤.

- تقديم الإمساك أي الرجعة على المفارقة في قوله تعالى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ ترغيب فيه لما يُبنى عليه من عودة الأمور إلى ما ينبغي .
- جاءت هذه الجملة ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ مؤكدة لمضمون ما قبلها، فقد يستبعد بعض المؤمنين تحقق الوعود السابقة أو يتردد في حصولها، فكان التأكيد بهذه الجملة مزيلا للتردد والاستبعاد^(١).

القيم:

- قيمة الالتزام بحدود الله تعالى .
- قيمة الحذر من الظلم للنفس والآخرين .
- قيمة استحضار أهمية الشهادة ومقامها .
- قيمة التوكل على الله دون سواه .

نشاط: اعقد موازنة بين ما تأمر به الآيات الكريمة من تعامل حال حصول الطلاق، وبين ما تراه في المجتمع، وتأمل في سبل حل الخل والإشكال.

﴿وَالَّتِي يَبْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۖ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝ أَسْكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُهِنَّ فَاسْتَرْضِعْ لَهُنَّ ۗ

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣١٤ .

أُخْرَى ۖ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۚ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا

ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴿٦﴾

معاني المفردات:

- يُسِّن: انقطع عنهن.
- وجدكم: قدرتكم وطاقتكم.
- تضاروهن: تضيقوا عليهن.
- وأتمروا: ليأمر كل منكم غيره بفعل المعروف.
- تعاسرتم: اختلفتم.
- سعة: قدرة مالية.
- قُدِرَ عليه رزقه: فقير لا يملك ما يكفيه من المال.

المعنى الإجمالي:

تبدأ الآيات الكريمة بتفصيل بيان مدة العدة حسب اختلاف أنواع النساء، وقد بينت آية في سورة البقرة أن مدة العدة ثلاثة قروء، أطهار أو حيضات، على خلاف واسع بين المفسرين والفقهاء، وتبين هذه الآية أن المرأة التي لا تحيض إما لكبر سن أو صغره أو لعلة ما، فعدتها تحسب بالمدة وهي ثلاثة أشهر، وأن المرأة الحامل عدتها بوضع حملها مهما كانت المدة، وهذا حكم الله وعليكم الالتزام به، ويتوافق تبين هذه الأحكام مع الحث على التقوى وبيان فضلها وثمرتها من تيسير الأمور وتكثير الأجور وتكفير الوزر والإثم، ومراعاة التقوى تقود إلى العدل وحسن التعامل والبعد عن الظلم والتعدي والافتراء.

وتأكيدًا للأمر بإبقاء المطلقات في بيوتهن تعود الآية إلى الأمر به، مع تبين أن يكون السكن متناسبًا مع قدرة الرجل المالية، فلا يبالغ ولا يُنقص،

ولا يضيق على مطلقة في التعامل وفي الحديث ليضطرها إلى الخروج منه، ويستمر سكن المطلقة والإنفاق عليها إلى أن تنقضي عدتها بالأقراء أو المدة أو وضع الحمل، ولها بعد الولادة إن أرضعت ابنها نفقة بما يتم الاتفاق عليه بينها وبين مطلقها، فإن لم يتفقا يُرضع من غيرها بالأجرة إن قبل ذلك، وإن لم يقبل إلا الرضاع من أمه تُلزم بإرضاعه وتعطى نفقة غيرها من مثيلاتها في المستوى المالي والاجتماعي.

ومن لطف الله تعالى بعباده أنه لا يكلف أحداً فوق طاقته وقدرته، وعلى والد الطفل الرضيع أن يبذل المال لإرضاعه بقدر وسعه، ولا يمتنع عن ذلك، وإن كان لا يملك إلا القليل قدم ما يمكنه بلا مراوغة ولا تضليل للقضاء ولا حرمان لابنه الرضيع من حقه، وسيهيئ سبحانه تيسير الفرج بعد الضيق والسعة بعد الشدة والعسر، فإن دوام الحال من المحال.

استنباطات تربوية ودعوية:

- احتوت الآية الرابعة على تبين مدة العدة للأصناف التي لا تندرج في ما سبق بيانه من عدة القروء الثلاثة، وهنّ: اليائسات واللاتي لم يحضن والحوامل، وبهذا التبيين الواضح تكتمل الصورة لجميع الحالات، وهذا التبيين من رحمة الله بعبادة ولطفه بهم، وختمت الآية بالتذكير بالتقوى وأنها تؤدي إلى تيسير الأمر.
- للمطلقة طلاقاً رجعيّاً حق السكنى والنفقة ما دامت في العدة، وأن يكون السكن متناسباً ولائقاً بمستوى دخل الزوج المطلق، ومثلها المطلقة الحامل لها حق النفقة والسكنى، أما البائن غير الحامل والمطلقة ثلاثاً فقليل لها السكنى والنفقة وقيل السكنى فقط، وقيل لا نفقة لها ولا

سكنى، ويحرم على الزوج الإضرار بها في النفقة والسكنى^(١)، وفي هذه الأحكام سمو وإنسانية ورفعة في التعامل ودعوة إلى العدل حتى حال الخصومة وحصول الطلاق.

- في قوله تعالى ﴿وَأْتِمِرُوا بِبَيْنِكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ توجيه عظيم التأثير للوالد المطلق والوالدة المطلقة أن يراعى حق الرضيع ويغلبا مصلحته، فلا تمتنع الأم عن إرضاعه مقابل النفقة، ولا يمتنع الأب عن الإنفاق، وأن يغلف ذلك كله بالمعروف لا بالعناد والمكابرة والإيذاء.

- من رحمة الله بعباده أنه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَمًّا﴾ وهذا يدل على واقعية ويسر التشريع، وأن التكليف ليس للإيذاء والإعنات ولكنه سبيل لنيل رضى الله وعفوه ورحمته.

- ختم أحكام الطلاق بقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وهو وعد بحصول اليسر، وفيه دفع للوساوس والهواجس والغیظ والحنق والمشادة، وتندية للجفاف الناشئ من حالة الطلاق^(٢).

القيم:

- قيمة استحضار مراقبة الله تعالى لأفعالنا وأقوالنا.
- قيمة التقوى ودورها في تيسير الأمر.
- قيمة الإحسان في التعامل حال الخصومة.

(١) التفسير المنير ١٤/٦٧٣ و٦٧٤.

(٢) في ظلال القرآن ٣٦٠٤.

نشاط: ورد في الآية (٧) من سورة الطلاق أربع جمل، وورد بمعنى كل جملة منها آية أو عبارة في سور أخرى، اذكر تلك الآيات، وبيّن ما بينها وبين هذه الآية من أوجه التشابه والاختلاف.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝١١ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾

معاني المفردات:

- وكاين: كثير من.
- عتت: تجبرت.
- عذاباً نكراً: عظيمًا شديدًا.
- وبال أمرها: عاقبة كفرها.
- ومن الأرض مثلهن: في إحكام الخلق وفي العدد.
- يتنزل الأمر: يجري الأمر والقضاء.

المعنى الإجمالي:

بعد تبين أحكام الطلاق انتقلت الآيات إلى الإخبار عن أحوال أمم سابقة كثيرة، كفرت بربها ولم تطعه كما أمر وكذبت رسله، فتم عقابها بالإهلاك في الدنيا، وحسابها يوم القيامة عسير شديد، وعذابها فيه أليم

فطيع، فلا يكن حالكم كحالهم وكونوا أصحاب عقول متزنة واعية، وأصحاب إيمان راسخ واتبعوا ما أنزل الله تعالى على نبيه من ذكر وأحكام، فيها الخير لكم في الدنيا بالخروج من ظلام الكفر والضلال والجهل إلى نور الحق والإيمان والعلم، وفيها الخير لكم في الآخرة بدخول جنات النعيم والإقامة الدائمة فيها بلا انتهاء ولا زوال، مع التلذذ بكل ما فيها من رزق حسن وصور لا حصر لها من النعيم المقيم والخير المتوالي المتتابع المتجدد.

وتختم السورة بالإخبار عن سعة ملك الله تعالى ومتانته، وتدبير أموره بالدقة الفائقة، فالله سبحانه خلق سبعا من السماوات العظيمة في سعتها وارتفاعها، وخلق سبعا من الأرضين في طبقات متراسة بعضها فوق بعض، ويجري أمر الله وحكمه في هذه السماوات وهذه الأرضين، وهذا الخلق والنظام الدقيق دليل ينبغي أن يقود إلى العلم والإقرار بعظمة الله وقدرته المطلقة على كل شيء، وعلمه الواسع المحيط بكل خلقه.

استنباطات تربوية ودعوية:

- إعلامنا بما صدر عن الأمم السابقة من تكذيب وما لحقهم من عذاب ودمار وهلاك فيه العبرة لنا أن نحذر من سلوك طريقهم ومن السير على منوالهم، ومنهم أمم أشد منا قوة وعظمة ولم يغن ذلك عنهم شيئا.
- مناسبة ختم السورة بالحديث عن الإهلاك التنبيه إلى أن الفساد الممكن من الطلاق قد يشيع ليقود الأمة إلى الضلال والدمار والهلاك^(١).

(١) في ظلال القرآن ٣٦٠٥.

- إضافة الأمر إلى الرب في قوله تعالى ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ دون غيره من الأسماء فيه توبيخ لهم وبيان لجهلهم، فإن الرب هو المنعم، والأولى تعظيمه لا العتو عن أمره^(١).
- الضمير في ﴿فَخَسِبْنَا... وَعَدَّ بَنَاهَا... أَمْرَهَا﴾ يعود على القرية، والمراد أهلها، وهذا مجاز مرسل علاقته المحلية، وقد ذكرت الآية أربعة أمور هي: الحساب، والعذاب، والذوق، والعاقبة، منها ما حصل في الدنيا ومنها ما سيحصل في الآخرة، والتاريخ والواقع فيهما الكثير من العبر لأمم ذاقَت الفقر والفساد والانحلال والقحط والظلم وعدم الطمأنينة وعدم الاستقرار، لتركها أمر الله وبعدها عن منهجه ودينه.
- في النداء بوصف ﴿يَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ إيماء إلى أن العقول الراجحة تدعو إلى تقوى الله، وإتباعه بوصف ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشارة إلى أن قبولهم الإيمان عنوان على رجاحة عقولهم^(٢).
- ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ^(١٠) رَسُولًا﴾ الذكر هو القرآن والرسول هو نبينا محمد ﷺ، وفي الجملة فعل محذوف تقديره: وأرسل، أو تقديره: اتبعوا فيكون النصب على الإغراء، ويجوز أن يكون ﴿رَسُولًا﴾ بدل اشتمال من ﴿ذِكْرًا﴾، ولهذا الوجه إحياءات عميقة، تشير إلى امتثال الرسول ﷺ ما أنزل عليه، بشكل كامل تام^(٣).
- إعلامنا بسعة الخلق ونظامه الدقيق وتنزل الأمر بين السماء والأرض فيه دعوة للتفكير والتأمل في هذا الكون الواسع البديع الدال على الخالق

(١) حقائق الروح والرياحان ٢٩/٤٤٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٣٣٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢١/٦٢، وفي ظلال القرآن ٣٦٠٥.

العظيم، وفي نظامه الدقيق الشامل لأكبر وأصغر ما فيه، فهي دعوة لفتح الآفاق في التفكير، والاقتباس من النظام الذي يسير عليه الخلق لوضع أنظمة لنا واكتشاف ما في هذا الكون من دلائل على عظمة الموجد، ومن توجيه وإرشاد إلى التعلم منه والاجتهاد في فهم معادلات الحياة وجزئياتها، وصناعة ما يمكن الانتفاع منه اقتباسا من الخلق المتقن.

- تعددت اتجاهات المفسرين في معنى قوله تعالى ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ هل هي مثلية في الخلق والإتقان والإبداع، أو في العدد، ومن ذهب إلى الأول استدل بجمع ﴿سَمَوَاتٍ﴾ وإفراد ﴿الْأَرْضِ﴾ فهو مشعر بأنها أرض واحدة^(١)، ومن ذهب إلى الثاني تعددت أقوالهم في تحديدها، أهي طبقات الأرض المتراسة بلا فراغات، أو هي أراض تفصل بينها البحار وتُظَلِّها جميعاً السماء، أو هي سبع طبقات أو أجرام بفراغ بينها، وفي كل أرض سكانها، والتفت بعض المفسرين إلى معنى لطيف جدا يتعلق بالدعوة فنص على أنه تختص دعوة أهل الإسلام بأهل الأرض التي نحن عليها، وإن تمكنا من الوصول إلى أهل أرض أخرى تلزمنا دعوتهم إلى الإسلام^(٢).

(١) أما الأحاديث التي تذكر سبع أرضين في الآخرة كقوله ﷺ: «من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين» (رواه مسلم برقم ٤٢١٧) فتوجه إلى مضاعفة المقدار سبع مرات، أما الأحاديث التي تذكر سبع أرضين مطلقا بدون تحديد بالآخرة كما في قوله ﷺ: «ورب الأرضين السبع وما أقللن» أو «وما أقلت» وهو مروي في معاجم الطبراني ومسنند البزار والمستدرک والسنن الكبرى وصحيح ابن حبان وقال محققه: حسن، فهي بحاجة إلى توجيه عند أصحاب هذا القول.

(٢) النكت والعيون ٣٦/٦ و٣٧، والجامع لأحكام القرآن ٦٥/٢١، والتحرير والتنوير ٣٤١/٢٨.

القيم:

- قيمة الاعتبار بمصائر المكذبين السابقين .
- قيمة استيعاب وظيفة النبي ﷺ في الدعوة والهداية .
- قيمة الإيمان بأن علم الله تعالى محيط بكل شيء ، ولا يغيب عن علمه سبحانه شيء .

نشاط: ما هي طبقات الأرض السبع؟ وما مكونات ما فوق السماء السابعة؟

تفسير سورة التحريم

مدخل إلى السورة:

اسمها: التحريم، وتسمى سورة النبي، و﴿لَمْ تُحْرَمُوا﴾^(١).

نزولها: هي من السور المدنية، ومن آخرها نزولها، يدل على ذلك الإشارة فيها إلى تحلة الأيمان، وهي ما نزل في سورة المائدة من كفارة اليمين، والمائدة متأخرة في النزول، ويدل عليه ما ورد في كلام عمر بن الخطاب عن ترافق نزولها مع استعداد غسان لغزو المسلمين^(٢).

عدد آياتها: اثنتا عشرة آية بلا خلاف بين علماء العدد.

مقصدها: تبين عظيم منزلة النبي ﷺ عند الله، والدعوة إلى التوبة والجهاد، وضرب المثل للنساء بكافرتين ومؤمنتين.

مناسبتها لما قبلها: افتتحت السورتان ببدء النبي ﷺ، وفيهما بيان علم الله سبحانه، وأحكام تتعلق بالنساء، وفي سورة الطلاق حديث عن خصام نساء الأمة، وهنا حديث عن خصام نساء النبي ﷺ.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَيَّأُهَا النَّبِيُّ لِمَحْرَمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْصَاتَ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦٧/٢١، والتفسير الموضوعي ٢٤١/٨.

(٢) التفسير الموضوعي ٢٤١/٨.

وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنَّ تَوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينُ عِبَادَاتٍ سَيَّحَاتٍ تَزِينُ تَزِينَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴿٦﴾

معاني المفردات:

تحلة أيمانكم: التحلل من الالتزام بها.

مولاكم: ناصركم.

أسر: تكلم سرا.

صغت: مالت.

تظاهرا: تتعاوننا.

ظهير: معين ونصير.

سائحات: المراد به هنا صائحات أو مهاجرات.

سبب النزول: ورد في سبب نزول هذه الآيات عدة روايات، أحدها أن

النبي ﷺ بعد أن شرب عسلا عند زينب بن جحش أم المؤمنين رضي الله عنها - وكان من عادته أن يمر عندها ويمكث قليلا - دخل عند حفصة رضي الله عنها، وهي تعلم ما حصل عند زينب، فقالت له: أشربت مغاير؟ وهو نبات سيئ الرائحة إذا أكلت منه النحل صدر عن عسلها رائحة سيئة، وكان ﷺ لا يحب أن تصدر منه رائحة سيئة، فقال: بل شربت عسلا عند زينب، وإني لن أشرب عندها عسلا بعد اليوم ولا تخبري بذلك أحدا، ففرحت لتحقق ما سبق أن خططت له مع عائشة، رضي الله عنها، من توقف النبي ﷺ

عن شرب العسل عند زينب، فأخبرتها بذلك، فعاتبها رسول الله ﷺ لعدم كتمها ما أخبرها به، وأعلمه الله بما دبرته عائشة وحفصة، ونزلت الآيات في ذلك^(١).

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة الكريمة بنداء النبي ﷺ مع سؤاله عن سبب تحريمه ما أحله الله له من طيبات ابتغاء إرضاء بعض زوجاته بهذا التحريم، وهو عتاب رقيق له، تبعه مباشرة الإعلام بغفران الله ورحمته، ثم وجه سبحانه نبيه ﷺ إلى ما يفعله ليتحلل من القسم الذي أقسمه وحرّم فيه على نفسه العسل عند زينب، وهو أداء كفارة اليمين التي سبق تبينها في آية سورة المائدة، وهذا التشريع فيه التيسير على الخلق من الله متولي أمورهم والعليم بأفعالهم وأحوالهم والحكيم في أوامره وأفعاله.

ثم أخبر سبحانه أن النبي ﷺ لما أعلم إحدى زوجاته بما عزم عليه من تحريم العسل على نفسه في بيت زينب واستكتمها ذلك، لم تستطع كتمان الخبر وسارعت إلى إخبار شريكها في تدبير الحدث ولم تتوقع أن يعلم الله نبيه بذلك، فلما أخبرها النبي ﷺ بما فعلت ظنت أن المخبر له إحدى زوجاته، ولكنه بيّن لها أنه الله العليم بخفايا النفوس وأسرار الخلق، الخبير بما تنطوي عليه القلوب والصدور.

ثم خاطب الله سبحانه زوجتي النبي ﷺ اللتين كانتا سببا للتحريم بعبارات تهديد لهما: إن اخترتما التوبة عن هذا الفعل وأمثاله مما فيه إيذاء

(١) هذا خلاصة ما يؤخذ من إحدى روايات سبب نزول الآيات، يُنظر صحيح البخاري، حديث رقم ٤٩١٢، ورقم ٥٢٦٧، وهي الرواية التي مال إلى تصحيحها عدد من الأئمة منهم ابن العربي في أحكام القرآن ٧/ ٤٢٨ - ٤٣٠ وأجاد في رد الروايات الأخرى.

للنبي ﷺ فقد أصبتما بذلك ومال به قلبكما إلى الصواب، وإن اصررتما على التعاون وتدبير الحيل لما فيه مصلحتكما وقد يكون فيه إيذاء له ﷺ فقد أخطأتما بذلك خطأ عظيماً، ولن تنجح مساعيكما، لأن مؤيده وناصره هو الله العظيم رب العالمين، وجبريل وجميع المؤمنين الصالحين وجميع الملائكة الكرام كلهم حماة له ومناصرون، ومن يقدر على الوقوف أمام هذه الحماية والنصرة له؟

وإن حصل منه ﷺ تطليق لنسائه بسبب إزعاجهن له فإن الله سيبدله - بسبب عظم مكانته عنده - بنساء أخريات متصفات بالصفات الحسنة الطيبة فيكن: مستسلمات لله في جميع أمورهن، مؤمنات به وبسائر أركان الإيمان، محافظات على الطاعة قائمات بالأوامر، يسارعن إلى التوبة إن بدر منهن ما يستدعي ذلك، قائمات بالواجبات والنوافل خير قيام، مهاجرات إلى الله ورسوله وصائمات تقرباً إلى الله، منهن الثيبات اللاتي سبق لهن الزواج والأبكار اللاتي لم يسبق لهن الزواج، وهذا الإعلام لزوجات النبي ﷺ فيه تحضيض لهن على طاعته وإرضائه والاجتهاد في ذلك بأقصى ما يكون، للمحافظة على هذه المزية العظمى باختياره ﷺ لهن زوجات له.

استنباطات تربوية ودعوية:

- بدأت السورة ببدء النبي ﷺ من خلال صفة النبوة، ومثلها سورة الأحزاب، وسورة الطلاق، وفي هذا البدء إشعار بأهمية الموضوع وحاجته إلى الانتباه الشديد، وبدء هذه السورة ببدء النبي ﷺ واضح سببه حيث إنها بعد النداء توجهت إليه بالخطاب في أمر يخصه، ولتصويب موقف يتعلق ببيته، وبدء سورة الأحزاب ببدء تبعه الأمر بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾

فيه إشارة إلى أهمية التقوى، واستحباب التذكير بها. وتشترك السورتان في حديثهما عن بيت النبوة.

- حصول الاستقرار في بيت النبي الكريم ﷺ أمر في غاية الأهمية، ولذا وجدنا السورة توجه إلى حل الإشكال فيه بأسرع وأخصر وأقرب وأيسر ما يمكن، من خلال كشف ما حصل، والتوجيه إلى حله، ودعوة من بدر شيء إلى تصويب الوضع، فإن بيت النبوة هو قدوة البيوت كلها، وأحواله كلها في مرأى ومسمع الأتباع، وحصول أي خلل فيه مدعاة لإثارة البلبلة والنقد والفتنة من قبل المتربصين، ومن اللائق ببيوت المسلمين عموماً والدعاة تحديداً أن تكون مستقرة وأنموذجاً يحتذى به.

- تتحدث هذه الآيات عن مشكلة عائلية حصلت في بيت النبوة، بما يؤكد بشرية الرسول ﷺ، وإمكان حصول مثل هذه الأمور معه في حياته الخاصة، فليس بمعزل عنها، وإنما هو بشر يوحى إليه.

- الإخبار عما حصل في بيت النبي ﷺ من مشاكل بين زوجاته الكريمات، يتيح الاطلاع على تفاصيل دقيقة في حياة النبي ﷺ وخصوصياته، فهو القائد الأول للأمة ولا أسرار خفية عنده، فهذه حياته كحياتكم، يتعرض للإشكالات والعوارض مثلكم، وفي العلم بهذا فوائد عديدة يحصل عليها أتباع النبي الكريم ﷺ، منها تأكيد إمكان اتباعه في دقائق الأمور، ووضوح جميع جوانب حياته، وتخفيف حدة المصائب في حال عروض مثل هذه الأحداث معهم.

- من رحمة الله تعالى بعباده تشريع المخرج من المأزق، والدلالة على طرق حل المشاكل التي تعترض الحياة بحلوها ومرها، ومن ذلك ما أشارت

إليه الآيات من مخرجٍ للتحلل من اليمين الملزم لصاحبه بما قد لا يستطيع الاستمرار عليه، أو صدر منه في موقف غضب أو إرضاء لغيره، فله سبحانه الحمد على نعمه وفضله.

- تذكر الآية أن النبي ﷺ حين عاتب حفصة رضي الله عنها على إفشاء ما استأمنها عليه من معلومات، ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ وهذا من سمو أخلاقه ﷺ وحسن تعامله، وكريم خصائله، وقد ورد عن علي بن أبي طالب: «ما استقصى كريم قط»^(١)، وفيه توجيه للأمة أن تتخلق بهذا الخلق لما له من أثر إيجابي كبير في حل الإشكالات وتخفيف الاحتقان وإذهاب البغضاء، وهو من حسن سياسة تعامل القائد مع الرعية.
- التعبير في قوله سبحانه ﴿بَعْضَ أَرْوَجِهِ﴾ بالكناية دون ذكر الاسم فيه تعليم للعباد أن يتجنبوا ذكر اسم الشخص المتحدث عنه في المواقف غير الملائمة، لما في ذلك من إساءة له قد لا تكون مقصودة، ومن هنا نجد في أحاديث عديدة قوله ﷺ «ما بال أقوام»^(٢) دون أن يسميهم سترًا عليهم، وليكون حافزًا لهم أو لبعضهم أن يقلع عن هذا الفعل قبل أن يعلم من هو.
- من لطيف التناسق والترتيب في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأُكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ورود ثمانية أفعال فيها، بوزن فَعَّلَ أَفْعَلَ وفَعَّلَ على التابع: أسر (أفعل) - نبأت (فعل) - أظهره (أفعل) - عرّف (فعل) - أعرض (أفعل) - نبأها (فعل) - أنبأك (أفعل) - نبأني (فعل)، منها أربعة

(١) أورده السيوطي في جامع الأحاديث ٣٢ / ٧١.

(٢) منها ما رواه البخاري برقم ٤٥٦، و٧٥٠، و٦٠١٠، وما رواه أحمد في المسند برقم ١٢٠٦٥، و١٥٥٨٩، و٢٠٨٠٦، وهذه الأحاديث الثلاثة صحيحة.

أفعال من الإنباء (نبأت، نبأها، أنبأك، نبأني)، والأفعال الأربعة الأخرى متقابلة في المعنى: (أسرّ) يقابلها (أظهر)، و(عرّف) يقابلها (أعرض)، فسبحان من هذا كلامه، المرصوف في أجمل نسق وأبدع سياق.

- من بديع الإيجاز التعبير بـ ﴿أَسْرَ﴾ لتضمنه أنه أخبرها سرا وطلب منها عدم إفشائه.

- في ختم الآية بصفتي العلم والخبرة، تأكيد لشمول علمه سبحانه بأحوال عباده، وأنه لا يخفى عليه سرٌّ ولا جهر ولا كتمان، وفي ترتيبهما بتقديم العليم على الخبير ارتقاء من العام إلى الخاص، لأن صفة الخبير تفيد دقة العلم والإحاطة بالتفاصيل والخفايا والخبايا.

- عرضت الآية الكريمة على من حصل منهما الخطأ المبادرة إلى التوبة ورغبتهما فيها، فإنها المخرج الواسع لكل ما يقع فيه المرء من خطأ أو تقصير أو إساءة بقصد أو بغير قصد، وهي دليل سلامة القلب، وخطأ المنبئة ظاهر، وطلب التوبة من المنبئة لأنها شريكة في تلقي السر، ولأن المذبة ما أذاعت به إلا لعلمها أنها ترغب في معرفته، فهاتان موعظتان لمذيع السر والمذاع إليه، وكان عليها أن تنهاها عن ذلك، أو أن تخبر زوجها بما أذاعته لها^(١).

- يُلحظ ما في الآيات من تهديد شديد عنيف لمن كان سببا في الحادثة، وذلك بتبيين أن الله سبحانه هو مولى النبي ﷺ وناصره ومؤيده، وأن جبريل عليه السلام وكل الصالحين والملائكة أجمعون أيضًا نصراء له

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٥٦.

يحمونه ويدافعون عنه، فليحذر من يبدر منه أي إيذاء للنبي ﷺ برّد سنته أو الاستهانة بها أو تكذيب حديثه الصحيح، أو الاستهزاء بشيء منها، من بطش الله وعقابه له.

- تبين عظيم مكانة النبي ﷺ عند ربه سبحانه، وهو ظاهر من قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾، ويلاحظ في الآية استخدام الفعل ﴿تَظَاهَرَا﴾ والاسم ﴿ظَهِيرٌ﴾ متقابلين، والإفراد في ظهير بدل الجمع فيه دلالة على أن مظاهره الملائكة الكرام للنبي ﷺ بدرجة واحدة من القوة والتأييد حتى كأنها صادرة من شخص واحد.

- في قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ احتمالان للوقف، ويبنى على كل منهما وجه في المعنى، فإن وقفت على ﴿مَوْلَاهُ﴾ كان ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ وما بعده استئناف كلام جديد، وهو مبتدأ، والخبر ﴿ظَهِيرٌ﴾ ويكون المعنى أن الله سبحانه هو ناصر النبي الكريم، وأن جبريل وصالحى المؤمنين والملائكة تابعون في هذا التأييد، وإن وقفت على ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ يكون ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفين على لفظ الجلالة، ويكون ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ استئناف كلام جديد، وهو مبتدأ، و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبره.

- يُلاحظ حذف الواو في ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأصلها: وصالحو، ولما حذفت الواو وصلاً حذفت رسماً، وله نظائر في الآيات الكريمة مثل ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [الفر: ٦] و﴿وَإِذِ التَّمَلُّ﴾ [النمل: ١٨]، وقيل إن ﴿وَصَالِحُ﴾ لفظ مفرد يراد به

شخص واحد هو أبو بكر، أو عمر، أو يراد به جنس المؤمنين^(١)، فيتفق مع الوجه الأول.

- في قوله تعالى ﴿صَعَتَ قُلُوبُكُمَا﴾ جمع القلوب بدل تشنيتها، لما في التثنية من ثقل اللفظ باجتماع تشنيتين في كلمة واحدة لو قيل (قلباكما)، ومن عادة العرب في مثل هذا الانتقال من التثنية إلى الجمع لعدم الإشكال^(٢).

- وفي قوله تعالى ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ...﴾ انتقال من التثنية إلى الجمع، وذلك من باب التهديد لمن قامتا بما حصل ولمن يمكن أن يحصل منها ذلك، وقد يكون التعميم في التهديد والوعيد أبلغ من التخصيص، لما فيه من بيان قدرة المتكلم على العقاب، وحين يسمع القريب من المخطئ الوعيد له ولغيره يبتعد عن مثل فعله، وقد يكون لعدد من أمهات المؤمنين مشاركة أو موافقة في ما حصل، فيكون عموم الخطاب باعتبار الأغلب، وقد تكون هذه الآية نزلت بسبب حادثة أخرى وهي لما آلى النبي ﷺ من نسائه شهرا^(٣)، وعلى هذا القول تكون هذه الآية قد نزلت في وقت سابق لنزول الآيات التي قبلها.

- في قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِنْكَ﴾ تذكير لهن بأنهن ما اكتسبن التفضيل على النساء إلا تبعا لفضل زوجهن عند الله، فإن استبدل بهن غيرهن أصبحن في هذا المقام بدلهن^(٤).

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٣٠٩ / ٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨٤ / ٢١.

(٣) الرواية في صحيح مسلم برقم ٣٧٦٨.

(٤) التحرير والتنوير ٣٦٠ / ٢٨.

- يؤخذ من الآيات أن هذه الحادثة كان لها أثر كبير في بيت النبوة، وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ همّ بتطليق بعض نسائه، وفي بعضها أنه طلق إحداهن^(١)، وتؤكد الآيات أهمية استقرار بيت النبوة، وأثره الكبير في الدعوة، والتخفيف من المعاناة والمكابدة الخارجية، ويمكن لمع هذا الأثر بالرجوع إلى أحداث المرحلة المكية، وما كان يجده ﷺ عند خديجة من تطمين وتخفيف ومواساة تذهب من نفسه آثار المعاناة الهائلة التي كانت تعرض له، وما كان يجده لاحقاً من أمهات المؤمنين بما كان يخفف عنه كثيراً من أثر المواجهات والمصادمات والمواقف السلبية من قومه وغيرهم.
- من العبر في هذه الحادثة أن خطأ القريب أشد من خطأ البعيد، وأثر فعل الإساءة من العالم وصاحب القدر والمقام لها تأثير أكبر وأعمق من غيره، وأن إساءة القريب إلى الأقرب مؤثرة فيه أكثر من إساءة البعيد إليه، وذلك لما للقريب من مكانة ومنزلة لا يتوقع معها صدور مثل ذلك الأمر منه، وأن الأقرب أولى من القريب بالدفاع عنه والوقوف معه إذا اختصما أو ثار بينهما ما يستدعي الوقوف مع أحدهما، ما لم يكن الأقرب هو المخطئ أو المتعدي.
- حفظ السر لمن استأمنك عليه واجب وحق لصاحبه، ومن عادة الناس إعلام الثقات ببعض أسرارهم، وفي التحدث ببعض الأسرار راحة للنفس وتخفيف من ثقل كتفه في القلب، ولكن على من أخبر بسرّه غيره أن يستحضر ما قيل: «سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره»^(٢).

(١) في بعض الروايات أنه ﷺ طلق حفصة أو هم بطلاقها، وفي بعضها أن هذه الآيات نزلت في حادثة إيلاء النبي ﷺ من نسائه، والروايات المذكورة في التفاسير وكتب السيرة.

(٢) الزهرة للأصبهاني، ١١٩.

- ورد في الآية الكريمة ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ...﴾ سبع صفات لمن يمكن أن يكن بدائل لأمهات المؤمنين في حال حصول طلاق لهن وهي: ﴿مُسَلِّمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَلَنَاتٍ تَلَبَّسْنَ عِلْدَاتٍ سَتَّحَتِ ثِيَابَهُنَّ وَأَنْكَرْنَ﴾، والصفات الست الأولى تجمع خصال الخير في المرأة الصالحة، والصفة السابعة تشترك فيها جميع النساء، فالمرأة إما ثيب وإما بكر، ولذلك حصل العطف بينهما في الآية بالواو، والنص على هذه الصفة المحتملة فيها إشارة إلى أنهن كذلك منهن البكر ومنهن الثيب، وتقديم الثيبات على الأبكار لأنهن معظم زوجاته ﷺ، حيث لم يتزوج رسول الله ﷺ بكرا سوى عائشة، رضي الله عنها، ولأفضلية أول زوجاته وهي خديجة رضي الله عنها وكانت ثيباً، فحازت قبلية الفضل والزمان، «ولعله إشارة إلى أن الملام الأشد موجه إلى حفصة قبل عائشة... وهذا التعريض أسلوب من أساليب التأديب، كما قيل: الحر تكفيه الإشارة»^(١)، وفي سرد هذه الصفات تلميح لأمهات المؤمنين أنه ما من صفة حسنة موجودة في إحداكن إلا وهي موجودة كذلك في البديلة، وقيل: هذا التبديل معلق بشرط حصول الطلاق ولم يحصل، وهو تخويف لهن مع تلطف فيه باستخدام ﴿عَسَىٰ﴾ و﴿إِنْ﴾، وإخبار عن القدرة، لا أن في الوجود من هن خير منهن^(٢).

- يؤخذ من الحادثة سبب نزول الآيات أن الغيرة متأصلة في نفوس الناس، وقد تشتد لتصل إلى فعل وعمل، وقد ينتج عن ذلك آثار سلبية عديدة،

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٦٢.

(٢) التفسير الكبير ٣٠ / ٤٥، والجامع لأحكام القرآن ٢١ / ٩٠.

وقد نص العلماء على وسائل علاج الغيرة بطرق متعددة، ومن هديه ﷺ عدم معاتبة من بدر منه سلوك سلبي بسبب الغيرة، كما في حديث: «غارت أمكم»^(١).

- تشير هذه الآيات إلى صفة مثالية في سيدنا رسول الله ﷺ فقد شق على نفسه ورضي لها أن تحرم من شيء تحبه وهو شرب العسل من أجل راحة غيره ولئلا ينزعج أحد من التعامل معه حال صدور رائحة منه بسبب شرب نوع أو شيء من العسل، وهذه صفة لا يقدر عليها ولا يتصف بها إلا العظماء من الناس، بل تجد كثيرين منهم لا يبالي أن تكون سعادته على حساب شقاء الآخرين، المهم أن يفرح هو وليكن للآخرين ما يكون.
- ورد في الأثر أن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحجبت معه، فلما كنا ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، قال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس، قال: هي حفصة وعائشة»^(٢)، ويدل ذلك على صبر ابن

(١) الحديث في صحيح البخاري برقم ٥٢٢٥ عن أنس قال: «كان النبي ﷺ عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصحيفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحيفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحيفة ويقول: غارت أمكم، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها فدفن الصحيفة الصحيحة إلى التي كُسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كُسرت».

(٢) رواه مسلم برقم ٣٧٦٨.

عباس، وحرصه البالغ على التعلم، وترقب الوقت المناسب للسؤال، والأخذ بأسباب الحصول على الجواب بانتظار الوقت أو الموقف المناسب، وجدولة الأمور المهمة وإن طال الزمن وعدم نسيانها، وعلم عمر، وتبيينه للأمر وإن تعلق بموقف سلبي من ابنته، وإجابته عن السؤال فوراً وعدم تأجيل الجواب بدعوى عدم مناسبة الظرف، واغتنام الوقت للسؤال حتى في أثناء الوضوء، وتواضع ابن عباس مع عمر.

- اختلف الفقهاء في من حرم على نفسه شيئاً مما أحل الله له على أقوال، منها أنه لا يلزمه شيء، وقيل يجب عليه كفارة اليمين، وقيل لا يلزمه شيء في غير الزوجة، وأما في الزوجة فعلى ما نوى وتحسب طلاقة، ومنهم من فرق بين المدخول بها وغيرها^(١).

القيم:

- قيمة الثناء على الله تعالى على تشريعه ما يناسب أحوال البشر.
- قيمة الإحسان في التعامل، والإغضاء عن بعض الأخطاء.
- قيمة استحضار المكانة العليا للنبي محمد ﷺ عند ربه سبحانه.
- قيمة الحرص على الاتصاف بما يحبه الله تعالى ويرضاه.

نشاط: ورد في سورة الأحزاب آية فيها عشرة ألفاظ بجمع المؤنث السالم، وفي الآية الخامسة من سورة التحريم ورد سبعة ألفاظ بجمع المؤنث السالم، قارن بين الآيتين وبيّن ما بينهما من تشابه واختلاف.

(١) الجامع لحكام القرآن ٢١/ ٩٠، والتحرير والتنوير ٢٨/ ٣٤٨ و٣٤٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ
 غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ
 إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن
 يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا
 إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٩﴾

معاني المفردات:

نصوحًا: صادقة خالصة.

اغلظ: اشد.

المعنى الإجمالي:

بعد الحديث عن البيت النبوي تنتقل الآيات إلى الحديث عن بيوت
 المؤمنين وتدعوهم إلى تأسيسها على التقوى والصلاح، ويكون ذلك بالوقاية
 من السيئات والمعاصي والمظاهر والأعمال المخالفة لما شرعه الله، وبالتناصح
 والتعاون على الطاعة بين أفراد البيت، وقيام الوالدين بدورهما في التربية
 والتوجيه والنصح والإرشاد، والتزام أفراد الأسرة جميعا بما يرضي الله
 تعالى، لتجنب الوقوع في سخط الله ودخول النار التي توقد بالناس والحجارة
 فيزداد لهيبها وحرها، ويقوم على تعذيب أهل النار صنف من الملائكة
 صفاتهم متناسبة مع مهمتهم، فهم قساة غلاظ ذوو شدة وقوة وعنف، وهم
 كسائر الملائكة طائعون لربهم لا يعصونه أبداً ويفعلون كل ما يؤمرون به.

ثم اتجه الخطاب إلى الكفار ليحذرهم من الاعتذار يوم القيامة عن كفرهم
 وضلالهم فلن ينفعهم في ذلك اليوم اعتذار ولا محاولة هروب من تبعة

العمل، فسيجزون نتيجة عملهم ويحاسبون عليه وينالهم العقاب المناسب له، وفي إعلام الكفار بهذا الخطاب قبل حصوله دعوة لهم للإنبابة والتوبة والإيمان وإقامة للحجة عليهم.

ثم اتجه الخطاب إلى المؤمنين يدعوهم إلى التوبة الصادقة الخالصة لله تعالى، وهي التوبة التي لا يعقبها تقصير ولا عود إلى فعل المنكر، وكل الناس بحاجة إلى هذه التوبة لما يعرض لهم من محقرات الذنوب واللمم، ومن التهاون فيها وترك محاسبة النفس عليها، وتخبر الآية أن من يبادر إلى التوبة الصحيحة السليمة من العيوب يستحق غفران ذنوبه ومحو سيئاته، ودخول الجنات التي تجري من تحت مبانيها وأشجارها الأنهار المتنوعة، وسيكون دخول الجنة يوم القيامة حيث يُكرم الله تعالى نبيه ﷺ وأتباعه بتحقيق ما وعدهم، وسيكون لهم نور ساطع يضيء لهم ما بين أيديهم والجهة التي يحبونها اليمين، وهم في هذا الجو من تكريم الله لهم يدعونه سبحانه أن يبقوا لهم نعمة النور وأن يغفر لهم فإنه سبحانه القدير على كل شيء.

ثم انتقل الخطاب إلى النبي ﷺ يدعو له لبذل أقصى الجهد في محاربة أعداء الله من الكفار والمنافقين، وإلى معاملتهم بما يليق بهم من شدة وعنف وقسوة، في مقابل ما يفعلون هم بالمسلمين فقد آذوهم وأخرجوهم من ديارهم وقتلوا عددا منهم، والجزاء من جنس العمل، وكما تعامل تعامل، وسيكون جزاء هؤلاء المحاربين لدين الله العذاب الدائم في نار جهنم، لا يخرجون منه ولا يخفف عنهم، وهو مصير سيئ لائق بهم وبأفعالهم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- الاعتناء بالأسرة والالتفات إليها في غاية الأهمية، وعلى الداعي فضلاً عن كل امرئ مسلم إعطاء البيت وقتاً من اهتماماته وأولوياته ولا يشغل كثيراً عنه، لا بالأمر الدعوية ولا بالأمر الدنيوية، فأهله أولى الناس برعايته ومتابعته، والانشغال عنهم تقصير في حقهم قد تكون نتيجته غير محمودة له ولهم.
- التنكير في ﴿نَارًا﴾ للتعظيم، فهي نار عظيمة رهيبة، ومختلفة تماماً عن نار الدنيا، ومن مظاهر عظمتها ما ورد في تنمة الآية من أن وقودها الناس والحجارة وهو مشهد غير مألوف ولا متصور في نار الدنيا، وما ورد في صفات الملائكة الذين يقومون بشأنها فهم: ﴿غَلَاظُ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.
- تبين الآية دور الأب القيادي في الأسرة وأنه المحور الذي تدور حوله، وذلك من خلال مخاطبته بالأمر ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ فهو ربان السفينة وموجه الدفة وصاحب القرار الملزم لأسرته، ويشاركه في المسؤولية الزوجة الصالحة بالتعاون في الخير، وسائر أفراد الأسرة بالاستجابة والمطاوعة والالتزام بما يأمر به ويوجه إليه.
- مما يذكر في تدبر هذه الآية أن أحد العلماء مرّ بفتى صغير يبكي، فتحدث معه محاولاً معرفة سبب بكائه المتوقع أن يكون كالأسباب المعتادة عند الفتیان، ولكن الفتى قال له: إليك عني يا عماء فإني في كرب شديد، فلفت انتباه العالم، وبقي يحاول معه حتى قال له: إني قرأت قوله تعالى ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فقال له العالم: وما علاقة الآية ببكائك؟ فقال له الفتى: ألم تفهم؟ فقال: فهمت الآية وليس فيها ما يستدعي بكاءك، فقال

الفتى: بل فيها، وأنت لم تفهم، فما زال العالم به يحاول معرفة السبب المستدعي لبكائه من الآية، فقال له: إذا أردنا أن نشعل النار فكيف نبداً؟ فقال العالم: نجمع العيدان الصغيرة ونضعها فوق الحطب الكبير ونشعل النار، فقال له الفتى: هذا سبب بكائي، فقال العالم: لم أفهم؟ ما علاقتك بذلك؟ فقال الفتى: حين توقد النار يوم القيامة سيأتون بالصغار مثلي ليبدأ إيقاد النار بنا كأننا العيدان التي يبدأ إيقاد النار بها، فأبكى كلام الفتى العالم لعدم التفاته إلى ما التفت إليه.

- في قوله تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ الجملة الثانية ليست تكراراً للجملة الأولى بل مؤكدة لها، فالأولى نفت العصيان والثانية أثبتت الطاعة.

- التشبه بالملائكة في الطاعة المطلقة من صفات الأبرار، وتنفيذ الأمر تاماً بلا تقصير ولا تأخير، ولا تثاقل ولا تباطؤ ولا تردد.

- ورد تهديد الكافرين في وسط السورة بين نداءين للمؤمنين، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة الاهتمام بأمرهم، وتبليغهم ما هم فيه من خطر عظيم إن لم يكفوا عن كفرهم وعنادهم ومقاومتهم للحق، فإن الاعتذار في ذلك اليوم حين تبلى السرائر وتنكشف النوايا والخفايا لا ينفعهم.

- لم يرد ذكر التوبة النصوح إلا في هذه الآية، واختلف المفسرون في المراد بها على أكثر من عشرين قولاً^(١)، كلها تدور حول الثبات على التوبة وأن تكون صادقة خالصة نقية، وإن حصل من المرء تقصير أو غفلة بالعود إلى الذنب أن يجدد التوبة منه، فالله عظيم المغفرة، ويحب التوابين.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢١/ ٩٥-٩٩.

- التوبة النصوح مطلوبة من المؤمن في كل حال، والمبادرة إلى التوبة فضيلة كبرى ومنزلة تدل على يقظة القلب ومراقبة النفس، والإكثار من الاستغفار باب من أبوابها، وقد علمنا رسول الله ﷺ أن نكثر من الاستغفار، وهو صورة من صور الذكر.
- نسبة فعل السعي إلى النور مجازاً فهم الذين يسعون ونورهم معهم.
- قصرُ النور على جهتين من الجهات الست، وهي بين أيديهم وبأيمنهم، لفضلهما، والنور من الأمام ينير الدرب ويعين على السير ويهدي السبيل، ومن اليمين يزيد التفاؤل فهي جهة الخير والبركة، وقيل: النور بين أيديهم والكتاب في أيمنهم، وقيل: النور بين أيديهم في الدنيا، وبأيمنهم في الآخرة، ولم تذكر جهة الشمال والخلف لأنهما طرق الكفرة.
- جمع سبحانه بين جهاد الكافرين والمنافقين في سياق واحد، وفرق بين الجهادين في الأسلوب والطريقة، فجهد الكفار بما يليق بهم ويناسب حالهم، ويكون في ميادين القتال والمواجهة المباشرة، وقد جاهد النبي ﷺ الكفار في مواطن عديدة، فكانت الغزوات والسرايا والبعوث لنشر الدين وإزالة العوائق والظلم عن الناس، أما جهاد المنافقين فله أسلوب مختلف تماماً، فلا يكون بالحرب والقتال، إنما باليقظة لمؤامراتهم ورد كيدهم بالحكمة والطريقة المناسبة لكل حالة.
- وجه ذكر الجهاد في السورة وهي سورة الأسرة والبيت، لأن الجهاد هو السبيل لتثبيت دعائم المجتمع، وحفظه وحمايته من كيد الماكرين المتربصين به من كل جانب، ومن لم يدفع الشرور عن مجتمعه ويرد المؤامرات والخطط المتتابعة للنيل منه وإفناؤه، انعدم فيه الاستقرار،

وحصل له الدمار والهلاك ولم تأمن فيه الأسرة ولم يقم فيه النظام، فلا بد لكل أمة من جيش يحميها ويدفع عنها ويؤكد قوتها وقدرتها على البقاء.

القيم:

- قيمة الاستجابة لأمر الله تعالى في وقاية النفس والأهل من النار.
 - قيمة الحذر من سلوك سبيل الكافرين.
 - قيمة استحضار نية التوبة الصادقة دائماً، مع تذكر ثمرتها في الآخرة.
- نشاط:** وردت عبارة ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ في الآية (٢٤) من سورة البقرة، وفي الآية (٦) من سورة التحريم، قارن بين الآيتين مبيناً أوجه التشابه والاختلاف.

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِخِينَ ﴿٣٠﴾ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَانِتِينَ

﴿٣٢﴾

معاني المفردات:

- تحت عبيد: في عصمتهم.
- فخانتاهما: بعدم اتباعهما في الدين.
- أحصنت فرجها: حفظته وعقّت نفسها.

المعنى الإجمالي:

تختم هذه السورة الكريمة بمثلين ضربهما الله تعالى للكافرين والمؤمنين، في كل منهما امرأتان، والمثلان متقابلان، ففي الأول منهما مثل لكافرتين، كانتا زوجتين لاثنتين من الأنبياء ومع ذلك لم تنتفعا من هذا القرب الشديد من نبين، وهما امرأة نوح وامرأة لوط، فلم تتبعاهما في دعوتهما ودينهما وكفرتا بما أرسلنا به، فاستحققتا على ذلك دخول النار لتكونا من أهلها الخالدين فيها، ولن ينفعهما يوم القيامة كونهما زوجتين لاثنتين من الأنبياء.

والمثل الثاني لاثنتين من النساء المؤمنات الصالحات، أولاهما امرأة فرعون الطاغية المستبدة الظالم المتجبر فلم توافقه على باطله وآمنت بالله وطلبت منه سبحانه أن يخصصها بفضل يتناسب مع موقفها، ويكون جزاء لإيمانها وثباتها على الحق، وتركها زينة الدنيا وزخرفها، فدعت ربها قائلة: يا رب اجعل مقامي في الجنة في مسكن لي رفيع الدرجة والمكانة، وأبعدني من ظلم فرعون وبغيه وأتباعه الذين ظلموا أنفسهم باتباعه وظلموا غيرهم بالإساءة والاعتداء.

والمرأة الصالحة الأخرى هي مريم ابنة عمران، الطاهرة العفيفة التي أخلصت في عبادتها وتبتلها لربها، وعفت نفسها عن الدنيا والأفعال القبيحة، وترفعت عن الفحش والرذيلة، وأراد الله لها أن تكون أما لنبي كريم بطريقة غير مألوفة، تكون آية لها ولابنها، فأرسل لها أمين الوحي جبريل عليه السلام فنفخ في جيب ثوبها فحملت بأمر الله، وكانت مصدقة بكلام الله ووحيه وأوامره، طائعة له سبحانه، فاستحققت أن تكون من جملة الأخيار المتميزين عند ربهم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- ورد في أول هذه السورة حديث عن اثنتين من أمهات المؤمنين، وورد في آخرها حديث عن امرأتين كافرتين، وامرأتين مؤمنتين، والمرأتان اللتان ذكرتا في أول السورة زوجتا النبي الكريم ﷺ، والمرأتان اللتان ذكرتا في المثال الأول في آخرها يجمع بينهما صفة أنهما امرأتا نبيين، وأنهما كفرتا بدعوة كل منهما، والمرأتان اللتان ذكرتا في المثال الثاني يجمع بينهما حصول الإيمان ورسوخه، وأولاهما امرأة طاغوت متجبر، والأخرى عذباء لم تتزوج، ويُلاحظ الحديث عن المرأتين الكافرتين في آية واحدة، وإفراد كل واحدة من المؤمنتين بآية تكريما لهما، وتنوعت الصورة والحدث في كل من هذه المواضع لتدل على وجود التنوع في المواقف بين النساء، وتحمل توجيهها للمرأة المؤمنة أن تكون طائعة لربها مستجيبة لأمره سائرة في طريق مرضاته.
- ورد في هذه الآيات التعبير بلفظ امرأة لكل من امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون، وورد في أول السورة التعبير بلفظ الزوج لأمهات المؤمنين، والفرق بين التعبيرين أن لفظ الزوج يدل على التكامل والتماثل والتآلف والتلاؤم والتوافق والانسجام، فيكون التعبير به في حال حصول هذه الأشياء بين الزوجين، وفي حال فقدانها لا تنطبق صفة الزوجية بينما فتسمى امرأة لا زوجاً^(١)، ويؤخذ من ذلك أنه إن حدث من أمهات المؤمنين أو بعضهن مواقف لا ترضيه ﷺ أو تؤثر في علاقته ببعضهن إلا أنها تبقى في المجمل علاقة ود وخير وتآلف ولا يؤثر فيها هذا الخلاف العارض.

(١) إعجاز القرآن البياني ٢١١-٢١٥.

- المرأتان الوحيدتان من زوجات الأنبياء اللتين ذكر لهما عدم توافق مع زوجيهما هما امرأة نوح وامرأة لوط، ويدل حصول عدم التوافق بين نبين وزوجتيهما على أمور، منها: أن النبي الكريم يبذل جهده لهداية أهل بيته، وإن لم يتيسر ذلك فليس بمؤاخذ، وأن مقام النبوة الشريف لا يلازمه تيسر أمور حياته كلها على الوجه الأمثل.
- سمت الآية الكريمة ما حصل من امرأتي نوح ولوط بالخيانة، وذلك بعدم إيمانهما بهما، وبفعل ما يسيء إليهما مما يعارض دعوتهما، ويؤدي إلى إيذائهما، وهذه صورة من صور الخيانة لما ينبغي أن تكون عليه الحياة الزوجية من توافق وتعاون وتكامل، وفي وصف هذه الأفعال بالخيانة إشارة إلى عظم الجرم.
- وصفت الآية صلة العلاقة بين امرأتي نوح ولوط بـ ﴿فَحَّتْ﴾ وفيه إشارة إلى أن الزوج هو صاحب العصمة في بيت الزوجية، وهو القائد لمركب الأسرة، وصاحب الولاية والوصاية عليه، وأن دور المرأة الإعانة على ذلك وعدم التعدي أو النشوز أو المنازعة في ذلك.
- قد يقع في النفس تساؤل: ما سبب عدم تطليق النبيين الكريمين لهاتين المرأتين، رغم ما حصل منهما من خيانة بعدم الإيمان وبالإيذاء البليغ، وقد يكون الجواب بأن الطلاق لم يكن مشروعاً في شريعتهم، أو لعلهما كانا يأملان تراجعهما عما هما فيه وصلاح حالهما، أو أنهما اختارا الصبر وتحمل الأذى على الطلاق، والمحافظة على الاستقرار الجزئي للأسرة وليكونا مثالا في ذلك لسائر المؤمنين، وفي بقاء العلاقة الزوجية مع اختلاف الدين إشارة إلى عدم اشتراط صلاح الزوجين معا لبناء أسرة،

نعم لن تكون أسرة مثالية، ولكن لن يكون اختلاف الدين وعدم التوافق في كثير من الأمور وعدم استجابة أحد الزوجين لرغبات الآخر سبباً للفراق وهدم بناء الأسرة، بل يحتمل الصالح منهما الآخر ما أمكن ذلك.

- في التعبير عن النبيين الكريمين بأنهما كانا ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ إشادة بالصالح وأهميته للفرد والمجتمع، ووصف الصلاح أوسع من وصف النبوة ولذا انتسب إليه ودعا للوصول إليه عدد من الأنبياء، فهذا سليمان عليه السلام يدعو بقوله: ﴿وَادْخُلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وهذا يوسف عليه السلام يدعو بقوله: ﴿تَوَقَّئْنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] جعلنا الله من الصالحين.

- وفي وصفهما بأنهما كانا عبيدين رفع لمقام العبودية، وقد وصف الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ به في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] وفي انصواء هذين العبيدين في زمرة العباد إيماء إلى كثرة العباد المميزين بين الخلق، وأن الانضمام إليهم فيه رفعة لدرجاتهم جميعاً.

- في قوله تعالى ﴿فَلَمْ يُعْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ضمير التثنية الأول يعود على النبيين، وضمير التثنية الثاني يعود على المرأتين، واستخدام الضمائر بدل الاسم الظاهر فيه تخفيف في الكلام واستغناء عن تكرار الأسماء، واختلاف مرجع الضميرين المتصلين كما في هذه الآية فيه مخالفة للقاعدة أن توحيد مرجع الضمائر المتوالية أولى من تشتيته، ولكنه هنا متحتم ومتمم لفهم الآية، وله نظائر في آيات أخرى.

- ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِخِينَ﴾ القول يُنسب إما إلى الله تعالى باعتباره الأمر بهذا الفعل، وإما إلى الملائكة الكرام باعتبارها المباشرة له، وهذا

القول يحتمل أنه كان عند وفاة كلٍّ منهما أو سيكون يوم القيامة وجاء بصيغة الماضي بدل المستقبل لتأكيد حصوله.

- الأمر لهما بأن تكونا مع الداخلين في النار فيه استصغار لهما، فلا مزية لكما على غيركما أن كنتما امرأتين نبيين، فأنتما مع الداخلين كغيركما، وجعل الداخلين جمع مذكر من باب التغليب، أو الاقتصار على أحد الجمعين، أي: ومع الداخلات.

- النص على دخول النار مع الداخلين وعدم الاكتفاء بالأمر بدخول النار للإشارة إلى أن العذاب حين يكون ضمن جماعة آخرين تُسمع تأوهاتهم وصراختهم أعظم وأشد هولا وعظما وسوءاً.

- لم يرد ذكر امرأة فرعون إلا في هذه الآية وفي سورة القصص، فهل هذه هي التي أحبت موسى الطفل الذي وجدوه في الماء وكانت سببا لإنقاذ حياته، أو هي امرأة أخرى لفرعون نفسه أو لفرعون آخر؟ ذكر مفسرون ومؤرخون أن فرعون طفولة موسى ليس نفس فرعون الذي أرسل إليه، فإن صح ذلك تكون هذه المرأة غير تلك، ويكون لكل منهما دور مع النبي الكريم موسى عليه السلام، الأولى كانت سببا لنجاته من القتل وتربيته في قصر فرعون وبرعايته، والأخرى آمنت به واتبعت الحق الذي أرسل به، وذكر آخرون أنها هي نفسها^(١)، وكان لها دوران كبيران في حياة موسى، الأول في طفولته حين أنقذته من القتل، والثاني في كبره حيث أنقذها من النار بإيمانه به.

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٧٦، وكتاب: موسى وهارون، من هو فرعون موسى، د. رشدي البدرأوي، منشور على النت.

- ختم السورة الكريمة بمَثَلين لصالحتين وبدؤها بالإخبار عما حصل من اثنتين وهو فعل يتعارض مع كمال الصلاح، تعريض بما حصل من اثنتين من أمهات المؤمنين، وتنبيه غير مباشر لهما ولسائر النساء المؤمنات أن يقتدين بهاتين اللتين ضربهما الله مثلاً للذين آمنوا.
- نسبت الآية إلى امرأة فرعون دعاءً واحداً، وليس الدعاء الوحيد لها في حياتها غالباً، واختيار ذكر هذا الدعاء لما فيه من اختصار لمعانٍ كثيرة، فهي تطلب أمراً دنيوياً وأمراً أخروياً، والأول هو النجاة من فرعون وبطشه وظلمه وإيذائه لها، والآخر هو الجنة ونعيمها، وهما جماع الخير في الدارين.
- دل دعاء امرأة فرعون بالنجاة من فرعون وأتباعه الظالمين على تعرضها للظلم والإيذاء منه ومنهم^(١)، ودل تخصيصها الدعاء ببيت في الجنة على أهمية وجود مكان يأوي إليه المرء خاصة المرأة، فالمرأة بلا مأوى تكون في كرب عظيم، فطلبت ما تحتاج إليه في ذلك الموقف.
- النص على ﴿فَرْعَوْنَ وَعَمَلَهُ﴾ بالجمع بينهما دون الاختصار على أحدهما، فيه بيان سوء طباع وأخلاق هذا المتجبر، وسوء عمله وما يصدر عنه، فاستعازت منهما معاً لسوءتهما.
- وصفها قوم فرعون بالظلم دون الكفر، فيه بيان لشناعة الظلم، وعظم سوءه، والظلم يشمل الكفر وما دونه من الاعتداء وأخذ الحقوق ووضع الشيء في غير موضعه.
- كانت امرأة فرعون مضطرة لمخالطته وقومه ولذا لم تؤاخذ على ذلك، ولا يضرها ولا ينقص من قدرها أنها امرأة ظالم طالما لم تتأثر به ولم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ١٧٢ و١٧٣.

تتبعه في ظلمه كما أنه لا ثواب لامرأة نوح أو امرأة لوط لمجرد أنها امرأة نبي .

- نسبة البناء في الجنة إلى الله تعالى ، من المجاز العقلي ، وقد ورد في بعض الأحاديث كذلك ، كما في قوله ﷺ : «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»^(١) وفي هذه النسبة تشريف وتكريم .
- دل نقل ألفاظ امرأة فرعون في دعائها لنا أن الداعي يُطلق لسانه بما يريد من ربه سبحانه ، ولا يتوقف عند اختيار الألفاظ وتزيينها أو السجع فيها ، بل يدعو بما يخطر على باله وبلفظه المعتاد وعلى سجيته بلا تكلف ولا تنطع ، والله سبحانه يعطي على النيات ، ويقضي لعباده الحاجات .
- طلبت امرأة فرعون ﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ وليس قصراً ، أو قصوراً ، ولعلها طلبت ما تراه كافياً لها ، ولكن نعيم الجنة أعظم من ذلك وأوسع ، فللمؤمن في الجنة قصور لا بيت واحد ، وقد يكون المراد بالبيت الجنس فيشمل الجمع ، ومطلق البناء فيشمل القصور .
- وأكدت امرأة فرعون على أن يكون البيت لها بقولها ﴿لِي﴾ فلا يكون مشتركاً مع آخرين ، وهكذا هو نعيم الجنة لكل واحد من أهلها ملكيته الخاصة لقصوره ومحتوياتها وسائر ما يمتعه الله به فيها .

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢١٥٧ ، وابن حبان برقم ١٦١٠ ، وقال محققه: إسناده صحيح ، والمفحص: عش الطائر ، والقطاة: نوع من الطيور يؤثر الحياة في الصحراء ويتخذ أفحوصة في الأرض ويطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة ، وبيضه مرقط (المعجم الوسيط ٧٤٨/٢) .

- قدمت امرأة فرعون في دعائها ﴿عِنْدَكَ﴾ على ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ وهما متلازمان، ودل ذلك على عمق إيمانها، فهي تقدم القرب من الله على غيره لأنه مفتاح لكل خير، ومن قرب به الله منه نال كل خير.
- لم تذكر امرأة باسمها في القرآن الكريم سوى مريم ابنة عمران، وذلك لخصوصية كونها أم نبي حملت دون أن يمسسها بشر، وفي ذلك آية عظمى وخارق للعادة لم يسبق ولم يلحق مثله، فحازت هذا الشرف العظيم والمكانة المتقدمة بين نساء العالمين، وقد ورد ذكر اسمها تسع عشرة مرة هذا آخرها.
- بدأت الآية في امتداح سلوك مريم بأنها ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وهي أبرز صفات المرأة العفيفة الطاهرة الشريفة، وهي قدوة النساء الصالحات في ذلك السلوك النبيل، ولعل من أبرز ظواهر الفتن والمصائب في المجتمعات التخلي عن هذه الصفة الكريمة، وهي من أسباب كثير من الآثام الأخرى وصور الفساد في المجتمعات.
- إسناد فعل النفخ إلى ضمير الجمع ﴿فَنفَخْنَا﴾ العائد على الله تعالى، لأن نفخ جبريل عليه السلام كان بأمر الله له وليس صادرًا من ذاته، فالإسناد إلى الأمر بالفعل لا إلى المباشرة له، وورد هنا ورد هنا تذكير الضمير ﴿فِيهِ﴾ وورد في سورة الأنبياء تأنيثه ﴿فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وذلك لتكتمل الصورة في الحالتين، فجبريل عليه السلام نفخ في فتحة كمها، فوصلت النفخة إلى جوفها، ووصفها بإحصان الفرج على القول بأنه فتحة الكم يكون من باب المبالغة في الصفة، فإن من أحصنت ثيابها أحصنت نفسها.

- إضافة الروح إلى الله تعالى ﴿مِنْ رُّوحِنَا﴾ هنا وفي آيات أخر، كما في قوله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] إضافة تشريف وتكريم لها، والزاعم ألوهية عيسى لأن فيه من روح الله جاهل، فالروح نسبت إلى الله في حق عيسى وغيره من البشر، فإن كانت نسبة الروح في عيسى تستلزم ألوهيته، فهي كذلك في جميع البشر، ولا وجه لتخصيصه من هذا الجانب.

- وصفت هذه الآية مريم عليها السلام بالتصديق ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا﴾ ووصفت بأنها صديقة في سورة المائدة، والصديقية درجة عليا تأتي بعد النبوة مباشرة، وبه يُستدل على عدم نبوتها، فالنبوة أعلى درجة من الصديقية، ولو حصلت لها النبوة لذكر ذلك، وعلى هذا القول جمهور العلماء خلافا لمن قال بنبوتها.

- الإخبار عن تصديق مريم عليها السلام ﴿بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا﴾ انتقال من العام إلى الخاص، فالكلمات أشمل وأوسع من الكتب، يدخل فيه أوامره للخلق وأسماءه الحسنى وأفعاله وقضاؤه، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَفْذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، والكتب يراد بها غالباً ما أنزله سبحانه على رسله الكرام من كلامه، ويدخل فيه القرآن الكريم، فهي آمنت بكل الكتب ما أنزل قبل وجودها وما أنزل بعده، وهذا شأن المؤمنين التصديق بكل ما أخبر الله عنه.

- قوله تعالى ﴿وَكَاثَتْ مِنَ الْقَنْتَيْنِ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنها من نسلهم، وأن يكون أنها منهم، ويحتمل الأمرين معاً، فإنها جمعت بينهما، وإن كان الوجه الثاني أقرب لأن كونها من الصالحين فيه مدح أكثر من كونها من نسلهم، وكم من شخص من نسل الصالحين لم يكن صالحاً.
- التذكير في قوله تعالى ﴿مِنَ الْقَنْتَيْنِ﴾ للتغليب أو لاكتفاء بأحد الجمعيتين، كما سبق في ﴿مَعَ الدَّاحِلِينَ﴾.
- القنوت هو الطاعة لله تعالى، وورد ضمن صفات النساء الصالحات المذكورة في الآية الخامسة ﴿قَتَّتِ﴾ وهي صفة تشمل الطاعات والعبادات والقربات والامتناع عن السيئات، فهي صفة شاملة تدل على الصلاح والخير والفضل لمن اتصف أو اتصفت بها.
- في ذكر هذه الصفات لمريم عليها السلام ولامرأة فرعون، فيه إشارة إلى دور المرأة في الدعوة وتحمل أعبائها وتمثل مبادئها، وفيه دعوة إلى جميع نساء هذه الأمة للاقتداء بالفاضلة الطاهرة العفيفة الكريمة القانئة الصديقة، وبالصابرة على المحن المبتلاة بالشدة والضيق، وأن تكونا مثلاً أعلى لهن في الاستقامة على الدين، والثبات على الحق مهما اشتد الأذى أو حصلت المغريات والفتن، فقد ابتليتيا بصور متعددة من الابتلاء فاحتملتا وصبرتتا وعفتتا ونالتا على ذلك أعلى المنازل وأرفع الدرجات والمقامات، فهما اثنتان من أفضل النساء، كما ورد في قوله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»^(١).

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٦٦٨، وهو صحيح.

القيم:

- قيمة استحضار الجهد الذي بذله الأنبياء في الدعوة.
- قيمة الثقة بحصول الهداية لمن أَرادها الله له، وإن بُعد عن أسبابها، وحصول الضلال لمن أَراده الله له، وإن كان على باب الهداية.
- قيمة اللحاق بدرب الأبرار وترك سبيل الأشرار.
- قيمة الصبر على الأذى واليقين بوعد الله.
- قيمة الإخلاص لله تعالى في العمل، والحرص على الالتزام بما أمر.
- قيمة استحضار الاستسلام والخضوع لله العظيم.

نشاط: استخراج من آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن مريم عليها السلام ما امتازت به من صفات نبيلة وأعمال جليلة.

تفسير سورة الملك

مدخل إلى السورة:

أسمائها: تسمى سورة الملك، وتبارك، وتبارك الملك، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، وهذه الأسماء مأخوذة من فاتحة السورة، والواقية، والمنجية، والمانعة^(١)، ويدل على هذه الأسماء ما ورد في فضل السورة.

نزولها: مكية.

عدد آياتها: ثلاثون آية في العدد المدني الأول والشامي والكوفي والبصري، وإحدى وثلاثون في المدني الثاني والمكي^(٢).

فضلها: ورد في فضل سورة الملك عدد من الأحاديث تفيد أنها تحمي قارئها وتنجيه من عذاب القبر، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سورة من القرآن، ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفر له، وهي ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»^(٣).

(١) نظم الدرر ٥/ ٢١٥، والتحرير والتنوير ٧/ ٢٩.

(٢) موضع الاختلاف قوله تعالى ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾، ويُحمل ما ورد في الحديث أن عدد آيات السورة ثلاثون على التقريب أو على أحد الوجهين في عدّها (الميسر في علم عدّ آي القرآن، ص ٩٤-٩٦ و١٩٥).

(٣) رواه أحمد برقم ٧٩٧٥ (٣٥٣/ ١٣)، وأبو داود في كتاب الصلاة، برقم ١٤٠٠ (٥٧/ ٢) والترمذي برقم ٢٨٩١ (١٦٤/ ٥)، وهو حديث حسن، وتنظر الروايات الأخرى في حدائق الروح والريحان ٦/ ٣٠.

مقاصدها:

- إثبات عظمة الله تعالى وقدرته على كل شيء.
- تبين مصير الكافرين المنكرين للبعث والجزاء.
- إيراد عدد من الأدلة على الخالق الحكيم سبحانه، مثل: تسخير الأرض للخلق، وتذليلها لهم، وتسخير الهواء لحمل الطيور في السماء.
- إقامة الحجة على الكافرين، وتبين أن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً.

مناسبتها لما قبلها: ورد في سورة التحريم تبين جوانب من عظمة الله تعالى وإحاطة ملكه بخلقه، فقد أخبر عن علمه ما يحاول الناس إخفائه من أسرارهم، وأنه يحمي نبيه ﷺ من أي تأمر ضده، وقبوله توبة التائبين، وأن الملائكة الكرام ينفذون أمره، وأنه يبعث الناس ويحاسبهم يوم القيامة، وفي هذه السورة تبين لعظيم ملكه وقدرته سبحانه على خلقه من جوانب أخرى، فالتأمت السورتان وكأنهما سورة واحدة متتابعة^(١).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ رَئَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝﴾

(١) أشار إلى هذه المناسبة وهبة الزحيلي في التفسير المنير ٥/٢٩.

معاني المفردات:

تبارك: كثر مجده وعظمته .
ليبلوكم: ليختبركم ويمتحنكم .
طباقًا: بعضها فوق بعض .
تفاوت: خلل أو عيب .
فطور: شقوق وصدوع .
كرتين: مرة بعد مرة .
خاسئًا: ذليلاً .
حسير: كليل .
بمصاييح: نجوم مضيئة .
رجومًا: يرمى بها من يحاول الوصول إلى السماء .

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة الكريمة ببيان عظمة الله تعالى ، وأنه سبحانه يملك الخير كله ، ويهب البركة لمن يشاء ، وله التصرف المطلق في هذا الكون ، وقدرته سبحانه لا حد لها ، فلا يعجزه شيء ، ويتصرف في ملكه كيف يريد .
ومن دلائل قدرة الله تعالى أنه هو الذي يमित ويحيي ، فالموت والحياة مخلوقان من جملة ما خلق ، وهو الذي يهب الحياة لمن يشاء فيحيا بعد أن كان ميتًا ، ويميته بعد ذلك دون إرادة منه ، فالإرادة في الإحياء والإماتة لله وحده ، وتبين الآية الحكمة من خلق الموت والحياة وهي اختبار العباد وامتحانهم ، ليظهر إحسان المحسن وإساءة المسيء ، وهو سبحانه الغالب ، النافذ حكمه وأمره ، الكثير الستر لمن تاب وأصلح .

ومن دلائل قدرة الله تعالى أنه خلق السماوات السبع على هيئة طبقات بعضها فوق بعض، وهي خالية من العيوب، لا تصدع فيها ولا شقوق، ولا تباين ولا تخالف، فانظر أيها الإنسان إلى السماء مرة بعد مرة، وتأمل في هذا الخلق العظيم، فلن ترى فيه أي عيب أو خلل، وإن شئت فأعد النظر والتأمل في خلق السماء ومدى إحكامه وإتقانه، وتفحص وابحث عن العيب والنقص في هذا الخلق المحكم البديع، والنتيجة الحتمية لهذا النظر والبحث والتنقيب عن العيوب في الخلق هي التيقن من إبداع الخلق وإتقانه، وأن من يبحث عن العيب والنقص فيه سيصاب بالحسرة والخيبة والإعياء.

ومن مظاهر عظمة الله تعالى وقدرته تزيين السماء الأولى القريبة من الأرض بالنجوم والكواكب، التي تُرى من الأرض على هيئة المصابيح المضيئة، ولها مهمة أخرى وهي رجم الشياطين الذين يحاولون الوصول إلى السماء، فيرمون بالشهب لمنعهم من ذلك، وهياً الله للشياطين عذاباً شديداً في الآخرة، وهو نار حامية مستعرة.

استنباطات تربوية ودعوية:

- في افتتاح السورة الكريمة بالإخبار عن عظمة الله والثناء عليه براعة استهلال لندرة البدء بمثله في لغة العرب^(١)، وفي اختيار لفظ ﴿تَبَرَّكَ﴾ إشارة إلى أهمية البركة وفضلها، وهي أمر معنوي يُشعر به ولا تُدرك حقيقته.

- تقدم ذكر الموت على الحياة لأنه أسبق في الوجود، ولأن مدته أطول من مدة الحياة، ولأن قدرة الله تعالى فيه أوضح وأظهر.

(١) التحرير والتنوير، ١٨/ ٣١٥ و ٢٩/ ٩.

- كما أن الحياة نعمة عظمت فإن الموت نعمة كذلك، فقد يكون سبيلاً للوصول إلى الجنة والنعيم، وبه تحصل الراحة من الهموم والغموم، وفيه العبرة والعظة لجميع الخلق، ولذا ورد في الأحاديث الحث على تذكره وترقبه، كما في قوله ﷺ: «أكثرُوا من ذكر هَازِمِ اللِّذَاتِ»^(١).
- المبادرة إلى الإكثار من العمل الصالح قبل حلول الموت ووصوله، فإنه حق لا ريب فيه.
- يُفسَّر أحسن العمل: بأخلصه وأصوبه^(٢)، فالعبرة ليست بالكثرة أو القلة إنما هي بأداء المطلوب على الوجه المشروع بشرط الإخلاص لله تعالى.
- الإتقان والإحكام والإبداع ظاهر في الخلق كله، كبيره وصغيره، حيه وجماده، مرئيه وخفيه، ظاهره وباطنه، ولا يزيد البحث والتنقيب عن الخلل في الخلق هذه القاعدة إلا ثباتاً وتحققاً.
- في إضافة الخلق إلى اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في قوله تعالى ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ إشارة إلى عموم رحمة الله تعالى بخلقه، وأن الرحمة هي مبدأ التعامل مع الخلق، ولا يحرم منها إلا من لا يستحقها.
- النص على البصر في الآيات دون غيره من الحواس لأنه الوسيلة المثلى عند الإنسان للفحص والاختبار والتأكد من سلامة الشيء أو حصول العيب فيه.
- تشير الآيات إلى أن تفحص الشيء للتيقن من سلامته أو عيبه يحتاج إلى النظر فيه مراراً عديدة، فقد لا يظهر العيب من بادئ النظر وأوله.

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٧٩٢٥ (١٣/٣٠١)، ورواه آخرون، وهو حسن، وهادم بالذال: قاطع.

(٢) معالم التنزيل ١٢٤/٥.

- النص على المرتين في قوله تعالى ﴿كَرَّيْن﴾ لا يعني التوقف بعد المرة الثانية، بل هو إشارة إلى التفحص وإعمال النظر وتقليب الفكر مرات وكرات إلى أن يحصل الاطمئنان إلى النتيجة المتوصل إليها.
- في إعلامنا بإحكام الخلق إرشاد غير مباشر لنا أن نُحكم ما نعمل ونتقن ما نصنع، وكما قال نبينا ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»^(١).
- قال قتادة رحمه الله: «إن الله خلق النجوم لثلاث خصال: زينةً للسماء الدنيا، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يهتدى بها»^(٢).
- ما ترجم به الشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح منقضة، وتسمى الشهب، ونسبة الرجم إلى جميع النجوم من باب إسناد فعل البعض إلى الجميع^(٣).
- يُفهم من رجم الشياطين الذين يحاولون الوصول إلى السماء أنهم ممنوعون من ذلك ومنهيون عنه، وأن هذا الفعل منهم تجاوز وتطاول، ولذا يعاقبون عليه في الدنيا بالرجم وفي الآخرة بالعذاب.
- إعلامنا ببعض صفات الجن ومنها قدرتهم على اختراق الآفاق والوصول إلى أطراف السماء.
- الشياطين صنف من الجن، وهم الكفرة والمتمردون على أمر الله تعالى منهم، وقائدهم إبليس الخبيث المجرد من كل خير.

(١) الحديث مروي في عدد من دواوين السنة، وأورده السيوطي في الجامع الصغير ٧١ / ٢ وهو حديث حسن.
 (٢) جامع البيان ٣ / ٢٩.
 (٣) التحرير والتنوير ٢٩ / ٢١.

- تسمية جهنم في فاصلة الآية الخامسة بالسعير، لما فيه من معنى الإحراق المناسب والتمتم للإحراق بالشهاب.

القيم:

- قيمة تمجيد الله تعالى ذي الملك والعظمة.
- قيمة معرفة الحكمة من الخلق وهي الابتلاء، والوصول إلى أحسن العمل.
- قيمة اليقين بإحكام الخلق بعد التمهيص والبحث عن العيب فيه.

نشاط: بين وجه الدلالة على عظمة الخالق من التأمل في النجوم وأفلاكها وعظم حجمها وعددها ووظائفها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ١٢ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٣ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٤ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٥﴾

معاني المفردات:

- شهيقة: صوتاً منكراً.
- تفور: تغلي.
- تميز: تتقطع وتنشق.
- فسحقاً: فبعداً.

المعنى الإجمالي:

تبين الآيات الكريمة أن للكافرين من بني آدم ومن الشياطين عذاباً مهياً ومعداً في جهنم، حيث سيعذبون يوم القيامة جزاء كفرهم، وبئس ما يصيرون إليه وهو جهنم، وحين يُلقى الكفار في نار جهنم يصدر منها صوت عظيم، منكر قبيح، وحين يسمعون يزد ذلك من عذابهم وفزعهم، وتكون جهنم في حالة غليان لشدة لهيبها، وتوشك أن تتفرق وتتقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها وغضبها على الكافرين، الذين استحقوا دخولها بسبب سوء فعلهم، وفي هذا تصوير لقوة اشتعالها وعظيم نارها، وكلما دخلها جماعة من الكافرين بادرهم خزنة جهنم بالسؤال توبيخاً لهم: ألم يرسل الله تعالى إليكم رسولا يدعوكم إلى الهداية ويحثكم على الخير وينذركم هذا العذاب الأليم، فيقول أهل النار للملائكة مقرين ببعثة الرسول: بلى، قد حصل، وجاءنا رسول من الله ولكننا لم نتبعه ولم نؤمن به واتهمناه بالكذب على الله، وزعمنا أنه هو وأتباعه ضالون ضاللاً كبيراً، وكنا نظن أنفسنا على الصواب.

ثم اتجه أهل النار إلى لوم أنفسهم ومعاتبتها، فقالوا في ما بينهم: لو أننا أعملنا عقولنا وأسماعنا واتبعنا الرسول في ما دعانا إليه من خير وهدى لنجونا من عذاب النار، وهذا الاعتراف من أهل النار لا ينفعهم حيث حصل في وقت غير مناسب، وهم مستحقون للهلاك والعذاب الشديد الذي هم فيه. بعد بيان مصير الكافرين، يبين سبحانه مصير المؤمنين الذين عظموا الله تعالى في الدنيا، وخافوا من عذابه دون أن يروه، فهم مستحقون لأن تغفر ذنوبهم ولأن ينالوا ثواباً عظيماً في مقابل إيمانهم بالله.

ثم بينت الآيات شمول علم الله تعالى للسر والعلن، ويشمل ذلك كل ما يمكن أن يسر وأن يعلن من نيات، واعتقاد، وهم، وعلم، وعمل، فالله تعالى يعلم الأمور الخفية في القلوب كما يعلم الأمور الظاهرة، وكيف لا يعلم الله تعالى الأسرار والخفايا وهو الذي خلقها وخلق كل شيء، ومن مظاهر قدرته البالغة علمه بالخفايا ودقائق الأمور علما يقينا محيطا بها.

استنباطات تربوية ودعوية:

- نسبة الغيظ والشهيق إلى جهنم، إما أن يكون على ظاهره، وإما أن يحمل على تشبيه صوت لهيبها وسرعة تبادرها بصوت الغضبان وحركته، وإما أن يكون المقصود به الزبانية^(١).
- تدل الآيات الكريمة على أن الكافرين يدخلون جهنم أفواجا متتابعة، وأن دخولهم إليها يكون مصحوبا بالإهانة والصغار، حيث يلقون فيها إلقاءً.
- لا ينفع الندم إذا حصل في غير وقته المناسب.
- الإعلام بما سيحصل من اعتراف الكفار بأنهم كانوا على ضلال وبعد عن الحق، فيه إشارة ودعوة غير صريحة إلى تجنب طريقهم وما كانوا عليه.
- علم الله تعالى محيط بكل الدقائق، وشامل لجميع الأسرار والخفايا في هذا الكون، وهذا من لوازم ألوهيته سبحانه.
- خشية الله تعالى مفتاح للمغفرة ودخول الجنة.
- التعبير عن خشية المؤمنين لربهم بالفعل المضارع ﴿يَخْشَوْنَ﴾ يدل على تجدد حصول الخشية في نفوسهم فلا تنقطع.

(١) التفسير الكبير ٥٦/٣٠.

- عدل الله تعالى بين خلقه، فلا جزاء ولا عقاب إلا بعد الإنذار وإقامة الحجة.
- الحذر من عواقب السيئات والمعاصي.

القيم:

- قيمة العمل على تجنب ما يقود إلى عذاب السعير.
- قيمة الاعتراف بالذنب في الوقت الذي ينفع فيه لا بعد فوات الأوان.
- قيمة مراقبة الله تعالى في السر والعلن.

نشاط: اجمع الآيات التي تتحدث عن دخول أهل النار إليها، وكون من مجموعها صورة متكاملة لهذا الحدث مستعينا بكتب التفسير.



﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ١٥﴾ أَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُكُمُ إِنِ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢٢ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ٢٤﴾

معاني المفردات:

- ذلولا: مهياة للاستقرار.
- مناكبها: نواحيها وأماكنها.

يخسف بكم الأرض: يزلزلها ويزيلها من تحتكم.
تمور: تضطرب.
حاصبًا: ريحًا شديدةً فيها حصى.
صافات: باسطاتٍ أجنحتهن.
ويقبضن: يضربن بأجنحتهن.
مكبًا: واقعاً.

المعنى الإجمالي:

أخبر سبحانه البشر أنه سخر لهم الأرض وجعلها مذللة يسهل السير فيها، فسيروا في أنحائها في طلب المعاش والرزق، والتمسوا من نعم الله فيها، وكلوا وانتفعوا مما رزقكم الله، واعلموا أن مرجعكم ومآلكم إليه سبحانه.
ثم انتقل الخطاب من عموم البشر إلى الكافرين منهم من خلال سؤالهم: هل أنتم أيها الكفار عقاب الله لكم على كفركم به، وقدرته أن يحرك الأرض ويزلزلها، ويذهب باستقرارها فتضطرب ويختل نظامها؟ أم هل أنتم أيها الكفار عقاب الله لكم على كفركم بأن يرسل عليكم حجارة من السماء يعذبكم بها كما حصل مع بعض الأمم السابقة؟ إنكم حين ترون ذلك ستوقنون أن الإنذار والتخويف من الله حق، وأنه قادر على إنفاذ وعيده.
ثم أقسم سبحانه على أن الأمم السابقة لهذه الأمة كذبت رسلها، فكان عقابهم على ذلك أليماً، فقد نزلت بهم أصناف من العذاب عقاباً لهم وإنكاراً من الله تعالى عليهم.

ثم لفت سبحانه أنظار الخلق إلى إحدى نعم الله ودلائل قدرته، ودعاهم إلى النظر فيها والاعتبار بها، فإن الله سخر الهواء لحمل الطيور، تبسط فيه

أجنحتها في أحوال، وتضمها وتخفق بها في أحوال أخرى، وكل هذا برحمة الله تعالى وقدرته، فهو الذي يمسك هذه الطيور أن تسقط برحمته، وهو سبحانه البصير بكل شيء، العليم بكل حال، المبدع في خلقه.

ثم خاطبت الآيات المشركين وسألتهم عن مَنْ يستطيع أن يمنع عنهم عذاب الله حين يقع؟ ومعلوم أنه لا أحد يمكنه ذلك، ولكن الكافرين مصابون بالغرور، ويظنون أنهم في منأى من عذاب الله أن يصيبهم، وأن آلهتهم تحفظهم منه، وتسألهم الآيات: هل يملك أحد أن يرزقكم إن منع الله عنكم الرزق وحجبه عن الوصول إليكم؟ والجواب واضح أن لا أحد يملك ذلك، ولكن الكافرين يرفضون التسليم بذلك ويتمادون في عنادهم واستكبارهم عن قبول الحق.

وانتقلت الآيات إلى مقارنة بين المشرك الذي يسير على غير هدى، ويتخبط في سيره، ويتعثر ويخر على وجهه بسبب وعورة طريقه وعدم تبين السبيل له، وبين المؤمن الذي يسير قائما معتدلا يرى طريقه بوضوح، ويعلم معالمة، ويصل إلى غايته، فهل يستوي هذا وذاك؟

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بإعلام الخلق أن الله تعالى هو الذي خلقهم وأحسن خلقهم، بأن مكنهم من السمع والإبصار والإدراك، ولذا فهو المستحق للعبادة والطاعة والشكر على هذه النعم العظمى، ولكن عددا قليلا من عباده من يعلم قيمة هذه النعم، ويحافظ عليها، ويشكر خالقه على منحه إياها، والله تعالى هو الذي بثّ الخلق على هذه الأرض وفرّقهم في أنحاء، لتعمر الأرض بالحياة، ومرجع هؤلاء الخلق إليه وحده يوم القيامة حيث يحشرهم ويحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- من رحمة الله تعالى بخلقه أن ذلّل لهم الأرض، وهيأها لسكنهم وراحتهم، ومكّن الإنسان من هدم الجبال، وردم الوديان، وشق الطرق، وبناء المساكن، وغيرها من صور التذليل.
- أمر الله تعالى بالمشي في الأرض طلباً للرزق، ولم يأمر بالسعي، لما يعلمه سبحانه من حال الإنسان في الحرص على الرزق والمبالغة في طلبه، فكأن الأمر بالمشي دون السعي للتخفيف من الاندفاع والتقليل من الاجتهاد البالغ في طلب الرزق.
- من حلم الله تعالى بعباده ورأفته بهم أنه لا يعاجلهم بالعقاب على سوء أعمالهم، كما قال سبحانه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكُوا عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].
- التعبير عن قبض أجنحة الطيور في الهواء بالفعل المضارع ﴿وَيَقْيِضْنَ﴾ دلالة على تجدد هذه الحركة واستمرارها وضرورتها من أجل إتمام عملية الطيران للطيور.
- في قوله تعالى ﴿مُكْبَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ تشبيه لحال المشرك بالدابة في مشيه مكبا على وجهه منكسا رأسه، فهذا حال الدواب في هياتها ومشيتها.
- الكفر بالله ظلم وحيرة وتردد، والإيمان بالله نور وهدى واستقامة.
- أقامت الآيات الكريمة أوضح الأدلة على وحدانية الله تعالى وعظمته، فهو القادر على الخسف، ومنع الرزق، وإرسال العذاب، وإهلاك المكذبين، دون أن يمنع ذلك مانع أو يوقفه أحد.
- قدّم السمع على البصر في الآية الكريمة لأن الجهاز السمعي يعمل عند الإنسان قبل الجهاز البصري، وأفرد السمع مع جمع الأبصار لأن

- الإنسان إذا كثرت حوله الأصوات لا يستطيع تمييز بعضها من بعض، ولكن إذا رأى عددًا كبيرًا من الناس يستطيع التمييز بينهم.
- من أراد الهداية وأخذ بأسباب الوصول إليها سهل عليه ذلك.
- قلة الشاكرين من الناس، وقلة قيام الخلق بشكر الله سبحانه على نعمه، مع أنه وعد بالمزيد لمن شكر النعمة وقام بحقها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

القيم:

- قيمة استحضار نعمة الله في تذليل الأرض وتهيتها لحياة الإنسان عليها.
- قيمة الثقة بقدرة الله على إهلاك الكفرة من خلقه كما أهلك من قبلهم.
- قيمة شكر الله على نعمة الرزق والهداية.

نشاط: تأمل في التنوع الهائل بين أنواع الطيور وأحجامها وألوانها وأعمارها ومواطن عيشها، وبيّن من خلال ذلك مظاهر إبداع الخلق فيها.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٢٦ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢٧ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّعَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ٢٨ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٩ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَمَتَابُ بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْمَلُونَ مِنْ هُوٍ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٣٠ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ٣١﴾

معاني المفردات:

- زُلْفَةً: قريبًا.
- تَدَّعُونَ: تطلبون تعجيله.
- غَوْرًا: بعيدًا في أعماق الأرض.
- معين: عذب سهل التناول.

المعنى الإجمالي:

يسأل الكافرون النبي الكريم ﷺ والمؤمنين عن يوم البعث والجزاء قائلين لهم: إن كان كلامكم صحيحا في وجود هذا اليوم فأعلمونا متى يكون، ويأتي الجواب على سؤالهم بتوجيه النبي ﷺ أن يقول لهم: علم يوم البعث والجزاء عند الله وحده، وتنحصر مهمتي في إعلامكم بحصوله وتأكيده وقوعه، وتبيين الحق والدعوة إليه، وفي يوم الجزاء وهو آت لا ريب فيه، وكل آت قريب، تسودُّ وجوه الكافرين ويظهر عليها الكآبة والذلة، وتقول لهم الملائكة: هذا اليوم الذي كنتم تنكرون وقوعه وتستعجلون حصوله استهزاء وتكديبا، قد حصل ووقع.

وقل أيها النبي الكريم ﷺ للمشركين الذين يتمنون موتك ومن اتبعك من المؤمنين: أخبروني إن هلك أنا وأتباعي أو بقيت حيا برحمة الله وفضله، هل يوجد من يحميكم من عذاب الله حين ينزل بكم؟ وفي هذا إقامة الحجة على المشركين بأقوى عبارة وأبلغ أسلوب، فعذابهم حاصل لا محالة، وليس مرتبطا ببقاء النبي وأتباعه أو بموتهم.

وقل أيها النبي الكريم ﷺ للمشركين: نحن آمننا بالهنا الرحمن إيمانا جازما وعلمنا يقينا قدرته وعظمته فلم نتوكل إلا عليه، ولم نسأل العون إلا منه، وأنتم كفرتم به، وسيظهر يوم القيامة حين يحاسب الله الخلق الفريق الخاسر المغرق في الضلال والتهيه.

وقل أيها النبي الكريم ﷺ للمشركين: أخبروني بعد تفكر وتأن، إن حرمت من نعمة الماء فذهب في أعماق الأرض بعيدا، من يستطيع أن يغيثكم بماء عذب جارٍ، قريب التناول، سهل الاستخدام؟ وتنتهي الآية دون ذكر

الجواب لأنه لا يمكن إلا أن يكون الله وحده هو القادر على الإغاثة والإتيان بالماء لأنه صاحب الأمر في هذا الكون، ولا قدرة لأحد على مثل هذا الفعل العظيم، وفي هذا السؤال وجوابه إقامة الدليل على وحدانية الله وعظمته، ووجوب عبادته وحده دون ما سواه.

استنباطات تربوية ودعوية:

- انشغال الكافرين عن العمل للساعة بالسؤال عنها.
- تأكيد أن علم الغيب لله وحده سبحانه، ولا يمكن لأحد علم شيء من الغيب إلا أن يعلمه الله به.
- إقامة الحجة على المشركين من خلال سؤالهم عن أمور لا يقدر عليها أحد إلا الله، مثل: من يجيرهم من العذاب يوم القيامة؟ من يأتيهم بماء معين إن غار ماؤهم؟
- وقع التعبير عن الموت في الآية الكريمة بالهلاك، لأن الموت هلاك، ووقع التعبير عن الحياة بالرحمة لأن حياة المؤمنين فيها زيادة طاعات وفعل خيرات.
- وضع الظاهر موضع المضمرة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ لتسجيل الكفر عليهم، وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم^(١).
- في قوله تعالى: ﴿فَسْتَغْمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إخراج للكلام مخرج الإنصاف، إذ فيه تسوية بين الفريقين، وجعلهما محتملين للضلال بنسبة واحدة، مع حصول اليقين لدى صاحب الحق به، وهو من أساليب الإقناع.

(١) فتح القدير ٥/ ٣٥٢.

- أهمية الماء في حياة الإنسان، فبدونه تستحيل الحياة، ومن رحمة الله بخلقه إمدادهم بالماء العذب الطاهر بشكل دائم لا ينقطع ولا يغور في الأرض.

القيم:

- قيمة اليقين بحصول اليوم الآخر، وأنه لا يعلم وقته إلا الله تعالى.
 - قيمة المسارعة في الإيمان والاعتبار بمصائر السابقين.
 - قيمة اليقين بأن تصريف الكون بيد الله تعالى وحده.
- نشاط:** الماء العذب من أعظم النعم على الإنسان، اكتب أوجه الانتفاع به وحال الإنسان عند فقدته.

تفسير سورة القلم

مدخل إلى السورة:

أسمائها: تسمى سورة القلم، وسورة نون، وسورة ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾.

نزولها: مكية.

عدد آياتها: اثنتان وخمسون ولا خلاف فيها.

فضلها: في روايات أنها من أوائل ما نزل، وقد يكون هذا الحكم لأولها^(١).

مقاصدها:

- الرد على اتهامات المشركين للنبي ﷺ.
 - تبين بعض صفات المكذبين بالحق المعاندين له.
 - تبين عاقبة الطمع ومنع الفقراء حقوقهم.
 - عرض بعض أحداث يوم القيامة.
 - تهديد المكذبين وبيان سوء عاقبتهم.
- مناسبتها لما قبلها:** بين السورتين أمور مشتركة، منها: عرض مشاهد من يوم القيامة، وأسئلة للجاحدين المنكرين، وفي سورة الملك حوار ملامة وندم بين أصحاب النار وخزنتها، وفي سورة القلم حوار ملامة وندم بين أصحاب البستان^(٢).

(١) روح المعاني ٢٦/١٥.

(٢) التفسير الموضوعي ٢٩١/٨.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ٥ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٧ ﴿

معاني المفردات:

ممنون: مقطوع

المفتون: الذي فُتن بالجنون

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة الكريمة بحرف ﴿ت﴾ ويلفظ: نون، وهي آخر السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، وحكمة الابتداء بهذه الحروف التنبيه على إعجاز القرآن وأنه من جنس هذه الحروف، ثم أقسم الله تعالى بالقلم وبما يكتب به على نفي ما اتهم به المشركون النبي ﷺ من جنون، وبين أن النبوة نعمة عظيمة من الله تعالى خص بها نبيه الكريم ﷺ.

ثم تبين الآيات أن للنبي ﷺ ثواباً كبيراً دائماً لا ينقطع لتحمله أعباء الرسالة وقيامه بحقها حق القيام، وتؤكد أن النبي ﷺ يتحلى بأعظم الصفات وأحسنها وأطيبها، ويتمتع بالأخلاق العالية النبيلة المثلى، وقد جمع ﷺ محاسن الأخلاق، واتصف بأرقى ما يتصف به بشر من حسن خلق ونبيل سلوك.

وإن من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق لا يمكن أن يكون مجنوناً، وستعلم أيها النبي الكريم ﷺ وسيعلم المشركون من قومك علم يقين لا

امتراء فيه من المستحق للوصف بالجنون حين تنكشف لهم الحقائق، ويُظهر الله تعالى لهم ولجميع الخلق ما يعلمه سبحانه، فإنه يعلم من اتبع سبيله ومن لم يتبعه، ويعلم من يستحق الوصف بالجنون، ومن هم العقلاء من خلقه.

استنباطات تربوية ودعوية:

- في القسم بالقلم وبما يُكتب رفعة لشأن العلم والعلماء، وتنبيه إلى أهمية الكتابة وفضلها، ودورها في نشر العلم وحفظه.
- تولى الله تعالى الدفاع عن نبيه ﷺ، وذلك لعظيم مقامه عنده، وبينت لنا هذه الآيات عظيم خلقه وعظيم الأجر الذي أكرمه الله تعالى به.
- سار مشركو مكة على طريقة من سبقهم من مشركي الأقوام السابقة في اتهام نبيهم بالجنون، وكأنهم تواصلوا على ذلك، ولعل لجوءهم إلى هذه التهمة لسرعة تبادرها إلى الأذهان، وكثرة حصول الاتهام بها بين الناس.
- بدأت الآيات الكريمة بنفي تهمة المشركين للنبي ﷺ بالجنون، ثم بيان محاسنه وعظيم أخلاقه، وفي هذا تعليم لنا أن نزيل الباطل قبل تثبيت الحق.
- يلحظ كثرة المؤكدات في الآيتين الثالثة والرابعة وهي: التأكيد بـ (إِنَّ)، وتقديم الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾، وتنكير ﴿لَأَجْرًا﴾، ووصفه بأنه غير منقطع، والخطاب بالكاف، وإثبات اللام، واستعمال (على) المفيدة للاستعلاء والتمكن.

- اجتمع في النبي الكريم ﷺ الصفات الحسنة والأخلاق الفاضلة، ولم يكن أحد ليعيبه بشيء من هذا الجانب، ومن أجمل ما وُصف به خلقه الكريم ما قالته السيدة عائشة رضي الله عنها في حقه: «كان خلقه القرآن»^(١).

القيم:

- قيمة رفعة العلم وأهله.
 - قيمة الشهادة للنبي ﷺ بكمال العقل والخلق.
 - قيمة اليقين بعلم الله تعالى المهتدين والضالين.
- نشاط:** اذكر حادثة من السيرة تدل على عظيم خلق النبي ﷺ.

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۖ ۝٨ وُدُّوا لَوُدَّهِنَّ فَيُدْهِنُونَ ۖ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۖ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۖ ۝١١ مَنَّاعٌ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۖ ۝١٢ عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ۖ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۖ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ ۝١٥ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُومِ ۖ ۝١٦﴾

معاني المفردات:

- تدهن: تلين لهم في أمور الدين ليرضوا.
- مهين: حقير.
- عُتْلٌ: غليظ.
- زним: لئيم.
- سنسفه على الخرطوم: سنجعل له علامة على أنفه.

(١) رواه أحمد برقم ٢٤٦٠١، (١٤٨/٤١)، وهو صحيح.

المعنى الإجمالي:

ينهى سبحانه النبي ﷺ عن الاستجابة لطلب المشركين الذين كذبوا به وبرسالته، وكان طلبهم أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا الله مدة، وهم راغبون في أن تستجيب لطلبهم هذا وأن تلين لهم وتوافقهم في ما يطلبون منك، وهم من جانبهم مستعدون للتنازل في مقابل ذلك.

ثم نهى سبحانه نبيه ﷺ عن الاستجابة لما يطلبه المتصف بالصفات السيئة المذكورة، وهي: أنه كثير الحلف بالباطل، حقير النفس والرأي، يعيب الناس ويغتابهم، ويسعى للوقعة بين الناس بنقل كلامهم في بعض أو في الافتراء عليهم، وهو بخيل يمنع ماله ويمنع الآخرين من الإنفاق، ظالم، متجاوز للحد، كثير الوقوع في الإثم، وغليظ الطبع لئيم النفس، وهو بعد ذلك كله مجاهر بالشر، معتز بما عنده من مال وأولاد، وبلغ به الغرور والسفه أن يقول عن آيات القرآن الكريم إنها أباطيل السابقين وخرافاتهم.

إن المتصف بهذه الصفات سيعاقب يوم القيامة بعقوبة مذلة له حيث تظهره بين الخلق بمظهر مهين، وهي علامة ظاهرة على أنفه أو في وجهه ليعرف بسوئه، وهذه الآيات عامة في كل من اتصف بهذه الصفات، وهم موجودون قديماً وحديثاً.

استنباطات تربوية ودعوية:

- طلب المداينة والتنازل عن بعض الحق من قبل المشركين قديم حديث، وهو مما يندرج ضمن اتباع خطوات الشيطان، إذ يبدأ التنازل بخطوة ثم تتبعه خطوات.

- جميع الصفات المذكورة في هذه الآيات لمن نهى الله عن طاعته هي صفات ذميمة سيئة سلبية، ينبغي على المرء المسلم أن يترفع عنها وأن يتخلق بحسن الأخلاق وطيبها.
- التفصيل الذي ورد في هذه الآيات للصفات الذميمة فيه تنفير منها، وممن يتصف بها.
- في التعبير عن الأنف بالخرطوم، واختيار السمة وهي العلامة فيه، لزيادة الإذلال والإهانة للمتكبر المتعالي على الخلق، الذي يشمخ بأنفه على الناس.
- ذكر بعض المفسرين أن هذه الآيات نزلت في شخص محدد من مشركي قريش، ثم اختلفوا في تحديده، والقول بالعموم أولى ليشمل ذلك كل من اتصف بهذه الصفات الذميمة.

القيم:

- قيمة الثبات على الحق ومواجهة كيد أهل الباطل.
- قيمة مخالفة المكذبين وعدم طاعتهم.
- قيمة الحذر من الاتصاف بالصفات السلبية ككثرة الحلف والهمز والنميمة وغيرها.
- قيمة الصبر على أذى المكذبين وانتظار عقاب الله تعالى لهم.

نشاط: اذكر حادثة من السيرة النبوية عرض فيها المشركون على النبي ﷺ التنازل عن بعض مبادئه ليتبعوه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿١٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿١١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢﴾ فَأَنْظَلْنَاهُمْ وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿١٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿١٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَدَرِينَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

معاني المفردات:

الجنة: البستان.

ليصر منها: ليقطعن ثمرها.

ولا يستنتون: لا يبقون منه شيئاً للمساكين.

كالصريم: سوداء مظلمة.

صارمين: جادين في قطع الثمار.

حرد: منع.

أوسطهم: أعدلهم رأياً.

المعنى الإجمالي:

في هذه الآيات الكريمة قصة أصحاب بستان أرادوا التوقف عن إعطاء المحتاجين نصيباً منه، بعد وفاة أبيهم الذي كان يقسم للمحتاجين مقداراً من ثمر بستانه الذي ورثوه عنه، فعاقبهم الله بتخريب جنتهم، فندموا وأصلحوا شأنهم، وكان ذلك عبرة لهم ولمن علم بقصتهم، فما حصل مع أصحاب هذا البستان من الإنعام عليهم ثم سلبهم هذه النعمة بسبب كفرهم بها يمكن أن يحصل مع من يفعل مثلهم.

وكان أصحاب هذا البستان قد اتفقوا في ما بينهم وحلفوا الأيمان أن يقطفوا ثمار بستانهم صباحًا ولا يتركوا فيه شيئًا للمحتاجين، فأرسل الله تعالى على بستانهم وهم نائمون في الليل ما أذهب ثماره وأهلكها، وهم لا يعلمون بما حصل، ولما أصبح أصحاب البستان نادى بعضهم بعضًا أن أسرعوا وانطلقوا مبكرين إلى بستانكم لقطع ثماره، كما اتفقوا عليه ليلا، فذهبوا وهم يتحدثون بصوت خافت أنهم لن يسمحوا لأحد من المساكين بالدخول إلى بستانهم، فهم أصحاب البستان، ولهم الحق في التصرف فيه ومنع من يشاؤون من دخوله.

فوجئ أصحاب البستان حين رأوه وقد هلكت ثماره وزالت، وظنوا أنهم قد وصلوا إلى غيره، وأنهم تاهوا عن الطريق، ولكنهم حين تأملوا تيقنوا أنه بستانهم، وعرفوا أن الله عاقبهم على قصدهم السيء، وحرّمهم من ثمار بستانهم لما أرادوا حرمان المساكين حقهم، فقال أحدهم وهو أعدلهم رأيا وأفضلهم حالًا: ألم أطلب منكم أن تنزهوا الله تعالى وتذكروه، ولا تمنعوا المساكين حقهم في مالكم، قالوا: ننزه الله تعالى عن الظلم في ما فعل بنا، واعترفوا بقصدهم ظلم المساكين بمنعهم حقهم من المال، ولأم بعضهم بعضًا، واعترفوا بذنبهم وتجاوزهم الحدّ في ما عزموا عليه، ودعوا الله تعالى أن يعوضهم خيرا مما أهلكه لهم، قالوا ذلك وهم راجون من الله العفو وقبول التوبة الصادقة.

بمثل هذا العقاب الذي أصاب أهل البستان يعاقب الله كلّ من تعدى وكفر، ولم يستجب لأمر الله تعالى، وهو عذاب هين يسير مقارنة بعذاب الآخرة، ولو أن المشركين والمعرضين عن أمر الله علموا ذلك لما عملوا بما يؤدي إليه.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تشابه حال أهل الكفر والباطل في القديم والحديث.
- يحتمل البلاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أن يراد به: الإِنعام وبسط الرزق، أو الإِهلاك لمن كفر النعمة، ويحتمل أن يراد بالمفعول في ﴿بَلَوْنَهُمْ﴾: أهل مكة، أو من سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ...﴾، أو جميع الخلق، والقول بالعموم أولى.
- ما حصل من أصحاب البستان من توبة وإنابة سريعة إلى الله هو الأصل في كل من تضعف نفسه ويقع في المعصية.
- دلّت هذه الآيات على أن من عزم على فعل المعصية وأخذ بالأسباب المؤدية إليها يعدّ عاصياً، وقد يجره الله عن ذلك الفعل.
- كان إهلاك ثمر البستان مانعاً لأصحابه من فعل المعصية التي عزموا على فعلها، فكان أمراً ظاهره الشرّ وباطنه الخير لهم بمنعهم من فعل القبيح، وهلاك البستان أهون مما عزموا عليه من معصية.
- حق الفقير في المال ثابت، والصدقة عليه حق له وليس منةً.
- منع حق الفقير قد يؤدي إلى ذهاب المال ودماره، وإعطائه ينمي المال وباركه ويزكيه.
- اتفاق مجموعة من الناس على فعل الأمر، خيراً كان أو شراً، يزيد من اندفاعهم ورغبتهم في أدائه، وانفراد شخص واحد به يسبب له وحشة وتردداً، ومن هنا كان كثير من العبادات في الإسلام تؤدي بشكل جماعي لرفع الهمم وتقوية الدوافع.

- دل قوله تعالى ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ على وجود بذرة الخير ولو عند واحد من الجماعة العازمين على الشر، وعلى توجهه إليهم بالنصح أن لا يفعلوا ما عزموا عليه إلا أنه مع ذلك وافقهم في ما أرادوا، ولم يمنعه ما فيه من خير من ذلك.
- من طبع الناس عند حصول ما يذم التلاوم في ما بينهم ومحاولة إقصاء الاتهام عن النفس ولو بالقائه على غيره، ولو كان فاعل ذلك على يقين من كذبه.

القيم:

- قيمة اليقين بحصول الابتلاء في الدنيا للمؤمنين وغيرهم.
 - قيمة النصح للآخرين بصدق.
 - قيمة الثقة بحصول العذاب للمكذبين.
 - قيمة الندم على سلوك سبيل أهل الضلال.
- نشاط:** استخرج ما في قصة أصحاب البستان من فوائد ودروس وعبر.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۝۳٦ أَفْجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝۳٧ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝۳٨ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝۳٩ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝۴٠ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝۴١ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ۝۴٢ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۝۴٣ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝۴٤ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذُلُّهُمْ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۝۴٥ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝۴٦ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝۴٧ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ۝۴٨ أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ۝۴٩ فَأَصْبَحَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى

وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لُنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنَبَهُ رَبُّهُ
فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ
وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

معاني المفردات:

زعيم: كفيل وضامن.

سنستدرجهم: سنترجفهم في عقوبتهم.

مغرم: ما يلزم أدائه.

صاحب الحوت: يونس عليه السلام.

لنبد: لطرّح.

بالعراء: بلا مأوى.

مذموم: معاتب.

ليزلقونك: يُزَلُّون قدمك.

المعنى الإجمالي:

تبين الآيات أن الله تعالى أعدّ لمن آمن به واتقى عذابه ومعاصيه نعيماً عظيماً ورغد عيش في الجنة، ولا يمكن لله تعالى أن يساوي في الحساب والجزاء بين من آمن به وأسلم له وبين من كفر به ولم يؤمن، ويخاطب الله تعالى من يسوّي بين المؤمن والكافر في الحكم منكرًا عليه هذا الحكم الذي يستحق التعجب من أمره والتساؤل عن مبدأ حكمه، فإنه حكم معوج يدل على اختلال وعدم اتزان.

ويسأل الله تعالى الكافرين عن سبب كفرهم: هل عندكم أيها الكافرون كتاب منزل عليكم من الله تجدون فيه الإباحة لفعل ما تريدون وتشتهون

دون حساب ولا عقاب؟ وهل حصلتم على أيمان مؤكدة وعهود من الله لكم مستمرة إلى يوم القيامة يأذن لكم فيها أن تحكموا لأنفسكم بما ترغبون من الخير؟ أم أنكم تفترون على الله الكذب في ذلك؟

واسألهم أيها النبي الكريم ﷺ: هل يوجد من بينهم من يكفل ويضمن ذلك الذي يزعمون من خير وحسن جزاء عند الله؟ أم هل يعرفون من يوافقهم على هذا القول، ومن يحميهم من عذاب الله؟ فليدعوهم لنصرتهم والشفاعة لهم إن كانوا موجودين.

ثم أخبر سبحانه أن أحداث يوم القيامة فيها شدة بالغة وأحوال مفزعة، ويطلب من المشركين أن يسجدوا فلا يمكنهم ذلك، وتغشاهم الذلة والمهانة، وقد كانوا في الدنيا حين أمروا بالسجود والطاعة قادرين على ذلك فأبوا، ولذا يحال بينهم وبين القدرة على السجود يوم القيامة.

ويبين الله تعالى للمكذبين بالقرآن أنه قادر على إهلاكهم أي وقت يشاء، ولكنه سبحانه اختار إمهالهم وتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، وهم لا يشعرون بذلك ويظنون الإمهال إكرامًا لهم وتفضيلًا لهم على المؤمنين، ولأنهم أهل مكر وكيد عاملهم الله بمثل صنيعهم.

ما السبب الذي يدعو هؤلاء إلى الكفر والجحود، هل تسألهم أجرًا مقابل تبليغ الرسالة لهم فيكون ذلك مانعًا لهم من الإيمان لأنه يثقل عليهم دفع هذه الغرامة؟ أم أنهم اطلعوا على ما في اللوح المحفوظ من غيب فكتبوه واتبعوه؟ وبما أنه لم يحصل أي من هذين الافتراضين فيجب عليهم الإيمان بك واتباعك.

ثم تخاطب الآيات النبي الكريم ﷺ وكل من سار على دربه أن يصبر على ما قضى الله من إمهال الكافرين، وأن يواصل الدعوة والتبليغ على الوجه

الآثم والأحسن، وأن لا يعجل كما حصل مع نبي الله يونس عليه السلام حين غادر قومه غاضبا منهم لعدم إيمانهم، وكان فعله هذا اجتهدا منه وليس بأمر الله تعالى، فابتلعه الحوت في البحر، فعلم أن هذا ابتلاء له من الله فاستغاث به سبحانه، وهو ممتلئ غيظا على قومه، فاستجاب الله له ورحمه وأنجاه من بطن الحوت وحفظه وحماه، ولولا رحمة الله به لألقي في أرض خالية من النبات والزرع وهو مستحق اللوم على ما بدر منه، ولكن الله منّ عليه بالقبول والرضى والاصطفاء، فقبل توبته وشفّعه في قومه وأعادهم إليهم ومتعمهم به، وهو نبي كريم موصوف بالصلاح الكامل، وفي هذه الحادثة عبرة عظيمة لكل مسلم أن يلتزم بأمر الله وأن يصبر على الأذى ويحتمل حتى يأذن الله بأمره.

ويوشك الكافرون من شدة عداوتهم لك ونظرهم إليك بحقد وعداوة أن يزيلوك عن مكانك، حين سمعوا ما تدعوهم إليه من الآيات البينات، وزادوا على ذلك اتهامك بالجنون، وكيف يستقيم هذا الاتهام ويقبل وقد أنزل الله على نبيه كلاما معجزا هاديا للخلق أجمعين، وفي هذا إبطال لزعهم، وردّ عليهم بأبلغ عبارة وأعظم دليل.

استنباطات تربوية ودعوية:

- دلّ قوله تعالى ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أن الكفر من أعظم الجرائم التي تحصل من الإنسان، ويستحق الكافر أن يلقب مجرماً.
- يميل معظم الناس إلى حصول ما يرغبونه ويختارونه ويبذلون جهدهم في سبيل ذلك، وهذا حال أهل الدنيا، أما أهل الآخرة فإن ما يرغبونه ويختارونه هو ما يرضي الله سبحانه، لا ما يرضي أهواءهم ونفوسهم.

- ورد في معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف الله ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رثاء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا»^(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى الآية: «هو الأمر الشديد المفزع من الهول يوم القيامة»^(٢).
- الأمر بالسجود يوم القيامة ليس من باب التكليف، إذ لا تكليف في ذلك اليوم، ولكنه للتقريع والتخجيل^(٣).
- جاء قوله تعالى ﴿فَذَرْنِي...﴾ على عادة العرب في التهديد والوعيد بقولهم: دعهم لي، وخل بيني وبينهم فسأنتقم لك منهم.
- الاستدراج هو إيقاع الآخر في الحيلة بتمهل وخفاء دون أن يشعر بذلك، ومن الاستدراج ما يظنه الكافرون المنعم عليهم بالمال أنهم أعطوه تفضيلا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم.
- العادة أن لا يُعلم المستدرج المستدرج بما يخطط له، ولا يخبره به ليتم له الاستدراج كما يرغب، ولكن الله سبحانه عدلا منه ورحمة بعباده أعلمهم باستدراجه إياهم ليأخذ الفطن اللبيب منهم حذره وينجو من الاستدراج والإملاء.

(١) رواه البخاري برقم ٤٩١٩ في كتاب التفسير، باب سورة القلم.

(٢) جامع البيان للطبري ٥٥٥/٢٣، وسنده حسن، يُنظر: فتح الباري، ٤٢٨/١٣، والصحيح المسبور ٥٢٤/٤.

(٣) التفسير الكبير ٨٤/٣٠.

- عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يملئ للظالم فإذا أخذه لم يفلته»^(١).
- عاتب الله تعالى نبيه يونس عليه السلام لخروجه من قومه غاضبا عليهم بسبب عدم إيمانهم دون إذن من الله له بذلك، وكان الأولى به الصبر عليهم والبقاء معهم، وابتلاه الله بابتلاع الحوت له، وكان ذلك سبباً لإعلان التوبة التي أجابها الله وأعاد يونس إلى قومه، وفي هذه الحادثة عبرة عظيمة.
- العجلة والضجر لا يؤديان إلى نتيجة محمودة.
- يُستدل بقوله تعالى ﴿لِيَرْفُؤَنَّكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ على إمكان حصول الإصابة بالعين، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»^(٢).
- كما بدأت السورة بنفي الجنون عن النبي الكريم ﷺ ختمت به، وفي ذلك توافق والتئام بين البدء والختام.
- في بيان أن رسالة الإسلام عامة للعالمين في هذه الآيات التي تعد من أوائل ما نزل مع بدء الدعوة، وما رافق ذلك من تضيق وإيذاء للنبي ﷺ ومن آمن به من أصحابه، إشارات إلى أن النصر لهذا الدين كائن قطعاً، وأنه ليس خاصاً بأهل مكة ولا بما حولها، وفيه إشارات وبشائر بنصر هذا الدين، وأنه سيعم العالم كله.

(١) رواه البخاري برقم ٤٦٨٦ كتاب التفسير، باب سورة هود، ورواه مسلم برقم ٢٥٨٣، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

(٢) رواه مسلم برقم ٢١٨٨ كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى.

القيم:

- قيمة التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل.
 - قيمة الاستجابة لأمر الله تعالى لتجنب استحقاق العذاب.
 - قيمة استعلاء الداعي عن طلب الأجر على دعوته.
 - قيمة الصبر وأثره الكبير في حياة المؤمن.
 - قيمة الثبات والاستقامة على أمر الله.
- نشاط:** بين ما وصفت به الآيات حال المجرمين يوم القيامة.

تفسير سورة الحاقة

مدخل إلى السورة:

اسمها: الحاقة، وهو الاسم المشتهر لها، ولها اسمان لم يُشتهرا: السلسلة والواعية، وسبب التسمية بهما ورودهما فيها واختصاصها بهما^(١).

نزولها: مكية.

عدد آياتها: إحدى وخمسون في العدد البصري والشامي، واثنان وخمسون للباقيين^(٢).

فضلها: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: فقرأ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا ﴿٢﴾ مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾... إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع»^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ١١٠.

(٢) المواضع المختلف فيها اثنان: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾﴾ عدّه الكوفي وحده، وترك عدّه الباقون، و﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ [٢٥] عدّه المدني الأول والمدني الثاني والمكي، وترك عدّه الباقون (الميسر في علم عدّ الآي، ص ١٩٦).

(٣) رواه أحمد في المسند برقم ١٠٧ (١ / ٢٦٣)، وقال محققه: إسناده ضعيف.

مقاصدها:

- إثبات يوم القيامة.
 - الإعلام بإهلاك المكذبين بيوم الدين، وتبيين كيفية إهلاكهم.
 - تبيين جزاء أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.
 - إثبات تبليغ النبي ﷺ كل ما أوحى إليه من ربه.
- مناسبتها لما قبلها:** في سورة القلم إجمال الحديث عن يوم القيامة، وفي سورة الحاقة تفصيل له، وفي سورة القلم ذكر تكذيب أفراد بالرسالة، وفي سورة الحاقة ذكر تكذيب أمم بها^(١).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا وَعَادٌ فَأُهْلِكُوا بِحِجْرِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ خَاوِيَةٌ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْخَطِئَةِ ٩ فَعَصَا رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ١١ لَنَجْعَلَ لَكُم تَذَكُّرًا وَتَعِبَهَا أُنْزُورُ عِيَةً ١٢﴾

معاني المفردات:

الطاغية: الصيحة العظيمة.

صرصر: شديدة البرد.

عاتية: عاصفة.

(١) حقائق الروح والريحان ٣٠ / ١٤٠.

أعجاز: جذوع بلا رأس.

رابية: بالغة الشدة.

المعنى الإجمالي:

﴿الْحَاقَّةُ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقيق وقوعها، وافتتحت السورة بذكر هذا الاسم ليوم القيامة ثم الاستفهام عنه بـ ﴿مَا﴾ وبـ ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ تهويلاً لشأنه، وتفخيماً لأمره، فإن يوم القيامة حدث عظيم، تتغير فيه الموازين وتنقلب فيه الظواهر، وهو يوم الحساب والجزاء والخلود.

وبعد أن أخبرت الآيات عن تحقيق حصول يوم القيامة، انتقلت للحديث عن مصير بعض الأقوام الذين كذبوا بها، وتبدأ بذكر ثمود وعاد، وسمي يوم القيامة هنا بالقارعة لأنها تقرر القلوب بأحوالها وفضائعها، وكان جزاء ثمود وهم قوم صالح عليه السلام على تكذيبهم بالآخرة وعدم إيمانهم بالله ورسوله أن أهلكهم الله تعالى بصيحة عظيمة مجلجلة لم تبق منهم أحداً، وكان جزاء عاد وهم قوم هود عليه السلام على تكذيبهم أن أهلكهم الله بإرسال ريح مدمرة شديدة بلغت الغاية في بردها وشدتها، فلا يقف في طريقها شيء ولا يمنع ثورانها مانع، استمر هبوب هذه الريح العظيمة المهلكة على عاد سبع ليال وثمانية أيام متواصلة متتابعة بلا توقف ولا هدوء ولا انقطاع، وتركت قوم عاد أمواتا ملقين في الأرض على هيئة أصول النخل المقتلعة من أماكنها، الخالية الأجواف، وقد عمتهم هذه الريح بالهلاك فلم ينج منهم أحد، ولا يمكن لأي راءٍ في أرضهم أن يرى باقيا منهم فقد هلكوا جميعاً.

وأهلك الله فرعون وجنوده، ومن كذب بالله والبعث قبلهم من الأمم، وأهلك قري قوم لوط، فإن هؤلاء جميعاً اقترفوا الفعل السيئة وهي الكفر

ومعصية رسولهم، فاستحقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، كان هلاكهم في الدنيا بعذاب أليم كبير.

وأهلك الله قوم نوح بالطوفان، وأنجى نوحا ومن آمن معه في السفينة التي جرت في الماء بأمر الله وحفظه، وجعل الله في ذلك عبرة وذكرى لمن كان ذا سمع يعي به الحق وينتفع به.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تعدد أسماء يوم القيامة ومنها الحاقة والقارعة يدل على أهميته وعظمته، ولكل اسم من هذه الأسماء دلالة على حدث من أحداث هذا اليوم العظيم.

- وضع الاسم الظاهر موضع المضمّر في ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾^(١) و﴿مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾^(٢) لزيادة التهويل.

- استمرت الريح التي أهلكت عادا قوم هود عليه السلام سبع ليال وثمانية أيام مع إمكان إهلاكهم في لحظة واحدة، لبيان عظيم قدرة الله، ولتقضي عليهم قضاء تاما لا يفلت منه أحد.

- خاطب الله الذرية في قوله ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ مع أن المحمول أجدادهم لا هم، لاستحضار المشهد، ولأن إنجاء السابقين إنجاء لمن توالد منهم بعد.

- بدأت الآيات بذكر ثمود وعاد لأنهما قبيلتان معروفتان لأهل مكة، فهما من القبائل العربية، ولأن ديارهما مجاورة لهم شمالا وجنوبا، حيث تقع ثمود شمال مكة، وعاد جنوبها^(١).

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١١٥.

- كان إهلاك ثمود بصيحة عظيمة رهيبة، وصفت في بعض الآيات بأنها رجفة، وفي بعضها بأنها صاعقة، وكل هذا للدلالة على عظمتها وقوة أثرها^(١).
- يفهم من قوله تعالى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أن ابتداء عذاب عاد كان أول النهار، وأنه انتهى آخر النهار كذلك، ولذا كان عدد أيامه زائداً عن عدد لياليه بواحد.
- الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ يعود على عاد وثمود، ويلحظ أن الآيات الكريمة في هذه السورة بدأت بذكر هاتين القبيلتين معاً، ثم فرقت الحديث عنهما، ثم جمعت بينهما مرة أخرى^(٢).
- سُميت قري قوم لوط المؤتفكات لأنها قلبت، بأن جعل عاليها سافلها، وهو عذاب مناسب لما أقدموا عليه من ذنب فيه قلب للفطرة وطبيعة الخلق.
- أفرد لفظ ﴿رَسُولٌ﴾ في الآية الكريمة ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، مع أن المتحدث عنه رسولان حيث أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون، وأرسل لوط عليه السلام إلى قومه، لأن دعوة الرسل كلهم واحدة، مع أن المتحدث عنه رسولان فكأنهما رسول واحد، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].
- في إفرد لفظ ﴿أُذُنٌ﴾ وتنكيره في قوله تعالى ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ إشارة إلى قلة من يعي من الناس، وأن هؤلاء لهم عند الله مكانة كبيرة وإن قل عددهم مقارنة بالكثير من الناس الذين لا يعون ولا ينتفعون مما يسمعون^(٣).
- كل من كذب بالله تعالى واليوم الآخر من الأمم السابقة أهلكه الله.

(١) روح المعاني ٢١/ ٢٠٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ١١٩.

(٣) الكشف ٤/ ٦٠٠.

القيم:

- قيمة استشعار عظمة يوم القيامة وأهواله .
 - قيمة الاعتبار بما حصل مع الأمم المكذبة السابقة من دمار وهلاك .
 - قيمة التذكر والخضوع لله تعالى .
- نشاط:** تتبع أسماء يوم القيامة في آيات القرآن الكريم، وبين معنى كل اسم منها، والحكمة من مجيئه في سياقه .

﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ ۝١٥ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۚ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۚ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۚ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْبَرُ ۚ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حَسَابٍ ۚ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۚ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۚ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۚ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۚ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ ۚ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ۚ ۝٢٦ يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۚ ۝٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ۚ ۝٢٨ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ۚ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۚ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۚ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۚ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۚ ۝٣٣ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۚ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۚ ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۚ﴾

معاني المفردات:

فدكتا: فسويتا

واهية: ضعيفة

أرجائها: جوانبها

هؤم: خذوا

القاضية: المهلكة

غسلين: الصديد السائل من أجساد أهل النار

المعنى الإجمالي:

انتقلت الآيات إلى الحديث عن يوم القيامة وما فيه من ثواب للأبرار وعقاب للكفار، ويكون بدء يوم القيامة بنفخ الملك الموكل بذلك في البوق إيذاناً ببدء يوم القيامة، وهو إسرافيل عليه السلام، والمقصود في الآية النفخة الأولى.

يرافق النفخ في الصور أحداث عظيمة، منها أن تزال الجبال عن أماكنها، وترفع هي والأرض، وتضرب بها حتى تندق وتتكسر الجبال فتزول وتتفتت، وتصبح الأرض مستوية، إذا حصل ذلك فهذا إيذان ببدء يوم القيامة، وسميت القيامة واقعة تأكيداً لحصولها، وتنشق السماء في ذلك اليوم، وتتفتح أبوابها لنزول الملائكة، وتصبح هشة ضعيفة غير متماسكة، وتكون الملائكة في جوانب السماء ونواحيها بانتظار أمر الله للقيام به، ومن الملائكة صنف يحملون العرش فوق سائر الخلق، وهم ثمانية من الملائكة العظام الخلق، أو ثمانية صفوف هائلة في الكثرة والقوة.

في هذا اليوم يعرض الخلق على الله تعالى وذلك بعد النفخة الثانية التي تبعثهم من قبورهم، فيقومون صفوفًا بانتظار الحساب والسؤال، وهم في فزع ودهشة، والله تعالى عالم بهم وبأسرارهم، لا يغيب عن علمه أحد، ولا يخفى عليه سر ولا أمر.

ثم انتقلت الآيات إلى الحديث عن الذين يستلمون صحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى، فيسارع كلُّ منهم إلى مخاطبة من حوله أن يقرؤوا كتابه، لأن

ما فيه يسرّ ويشرف بدلالة استلامه باليد اليمنى، وقد كان متيقناً من حصول البعث والحساب، مؤمناً بالله وبما أخبر به، وتبين الآيات جانباً من نعيم أصحاب اليمين في الجنة، فمقامهم فيها كله رضى وسرور ونعيم دائم لا ينقطع ولا يزول، وسكناهم في جنة عظيمة القدر ذات قصور عالية شامخة، والثمار فيها قريبة التناول، يحصل عليها الراغب فيها دون عناء ولا جهد، ومن صور النعيم في الجنة تناول الطعام والشراب تفكها وتلذذاً لا عن حاجة إليها، وكل هذا النعيم جزاء لهم مقابل ما قدموا في الحياة الدنيا من طاعة وعبادة.

ثم انتقل الحديث إلى الذين يستلمون صحيفة أعمالهم بيدهم الشمال، فيتمنى كل واحد منهم أنه لم يبعث ولم يستلم كتابه، ويتمنى لو أن الموت كان نهايته وأنه لا بعث ولا نشور، لتيقنه من سوء المصير لحظة استلامه كتابه بشماله، ويعلم في ذلك الموقف أن ماله الذي أحبه في الدنيا وجمعه بشتى الوسائل لن يغني عنه شيئاً ولن يمنع عنه عذاب الله، وأن الجاه والسلطان والمكانة التي حصلت له في الدنيا لن تنفعه شيئاً وقد زالت ولم يبق لها أثر، ويأمر الله تعالى الملائكة الذين يعذبون أهل النار أن يأخذوا هذا الكافر إلى جهنم وأن يجمعوا يديه إلى عنقه بالأغلال، ويحيطوا جسده بسلسلة طويلة زيادة في تعذيبه وإهانته.

وسبب حصول هذا العذاب لمن يعذب به، هو كفره بالله، ومنعه الخير عن المساكين، من نفسه ومن غيره، فكان لا يطعم المساكين وينهى غيره عن إطعام المحتاجين، ولا يجد هذا الكافر من يحميه من العذاب ولا من يجيره منه، فقد شغل أصدقاؤه بأحوالهم، ولا يجد هذا الكافر في النار طعاماً إلا ما يسيل من أبدان أهل النار من صديد ودم، لا يأكل هذا الطعام إلا من تعمّد الكفر بالله وعدم الإيمان به وفعل ما يجلب سخط الله وعقابه.

استنباطات تربوية ودعوية:

- يؤخذ من الآيات التي تبين حال الجبال يوم القيامة وجود عدة مراحل من التغيير لها، منها الدك المذكور في هذه السورة، ومنها: النسف، والتسيير، وأن تصير هباء، وأن تصير سرابا، وأن تصير كالعهن المنفوش، ولبعض المفسرين اجتهادات في ترتيب هذه المراحل^(١).
- ﴿هَآؤُمْ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا، ويجوز في مفردة الهمز والقصر: هاء وها^(٢).
- المؤمن يعمل ويكد ويجتهد في الدنيا، وينتظر الثواب على ما قدم في الآخرة.
- الهاء في ﴿كَلْبِيَّةٍ﴾ و ﴿حَسَابِيَّةٍ﴾ و ﴿مَالِيَّةٍ﴾ و ﴿سُلْطَانِيَّةٍ﴾ هاء الوقف التي تُجلبل حال الوقف على الكلمة لتبيين حركة آخرها، وثبتت هذه الهاء وصلاً لثبوتها رسماً.
- في قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أقوى رادع للكف عن محارم الله واجتناب ما يسخطه سبحانه سرّاً وجهراً.
- قال الضحاك: «كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك»^(٣).
- المال والسلطان لا يغنيان عن صاحبهما شيئاً يوم القيامة.
- الندم في غير وقته لا ينفع، وذو اللب من يعلم متى ينفعه الندم.

(١) التفسير الكبير ١٢/٣١.

(٢) الدر المصون ٤٣٢/١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٠/١٨.

- تصوير مشهد عذاب أهل النار بشكل في غاية التنفير منه، ليحذر أصحاب العقول السليمة من فعل ما يؤدي إلى ذلك العذاب.
- يتمنى الكافر يوم القيامة الموت بقوله ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾^(٢٧) مع شدة كراهيته له، لتيقنه أن ما هو فيه أشنع من الموت وأمر^(١).
- حصرت الآية الكريمة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ﴾^(٢٨) طعام أهل النار في هذا الصنف، وورد في آيات أخر أنه من الضريع، ومن الزقوم، ولا تعارض بينها حيث تحمل على تنوع عذاب أهل النار فيعذب بعضهم بهذا وبعضهم بغيره، أو على حصول بعض العذاب في مراحل وبعضه في مراحل أخرى.
- التأمل في مصارع الغابرين في الدنيا، وعقابهم يوم القيامة، لتجنب سبيلهم والتحذير منه.

القيم:

- قيمة استحضار التغيرات الكبرى التي ستطرأ على الكون يوم القيامة.
 - قيمة السعي الجاد لأن نكون من أصحاب اليمين.
 - قيمة اجتناب سبيل أصحاب الشمال لما سيصيرون إليه من عذاب وعقاب.
 - قيمة الحذر من فتنة الدنيا وكثرة المال وحصول السلطان.
- نشاط:** راجع أحد كتب التجويد أو أحد معلميه لمعرفة الوجهين الجائزين في قوله تعالى ﴿مَالِيَّةٌ هَلَكٌ﴾^(٢٨) حال الوصل.

(١) أورد الطبري عن قتادة كلاماً بمعناه في تفسيره جامع البيان ٢٩ / ٣٩.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

معاني المفردات:

تَقَوَّلَ: افترى وكذب.

الوتين: عِرْقٌ متصل بالقلب، إذا انقطع مات الإنسان.

لحسرة: ندامة عظيمة.

المعنى الإجمالي:

فأقسم قسماً مؤكداً غليظاً، بكل شيء - فإن الأشياء كلها لا تخرج عن المبصر وغير المبصر - على أن القرآن مبلغ لكم بوساطة رجل جامع لمحاسن الأخلاق والفضائل، وليس هذا الكلام شعراً ولا كهانة، فإنه لا يشبه كلام الشعراء ولا الكهنة، لأنه كلام الخالق العظيم سبحانه، أنزله على نبيه للهداية والعبرة، إلا أنه لم يؤمن به ولم يعتبر ويتعظ بما فيه إلا عدد قليل ممن تلي عليهم القرآن وسمعوه، ولو أن هذا النبي الكريم ادعى على الله شيئاً لعاقبه سبحانه على ذلك بعقوبة عاجلة تنهي حياته، ولا يملك أحد أن يمنع تلك العقوبة عنه.

وإن آيات هذا القرآن الكريم تذكرة وعبرة وموعظة لأصحاب التقوى ينتفعون بما فيها، ويعملون بما أمروا به، والله تعالى يعلم أن من الناس من يكذب بالقرآن، وسيكون القرآن حسرة وندامة على من كفر به، حين يرون

ما أُعدَّ لهم من عقاب وثواب، وما هُيِّئَ من ثواب للمؤمنين، وإن القرآن هو الحق البين الواضح الذي لا امتراء فيه ولا ريب، فنزه ربك واذكر اسمه العظيم حامداً إياه على نعمة القرآن وعلى سائر النعم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تضمن قوله تعالى ﴿فَلَا أَقْصِرُ بِمَا تَبْصُرُونَ﴾ ﴿وَمَا لَا تَبْصُرُونَ﴾ القسم بكل شيء، فالمبصر وغير المبصر يشمل الخالق والمخلوق والدنيا والآخرة، والنعم الظاهرة والباطنة^(١)، وما نعلم من الخلق وما لا نعلم.
- يشير النص في القسم على ما لا نبصر إلى وجود عوالم لا يستطيع الإنسان رؤيتها، ومجرد الجزم بوجود هذه العوالم يفتح للإنسان آفاقاً هائلة من العلم بمدى ضعف الإنسان، وقلة حيلته أمام هذه العوالم العظيمة، ويتعالى بعلمه على الذين يحصرون إدراكهم في عالم مرئي ضيق الحدود، وفيه دعوة إلى التأمل والتفكير والبحث والاجتهاد وكسر طوق المادية الضيقة^(٢).
- ينسب القرآن إلى النبي ﷺ كما في قوله تعالى هنا ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ باعتباراه مبلغه للناس، وينسب إلى جبريل عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير] باعتباراه المرسل به من الله إلى رسوله، وينسب إلى الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥] لأنه قائله سبحانه.
- وجه الجمع بين الشعر والكهانة في الآيات مع اختلافهما في أمور أن الكهان كانوا يجتهدون في تحسين كلامهم بالسجع والمحسنات اللفظية ليقوى تأثير كلامهم على من حولهم.

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٠٣.

(٢) أشار إلى هذا المعنى سيد قطب في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٤.

- مع عظيم منزلة النبي ﷺ عند الله إلا أنه لو حاد عن الصواب وافترى على الله كذبا فإن عقابه سيكون عظيماً سريعاً، وبهذا الكلام يحصل اليقين أن النبي ﷺ بلغ ما أنزل إليه ولم يكتم منه ولم يغير فيه.
- الوتين: عرق يصل القلب بالدماع، وإذا انقطع مات الإنسان فوراً، ولذا كان النص على قطعه لسرعة حصول الموت بذلك.
- سلامة القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل، مع عظيم ما يبذله أعداء الدين من جهود في هذا السبيل، فهو كتاب الله المحفوظ من كل كيد ومكر ومحاولات بائسة متواصلة.
- في قوله تعالى ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ وجهان، أولهما أن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته، وثانيهما أن يكونا بمعنى واحد، ويكون من إضافة الشيء إلى نفسه بلفظ مغاير، وهو أسلوب شائع معروف في اللغة^(١).

القيم:

- قيمة تعظيم القسم الإلهي.
 - قيمة اليقين بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وأنه لا يشبه الشعر والكهانة.
 - قيمة التذكر والخضوع لله سبحانه.
 - قيمة اليقين بصدق كلام الله تعالى.
 - قيمة التنزيه والتعظيم لله عز وجل.
- نشاط:** تتبع السور المختتمة بتسبيح الله تعالى، وابحث في الأمر المشترك أو الأمور المشتركة بينها.

(١) الهداية ١٢/٧٦٩٣، والدر المصون ١٠/٢٣٢

تفسير سورة المعارج

مدخل إلى السورة:

أسمائها: المعارج وهو أشهر أسمائها، وتسمى سأل، أو ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ والواقع.

نزولها: مكية.

عدد آياتها: ثلاث وأربعون في العدد الشامي، وأربع وأربعون للباقيين^(١).

مقاصدها:

- تأكيد حصول البعث.
- ذكر بعض أحداث يوم القيامة.
- بيان طبيعة الإنسان الكافر وصفات المؤمنين.
- ذم تصرفات المشركين، ومواقفهم من الإسلام.
- إثبات قدرة الله تعالى على ما يشاء.

مناسبتها لما قبلها: في السورتين حديث عن يوم القيامة، وعن المكذبين المعاندين، وذمّ تعلق أهل الشرك والضلال بالمال وجمعه، وحرمان المساكين من حقهم فيه.

(١) الموضع المختلف فيه قوله تعالى ﴿سَنَقُ﴾ ترك عدّه الشامي، وعدّه الباقيون (الميسر، ص ١٩٦).

ولما أخبر في آخر سورة الحاقة عن علمه بالمكذابين، أخبر في أول المعارج عما صدر عن بعضهم^(١).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُ وَهُمْ يُوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾

معاني المفردات:

- المعارج: المصاعد.
- كالمهل: كالمعدن المذاب.
- كالعهن: كالصوف المصبوغ.
- يبصرونهم: يشاهدونهم ويعرفونهم.
- فصيلته: عشيرته.
- لظى: من أسماء جهنم.
- لشوى: جلدة الرأس.
- فأوعى: حفظ ماله في مكان آمن.

(١) البحر المحيط ١٠ / ٢٧١، وفيه أوجه أخرى بناء على الاختلاف في المراد بالسائل في أول سورة المعارج.

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة الكريمة بالإخبار عن داعٍ من المشركين دعا على نفسه وعلى قومه بنزول العذاب الذي يعدهم به الرسول ﷺ، وذلك من باب التكذيب به، وتؤكد الآيات أن العذاب سيقع على الكافرين ولا يوجد ما يمنعه، وهذا العذاب الذي سيصيب الكافرين من الله سبحانه الذي يعرج إليه جبريل عليه السلام والملائكة الكرام يوم القيامة، الذي يبلغ مقداره خمسين ألف سنة من سني الدنيا.

ويدعو الله تعالى نبيه ﷺ إلى الصبر على إيذاء المشركين واستهزائهم به وطلبهم تعجيل العذاب، وأن يكون صبره جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله، فإن هؤلاء المستهزئين ينكرون حصول يوم القيامة ولذلك يستهزئون به، ويستعجلون حصوله، وهو في الحقيقة كائن يقيناً، ولذا كان التعبير عن حصوله بالقرب فإن كل آت قريب.

في ذلك اليوم ستتغير السماء وتنقلب طبيعتها وتصبح كالنحاس الذائب، وينقلب حال الجبال حيث تتطاير من أماكنها وتصبح كالصوف المتناثر المصبوغ بألوان الجبال المتعددة، وفي ذلك اليوم ينشغل كل امرئ بنفسه من شدة الهول والفرع فلا يبالي الصديق بصديقه الحميم، ولا يلتفت إليه ولا إلى ما هو فيه من كرب.

ومع أن المرء يوم القيامة يرى من كان يعرفهم في الدنيا من أبنائه وإخوانه ومعارفه إلا أنه لا يتكلم معهم لأنشغال كل واحد بنفسه، أما الكافر فإنه يرغب في أن يقدم مكانه للحساب - وهو يعلم أن مصيره العذاب المهيّن - أبنائه وزوجه وأخاه وأفراد عشيرته التي كان ينتسب إليها، وكل من في

الأرض ممن لا يعرف من الخلائق لينجو بنفسه من العقاب، إن هذا الافتداء الذي يرغبه الكافر لن يحصل، وإن جهنم التي تلتهب نارها فيها صنوف من العذاب، منها نزع جلدة الرأس أو أطراف الإنسان من أماكنها، وتطلب أصحابها الذين يحاولون الفرار منها والتولي عنها، وكانوا في الدنيا يجمعون المال ويبالغون في حفظه، ولا يؤدّون حق الله فيه.

استنباطات تربوية ودعوية:

- التنكير في قوله ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ لبيان أن المقصود ليس التعريف به أو تبين هويته، ولقصد العموم حيث ينطبق ما في هذه الآية على كل من يصدر عنه مثل هذا السؤال.
- الاستهزاء بالإسلام وبالدعاة إليه قديم من بداية الدعوة، ولا ينبغي أن يكون له أثر سلبي على الدعوة، بل يزيدهم ثباتاً و يقيناً.
- اتباع المنهج الرباني في ردّ الباطل وحوار أهله، فالردّ والإبطال للشبهة بصرف النظر عن صاحبها.
- تحتمل الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ أن تكون بمعنى عن، لأن سأل بمعنى دعا، وتحتمل اللام في ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أن تكون بمعنى على، ويحتمل أن يكون الكلام على تقدير سؤال سائل: لمن هذا العذاب الواقع؟ فيقال: للكافرين^(١)، ومن قرأ (سال) بالألف تحتمل أن تكون مبدلة من الهمزة للتخفيف، وتحتمل أن تكون فعلاً ماضياً من السَّيل، والمعنى: جرى سيل بعذاب شديد للكافرين^(٢).

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧١ / ١٠.

(٢) إيضاح الرموز، ص ١٥٥.

- وصفُ الله تعالى بأنه ذو المعارج لم يقع في غير هذه الآية، والمعارج هي المصاعد، ويفهم منه أن للملائكة الكرام طرقاً أو أبواباً أو وسائل خاصة للصعود إلى السماء.
- في قوله تعالى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ تحديد مدة يوم القيامة إلى ما قبل دخول الجنة والنار بخمسين ألف سنة - على قولٍ في تفسير الآية - وفي سورة السجدة تحديده بألف سنة، والجمع بينهما أن في يوم القيامة مواقف متنوعة لها مدد يصل بعضها إلى ألف سنة، ومجموعها خمسون ألف سنة، ويخفف الله تعالى هذه المدة على المؤمنين لما ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: «ما أطول هذا اليوم؟» فقال: «والذي نفسه بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا»^(١).
- يحتمل قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أن يكون في عروج الملائكة أو نزولها في الحياة الدنيا، وأن الملائكة تقطع المسافة من الأرض إلى العرش في يوم، وأن قطع هذه المسافة يحتاج من الإنسان خمسين ألف سنة لو قدر له ذلك.
- عروج الملائكة إلى السماوات في الدنيا والآخرة من علم الغيب، وعلينا الإيمان بما أخبرنا به عنه دون خوض في تفاصيله وكيفيته.
- حاجة الإنسان إلى الصبر في مواجهة الصعاب والشدائد، وهو نصف الإيمان كما ورد في الأثر عن ابن مسعود، رضي الله عنه^(٢).

(١) رواه أحمد في المسند برقم ١١٧١٧، وحسنه ابن حجر في الفتح ٤٤٨/١١.
(٢) رواه الحاكم في المستدرک برقم ٣٦٦٦ (٢/٤٨٤)، وقال هو والذهبي: صحيح.

- يُلاحظ ترتيب المفتدى بهم أنه «على حسب شدة الميل الطبيعي في العرف الغالب، لأن الميل الطبيعي ينشأ عن الملازمة وكثرة المخالطة، ولم يذكر الأبوان لدخولهما في الفصيلة قصداً للإيجاز»^(١).
- ذم البخل والحرص الزائد على المال، وعدم إخراج حق الله منه، وحفظه بالوسائل الكثيرة، ومنها جعله في وعاء يحفظه عن الآخرين، وقد تطورت الأوعية التي يُحفظ فيها المال قديماً إلى حسابات بنكية، وخزائن مصفحة في مادتها ومكانها وآلية فتحها وحراستها بأجهزة المراقبة والتصوير والتواصل مع جهات الأمن والحماية.

القيم:

- قيمة اليقين بعذاب منكري البعث ومستعجلية.
 - قيمة الصبر والثبات على الحق.
 - قيمة الحذر من يوم الفزع الذي يود المرء فيه الافتداء بمن حوله.
- نشاط:** اذكر حديثاً نبوياً يبين حرص الإنسان على الإكثار من جمع المال.



﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۚ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۚ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۚ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الدِّينِ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ مِنَ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۚ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۚ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ ۚ﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ١٦١ .

معاني المفردات:

- هلوعاً: كثير الحرص.
- جزوعاً: كثير الجزع، ولا يصبر.
- منوعاً: كثير المنع.
- العادون: المعتدون.

المعنى الإجمالي:

تخبر هذه الآيات عن صفات الإنسان إذا لم يهذهبه الإيمان بالله، وهذه الصفات هي: شدة الحرص، وقلة الصبر، وكثرة اليأس والضجر إذا أصابه شر، وإذا أصابه خير من مال وسعة رزق منعه عن غيره، وهذا كله من فرط حب الإنسان لنفسه وذاته، وتعلقه بلذاته.

ويستثنى من الاتصاف بهذه الصفات القبيحة للإنسان من آمن بالله واستجاب لدعوته، وعمل للنجاة من العذاب الواقع حقاً يوم القيامة، وداوم على أداء الصلوات، وأخرج حق الفقراء في ماله، وتصدق عليهم، وحفظ نفسه من الوقوع في الموبقات، وحفظ فرجه من الزنى ومن النظر المحرم إليه، والتزم بما أباحه الله له من زوج وملك يمين، وأدى الأمانة، وحفظ العهد مع الله ومع الخلق، ولم يشهد إلا بالحق والصواب دون ميل لأحد أو عليه، وحافظ على الصلاة في مواعيدها، وأقامها كاملة الأركان مستوفية الشروط، إن من جمع هذه الصفات الحسنة يستحق دخول الجنة والإقامة فيها مكرماً غاية التكريم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- قال ابن كيسان: «خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكرهه، ثم تعبه بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره»^(١).

(١) معالم التنزيل ٨/ ٢٢٣.

- من المركوز في طباع معظم الناس: الهلع والحرص والجزع وقلة الصبر ومنع الآخرين حقوقهم، وعلى العاقل أن يسعى إلى تهذيب طباعه وأن يحمي نفسه من هذه الصفات الذميمة، ليكون من المكرمين في جنات النعيم.
- في استثناء أهل الإيمان والاستقامة من عموم الناس دليل على قلتهم، إذ المستثنى في الغالب أقل من المستثنى منه.
- ورد ذكر الصلاة في الآيات مرتين، الأولى مع تبين ديمومتها، والثانية مع تبين المحافظة عليها، وبكلا الأمرين يحصل الكمال في إقامة الصلاة.
- المقصود بـ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: الإماء، وهن النساء المملوكات، وتفيد الآية جواز وطء الأمة من سيدها، ولالإماء كما للعبيد أحكام مذكورة في كتب الفقه، غير معمول بها في أيامنا هذه لعدم وجود الإماء والعبيد، ومن الأكيد أن الخدم والعاملين بأجر في البيوت ليسوا عبيدًا ولا إماءً ولا تنطبق عليهم أحكامهم.
- من أبرز صفات المتقين الذين يدخلون الجنة:
- ✍ المداومة على الصلاة في أوقاتها، مع المحافظة عليها وعلى الخشوع فيها، وإتمام أركانها.
- ✍ الإحسان إلى الآخرين وأداء حق الفقراء والمحتاجين في المال.
- ✍ الإيمان بيوم القيامة، والخشية من عذابه.
- ✍ حفظ النفس عن المعاصي والسيئات، والتعفف، وحفظ الفرج عن الفعل الحرام، والالتزام بالمباح مما أحل الله في ذلك وهو الزوج وملك اليمين.

✍ حفظ الأمانة بمعناها الواسع والوفاء بالعهود والوعود مع الله ومع الخلق.

✍ أداء الشهادة بحق دون تقصير ولا ظلم لأحد.

وتخصيص هذه الصفات بالذكر دليل على أهميتها، وفي مقابل إكرام المتصفين بهذه الصفات أنفسهم، سيكرمهم الله تعالى يوم القيامة في جنات النعيم.

- قد يتصف ببعض هذه الصفات من لا يؤمن بالله ولا بالبعث كأداء الأمانة والوفاء بالعهد، ولا يكون الإيمان مبعث العمل عندهم بل لحصول منفعة أو اتقاء ضرر، فالباعث مختلف، وثواب المؤمن مقابل عمله ما وعده الله به، وجزاء غير المؤمن على عمله الصالح يحصل عليه في الدنيا من ثناء الناس عليه، أو من دفع بلاء عنه.

القيم:

- قيمة معرفة المسلم واجبه تجاه نفسه ومجتمعه.
- قيمة تقديم العمل الصالح للوقاية من العذاب.
- قيمة السعادة بتحقيق وعد الله للمؤمن بدخول الجنة.

نشاط: وازن بين صفات المؤمنين المذكورة هنا وصفاتهم المذكورة في سورة المؤمنون، واستخرج ما بين السورتين من صفات مشتركة، وصفات اختصت بها إحداهما.



﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مَهْطَعِينَ ۚ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ۚ﴾ ٣٦ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ﴾ ٣٨ ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ۚ﴾ ٣٩ ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ۚ﴾ ٤٠

عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

معاني المفردات:

- مهطعين: مسرعين.
- عزين: جماعات.
- بمسبوقين: بعاجزين.
- الأجداث: القبور.
- نصب: أصنام منصوبة لتعبد.
- يوفضون: يُسرعون.

المعنى الإجمالي:

تبدأ الآيات بالاستفهام عن السبب الداعي لجماعة من المشركين أن يجتمعوا حول النبي ﷺ جماعات عن يمينه وعن شماله^(١)، هل يطمع هؤلاء أن يدخلوا الجنة وهم على حالهم غير مؤمنين، كلا إن ذلك لن يحصل أبداً، وليس لهم أن يتكبروا على المؤمنين، وعلى غيرهم من الخلق، وهم مخلوقون من المادة التي يعلمونها، وهي النطفة المستقدرة.

ثم أقسم سبحانه بمشارق الشمس ومغاربها، أو بمشارق ومغارب الشمس والقمر والكواكب، على أنه قادر على إهلاك المشركين واستبدالهم بقوم آخرين أفضل منهم، يستجيبون لأمر الله ولا يعصونه، وهو سبحانه ليس بعاجز عن ذلك، فاترك أيها النبي الكريم ﷺ هؤلاء المشركين في لهوهم

(١) ذكره عدد من المفسرين منهم البيضاوي في أنوار التنزيل ٥/ ٢٤٧.

وباطلهم حتى يأتيهم العذاب في يوم القيامة الذين يكذبون به، حيث سيخرجون في ذلك اليوم من قبورهم مسرعين إلى أرض المحشر كما كانوا في الدنيا يسرعون إلى آلهتهم، ولكنهم في يوم القيامة الذي كانوا يكذبون به ولا يؤمنون بوقوعه ستكون أبصارهم ذليلة منكسرة، ويحيط بهم الهوان والذل.

استنباطات تربوية ودعوية:

- في الآيات الكريمة تعجيب من المشركين الذين أحاطوا بالنبى ﷺ وسمعوا كلامه وما يدعوهم إلى الإيمان به ورأوا المعجزات ومع ذلك لم يهتدوا ولم يتبعوه، وفي المقابل من الناس قديما وحديثا من آمن بمجرد سماع آية أو آيات.
- يطمع الكافرون مع ما هم عليه من كفر وصد عن سبيل الله بدخول الجنة، إن حصل اليوم الآخر حسب زعمهم، وفي المقابل يخشى المؤمنون من عذاب الله أن يدركهم مع ما هم عليه من إيمان وبذل وعمل صالح.
- في قوله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْمُونَ﴾ كناية لطيفة عن المنى المستقذر، وفيه لفت النظر إلى عظيم قدرة الله على خلق الإنسان من الشيء الحقيقير القليل.
- قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ قسم مؤكد بـ (لا) قبله، وهو أسلوب من أساليب تأكيد القسم، ورد في العديد من الآيات الكريمة، وقيل: بل هو نفي للقسم لأن الأمر أظهر وأوضح من أن يحتاج إلى القسم^(١).

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٣٠ حيث ذكر التفصيل في موضع سورة الواقعة.

- ورد في هذه الآية جمع المشارق والمغارب باعتبار اختلاف مكان وزمان حصولهما كل يوم، وورد في آية أخرى تشيتهما باعتبار مشرق الصيف والشتاء ومغربهما، وورد في آية ثالثة إفرادهما باعتبار عموم الجهة والوقت.
- شروق الشمس وغروبها من أعظم النعم على أهل الأرض، لما ينتج عنهما من حصول الليل والنهار وقضاء المصالح والحاجات، وكثير من المنافع والفوائد التي تستدعي حمد الله تعالى على نعمه.
- في تشبيه إسراع الكافرين حال الخروج من القبور يوم القيامة بإسراعهم إلى آلهتهم في الدنيا تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، حيث عبدوا ما لا يستحق العبادة، وسارعوا إلى طاعته جهلاً وضلالاً.
- وصفت الآيات الكريمة أفعال المشركين بالعبث واللعب، لعدم وجود هدف لها ولا انتظار أجر من فعلها، وفي المقابل كان وصف أفعال المؤمنين بالمداومة والمحافظة عليها لما فيها من جدّ وابتغاء الأجر العظيم.
- مع مقابلة المشركين دعوة النبي ﷺ بالهزاء والتكذيب، فقد كان حريصاً على دعوتهم راجياً هدايتهم مشفقاً عليهم، حتى أمره ربه سبحانه بتركهم وما هم فيه من باطل وضلال فلا خير يرجى منهم.
- لا يملك المشركون كما هو حال سائر الخلق حين يؤمرون بالبعث من قبورهم إلا أن يستجيبوا للأمر وقد كانوا في الدنيا يتكبرون عن أمر الله ويرفضونه.

القيم:

- قيمة ترك معاندة الحق ومقاومته .
 - قيمة استحضار عظمة الله تعالى رب المشارق والمغارب والقادر على كل شيء .
 - قيمة الإعراض عن أهل الباطل .
- نشاط:** ارجع إلى كتب الحديث واستخرج منها حديثاً نبوياً ورد فيه ذكر شروق الشمس .

تفسير سورة نوح

مدخل إلى السورة:

اسمها: سورة نوح، وتسمى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾.

نزولها: مكية.

عدد آياتها: ثمانٍ وعشرون في العدد الكوفي، وتسعٌ وعشرون في العدد البصري والشامي، وثلاثون في العدد الحجازي أي المدني الأول والمدني الثاني والمكي^(١).

مقاصدها:

- بيان قصة نبي الله نوح عليه السلام ومعاناته مع قومه.
- بيان أهمية التنويع في وسائل الدعوة.
- بيان الأساليب والوسائل الناجحة في الدعوة إلى الله تعالى.
- سدّ ذرائع الشرك ومنع كل ما يمكن أن يؤدي إليه.
- تبين عظمة الله تعالى من خلال الإبداع في خلق السماوات وما فيها، والأرض، والإنسان.
- تسلية النبي ﷺ وأصحابه في مواجهة المشركين وإيذائهم.

(١) مواضع الخلاف في السورة: ﴿وَلَا سَوَاءًا﴾ ترك عدّه الكوفي، وعدّه الباقون، ﴿وَنَسْرًا﴾ عدّه المدني الثاني والكوفي، ﴿كَثِيرًا﴾ عدّه المدني الأول والمكي، ﴿نَارًا﴾ ترك عدّه الكوفي، وعدّه الباقون (الميسر، ص ٢٠٥).

- تبين أن طريق الأنبياء واحد ودعوتهم واحدة.
- الاقتداء بنبي الله نوح عليه السلام في دعوته وبذله الجهد لهداية قومه.
- مناسبتها لما قبلها:** ورد في خاتمة سورة المعارج اجتهد النبي ﷺ في دعوته لقومه، وافتتحت سورة نوح ببيان دعوته لقومه، وفي سورة المعارج حديث عن قدرة الله على أن يبدل خيرا من المشركين، وفي سورة نوح حادثة فيها تبديل وإهلاك للمشركين من قوم نوح، وفي سورة المعارج إجمال في الحديث عن قدرة الله على البعث، وفي سورة نوح تفصيل له^(١).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ٤ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥﴾

معاني المفردات:

أجل الله: وقت الموت أو الهلاك

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة بالإخبار عن الله تعالى بضمير العظمة وبالتوكيد المفيد للاهتمام بالخبر، أنه بعث نبيه نوحًا إلى قومه ليدعوهم إلى توحيد الله تعالى ويخوفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، وهو عذاب مؤلم موجه، وأن نوحا عليه السلام قام بأداء مهمته وأعلم قومه أنه مرسل من الله تعالى إليهم ودعاهم إلى توحيد الله وخوفهم من عاقبة عدم الإيمان به سبحانه، ووضح لهم

(١) البحر المحيط ١٠/ ٢٨٠، والتفسير الموضوعي ٨/ ٣٦٦.

محتوى الرسالة، وأمرهم بعبادة الله تعالى على الوجه الذي يرضيه، وباجتناب ما يغضبه، كما أمرهم بطاعته فيما يدعوهم إليه فهو المبلغ عن ربه. وأعلم نوح قومه أنهم إن أطاعوه وآمنوا بالله فإن الله تعالى يغفر لهم ما مضى من ذنوب وسيئات قبل حصول الإيمان منهم، ويبارك لهم في أعمارهم، ويرفع عنهم العذاب الذي ينزل بالكافرين، ولكن إن حان موعد موت أحدهم فإنه سيلقى حتفه دون تأخير، لأن هذا مثبت في علم الله ومقدّر على جميع الخلق، ومن علم هذا سارع إلى الإيمان والتصديق.

استنباطات تربوية ودعوية:

- خصصت هذه السورة الكريمة لقصة نبي الله نوح لما امتازت به دعوة هذا النبي من أنه أول الرسل وأطولهم زمناً في الدعوة وقلة من آمن به واتبعه.
- اختيار أن يكون النبي المرسل إلى قوم منهم لا من غيرهم ليكون أنس لهم وأقرب إلى الاستجابة.
- من رحمة الله بعباده أن يرسل لهم الرسل ليرشدوهم إلى الحق ويهدوهم إلى السبيل القويم.
- تقديم الإنذار لمناسبة المقام وللإهتمام، وعُطف عليه التبشير بمغفرة الذنوب والبركة في العمر.
- في مبادرة نوح عليه السلام إلى دعوة قومه التزاماً بأمر الله تعالى له عبرةٌ للدعاة أن يبادروا إلى واجبه في الدعوة وطاعة ربه.
- سلك نبي الله نوح عليه السلام مع قومه أسلوب التقرب والتودد إليهم فنسبهم إلى نفسه، وذكرهم بأنهم قومه وأنه منهم.

- يمكن تلخيص دعوة النبي الكريم في ثلاث جمل هي: اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون.
- تقديم الأهم على المهم في الدعوة، حيث بدأ نوح عليه السلام بالدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.
- أكد نوح عليه السلام كلامه لقومه ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليزيل تردددهم، وقدمهم في الذكر ﴿لَكُمْ﴾ ليشعرهم بالاهتمام بأمرهم.
- وجود ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ لبيان أن الذنوب التي تكفر بحصول الإيمان هي ما سبق من الذنوب، وما لا تعلّق له بحق آدمي.
- من فوائد الإيمان بالله حصول البركة في العمر.
- الأجل المقدر في علم الله تعالى ثابت لا يتأخر ولا يتقدم.
- حذف جواب الشرط في قوله تعالى ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لدلالة ما قبله عليه، وهو: لسارعتن إلى الإيمان والاستجابة لما يأمركم به نبيكم.

القيم:

- قيمة الدعوة وطلب الاهتداء.
 - قيمة لزوم الطاعة والخضوع لله رب العالمين.
 - قيمة ترقب يوم القيامة واليقين بحصوله.
- نشاط:** ارجع إلى كتاب في التاريخ واستخرج منه المدة الزمنية بين آدم ونوح عليهما السلام.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نباتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

معاني المفردات:

واستغشوا: غطوا رؤوسهم.

مدرارًا: متتابعًا.

وقارًا: تعظيمًا.

أطوارًا: مراحل الخلق.

أنبتكم: أنشأكم.

فجاجًا: واسعة.

المعنى الإجمالي:

موضوع هذه الآيات تفصيل حديث نبي الله نوح عليه السلام عن دعوته قومه إلى الإيمان والأساليب المتعددة المتنوعة التي سلكها: تبدأ الآيات بقول نوح مناجيًا ربه شاكياً إليه موقف قومه من دعوته إياهم: يا رب، لقد دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة في أوقات الليل وفي أوقات النهار بحثاً عن الوقت الأنسب لاستجابتهم، ولكنهم لم يستجيبوا إلى نصحي ودعوتي إياهم إلى الإيمان، وكانوا كلما دعوتهم نفروا مني وأعرضوا عني إعراضاً بالغاً.

وكانوا حينما أدعوهم إلى الإيمان والاستقامة وأبين لهم أن الإيمان سبب لمغفرة ذنوبهم يبالغون في الإعراض عن سماع كلامي إلى درجة أن يضعوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا كلامي، ويغطوا رؤوسهم وأجسادهم بشياهم لئلا يروني، واستمروا على هذا الفعل مستكبرين عن طاعتي واتباعي.

وبيّن نوح عليه السلام أنه سلك أساليب متنوعة في دعوة قومه، حيث دعاهم جهاراً في العلن، وسراً في الخفاء، وهذا يدل على دعوته إياهم مجتمعين ومتفرقين، وذلك موافقة لحال المدعويين، فإن منهم من يناسبه الدعوة في العلن والاجتماع، ومنهم من يناسبه الدعوة في السر والانفراد.

وسلك نوح عليه السلام في دعوة قومه أسلوب الترغيب فدعاهم إلى الاستغفار بعد الإيمان بالله العظيم الذي يستجيب فيغفر الذنوب، وهو كثير المغفرة لمن يقبل عليه بالتوبة، ووعدهم إن آمنوا واستغفروا أن ينزل الله تعالى عليهم الغيث متتابعاً غزيراً، وأن يزيد في أموالهم وأولادهم، وأن يوسع عليهم في المعيشة فتصبح لهم في أرضهم بساتين مثمرة، وتجري لهم في أرضهم الأنهار يسقون منها ويتمتعون بها.

لم ينفع الترغيب مع قوم نوح، فانتقل في دعوتهم إلى التوبيخ، حيث سأل نوح عليه السلام قومه عن السبب الذي يصدّهم عن الإيمان بالله وتعظيمه ورجاء رحمته والخوف من عقابه، وهم يرون دلائل وجود الله وعظمته بأعينهم، ولا يملك أي مخلوق ادعاء أنه فاعل ذلك، وهو خلق الإنسان من نطفة فعلاقة فمضغة، وتغير حاله ونموه بعد ولادته طفلاً فصبياً فشاباً، إن في هذا الخلق أعظم دليل على الله، فما الذي صرفهم عن الإيمان به؟

وأشار نوح عليه السلام إلى دلائل عظمة الله تعالى، ليؤكد لهم عظمة الخالق من خلال خلق السماوات السبع الواسعة العظيمة المركبة بعضها فوق بعض، ومن خلال خلق القمر والشمس في السماء الدنيا من هذه السماوات، وجعل القمر منيرًا لأهل الأرض ينتفعون من نوره ويعلمون من مراحل الشهور والأيام، وجعل الشمس مصباحًا يهب الأرض الضياء والحرارة.

وعاد نوح عليه السلام إلى تذكير قومه بنعمة الخلق، مذكّرًا إياهم بأن الله خلق أباهم آدم من تراب الأرض وبأن الإنسان يعود بعد الموت إلى الأرض حيث يدفن فيها ويتلاشى في جوفها ثم يخرج الله منها يوم القيامة، وهذه الثلاثة: الخلق من الأرض والإعادة فيها ثم الإخراج منها من أعظم الأدلة على قدرة الخالق سبحانه.

ولفت نوح عليه السلام نظر قومه إلى آية واضحة قريبة من آيات الله وهي هذه الأرض التي نحيا عليها، وهي ممهّدة مسخرة للإنسان يشق فيها الطرق ويسير في أرجائها لقضاء مصالحه وابتغاء المعاش.

استنباطات تربوية ودعوية:

- على الداعي إلى الله تعالى أن يسلك جميع الوسائل والسبل المتاحة له في دعوته، وأن يبذل كل جهد ممكن في سبيل هداية المدعوين.
- مخاطبة كل إنسان بما يلائمه، وفي الظرف الذي يناسبه، فمنهم من يرجى استجابته إذا دعي جهارًا، ومنهم من يرجى استجابته إذا خوطب منفردًا.
- إسناد الفرار إلى الدعاء في قوله تعالى ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿٥﴾ إسناد مجازي، فهم فارّون من قبل أن يدعواهم، وكلما دعاهم فرّوا من جديد فكأن زيادة دعوتهم أدت إلى زيادة الفرار.

- يلحظ مبالغة قوم نوح في التهرب من سماعه ورؤيته وإصرارهم على الكفر واستكبارهم عن طاعته، كل هذا بسبب تأصل الكفر في نفوسهم وتعلقهم بالدنيا الزائلة.
- وضع الأصابع في الآذان وتغطية الرأس والجسم أثناء الحديث يدل على سوء خلق وعدم احترام للمتحدث، وقد يفضي به إلى التوقف والكف عن مواصلة الحديث، ولكن نبي الله نوح عليه السلام صبر واحتمل أذاهم.
- مما يدل على مبالغة قوم نوح عليه السلام في النفور من سماع مواعظه وضعهم أطراف أصابعهم في آذانهم، وفي التعبير عن ذلك بوضع الأصابع إشارة إلى مبالغتهم في هذا الفعل، حتى كأن أحدهم يريد وضع أصابعه كلها في أذنه إن أمكنه ذلك، وفي التعبير عن تغطية رؤوسهم وأجسامهم بالفعل ﴿وَأَسْتَعْشُوا﴾ المزيد بالسين والتاء إشارة إلى مبالغتهم في ذلك.
- لم تلن عزيمة نوح عليه السلام ولم يتوقف عن الدعوة مع ما لاقاه من جحود وإعراض، وبعضُ المواقف التي قابلوه بها مثل وضع الأصابع في الآذان وتغطية الرؤوس بالثياب كافية لكثير من الدعاة أن يتوقفوا عن الدعوة تأثراً من ذلك.
- أكد نوح عليه السلام صفة المغفرة لله تعالى بأكثر من مؤكد في قوله ﴿إِنَّهُ﴾ **كَانَ عَفْوَارًا** ﴿١٠﴾ حيث استخدم (إِنَّ) و﴿كَانَ﴾ الدالة على ثبوت هذه الصفة، وصيغة المبالغة فعّال.
- جمع نوح عليه السلام في دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب، وبين فوائد الإيمان الدنيوية والأخروية، وبين لفت النظر إلى الآيات العلوية في السماء والدنيا في الأرض، وفي الأنفس، ويدل ذلك على بذله عليه السلام غاية الجهد في سبيل هداية قومه.

- من ثمرات الإيمان في الدنيا حصول رغد العيش والسعة في الرزق وكثرة المال والولد، كما بينت هذه الآيات، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ولا يمنع هذا من حصول البلاء والضيق على فترات أو لأفراد من الأمة ابتلاء واختباراً.

- روي عن الحسن البصري: أن رجلاً شكاً إليه الجذب، فقال: استغفر الله، وشكاً إليه ثانياً الفقر، وآخر قلة النسل، ورابع قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أذاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا عليهم قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾ وَضَعُوا يَدَكُمْ ذِكْرَ بَأْمُولٍ وَنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿٣﴾﴾ (١).

- لتعظيم الله تعالى في قلب المؤمن آثار إيجابية كثيرة، فهو يقود إلى الالتزام بأوامره والبعد عن نواهيه، وفي المقابل فإن خلو القلب من تعظيم الله تعالى يقود إلى الكفر والاستهتار بأوامره، والوقوع في ما نهى عنه.

- مما يندرج في معنى الأطوار: مراحل الخلق في الرحم، ومراحل نمو الإنسان، وتباين الأفعال والأقوال والأخلاق بين الناس، وتباين الأحوال والدرجات والمقامات، وتباين الصور والهيئات والألوان.

- الرؤية في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ علمية وليست بصرية، فليس بإمكان الناس رؤية ما يزيد عن السماء الأولى.

(١) التفسير الكبير ١٦/ ٥٣.

- وصفت الآية الكريمة القمر بالنور والشمس بالسراج، وفيه إيماء إلى أن نور القمر ليس من ذاته إنما هو انعكاس لأشعة الشمس، أما الشمس فوصفت بالسراج لأنها ملتهبة ونورها ذاتي صادر عنها إلى الأرض وإلى القمر^(١).

- مصدر أنبت المتعدي إنباتاً، ومصدر نبت اللازم نباتاً، ودل ذلك على وجود حذف في الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ والتقدير: والله أنبتكم من الأرض إنباتاً فنبتكم نباتاً، فحذف في كل جملة ما أثبتته في الأخرى، وهو نوع من أنواع البلاغة، وفي هذه الآية تشبيه نمو الإنسان بنمو النبات.

- يُستدل بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ على كروية الأرض، لأن الشكل الكروي هو الشكل الوحيد الذي يمتد وينبسط ويتصل أوله بآخره بلا انقطاع، وهو ما عبّر عنه الآية بالبسط.

- من رحمة الله تعالى بخلقه تذليله الأرض لهم ليتمكنوا من العيش فيها براحة وبعد عن العناء والمشقة، فشق الإنسان الطرق وأزال الجبال أو فتح فيها الأنفاق، وأقام على الأودية جسوراً، وركب البحر والهواء، سالكاً السبل الواسعة للتنقل ممّا هداه الله تعالى إليه.

القيم:

- قيمة تقدير الجهد الذي بذله نوح عليه السلام في دعوة قومه.
- قمة عرض الدعوة بوضوح وسلوك السبل الممكنة لذلك.

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٠٤.

- قيمة الثبات على الدعوة والاستمرار فيها .

- قيمة الهمة المتجددة في الدعوة إلى الله تعالى .

نشاط: استخرج من الآيات الكريمة الوسائل الحكيمة التي سلكها نوح عليه السلام في دعوة قومه .

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَّدُنْهِ مَا لَهُمْ وَلَا لِي بِهِمْ إِلَّا خَسَارًا ١١ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا ١٢﴾
 ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ١٣ وَقَدْ أَضَلُّوا ١٤ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ١٥﴾
 ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَامْتَحِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ١٦﴾
 ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ١٧ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا ١٨﴾
 ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ١٩﴾

معاني المفردات:

كِبَارًا: عظيمًا .

وَدًّا وسواعةً ويعوق ويعوق ونسراً: أسماء الأصنام التي عبدوها .

دَيَّارًا: من يسكن الديار .

تَبَارًا: هلاكًا .

المعنى الإجمالي:

بعد أن أخبرت الآيات عما بذله نبي الله نوح عليه السلام من جهد كبير في سبيل هداية قومه ، تخبر هذه الآيات أنهم لم يطيعوه فيما أمرهم به من الإيمان والاستغفار ، وأنهم فضّلوا على ذلك اتباع كبرائهم الذين لم ينتفعوا مما

رزقهم الله من مال وولد فأنفقوا أموالهم للصدّ عن سبيل الله، وأمروا أولادهم بالكفر واستعانوا بهم على جلب تأييد الأتباع، وكان ذلك سبباً لزيادة خسارتهم.

وعمل كبراء قوم نوح عليه السلام بخفاء ودبروا الإساءة لنبیهم واجتهدوا في ذلك كثيراً، وبذلوا له وقتهم وفكرهم، وقابلوا دعوة نوح عليه السلام لهم بمكر عظيم.

وأمر الكبراء من قوم نوح أتباعهم بالتمسك بعبادة الآلهة التي يعبدونها من دون الله وهي آلهة متعددة منها: ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهي أصنام لرجال صالحين كانوا من قوم نوح فلما توفوا أغرى الشيطان قومهم أن ينصبوا لهم تماثيل في مجالسهم ويسموها بأسمائهم ليكون ذلك أعون لهم على الطاعة إذا رأوا صور الصالحين، وبعد قرون لم يعد الناس يعلمون سبب وجود هذه الأصنام فقالوا: لم تُتخذ هذه الأصنام إلا لأمر عظيم فعظموها وعبدوها^(١).

وكان هذا التحريض من الكبراء لأتباعهم بعبادة الأصنام سبباً لإضلال كثير منهم، فإن من عادة الناس اتباع كبرائهم فيما يوجهونهم إليه، وقد استدعى هذا الفعل من الكبراء وأتباعهم أن يصدر من نوح عليه السلام دعاء عليهم جميعاً بأن يزيد الله في ضلالهم وأن يعذبهم بعد ذلك على كفرهم وشرکهم به.

(١) وردت بهذا الرواية عن ابن عباس في صحيح البخاري، كتاب التفسير، رقم الحديث: ٤٦٣٦.

وكان نتيجة كفر قوم نوح وعنادهم وإصرارهم على الضلال أن أغرقوا بالطوفان، وسيعذبون يوم القيامة بعذاب النار جزاء ما عملوا، ولم يكن لهم في الدنيا حين أغرقهم الله، ولن يكون لهم في الآخرة حين يعذبهم الله نصير من آلهتهم ولا غيرها يمنع عنهم العذاب، فلم تنفعهم هذه الآلهة ولم تغن عنهم شيئاً.

وكان نوح عليه السلام قد دعا على قومه بالهلاك والاستئصال بعد أن يؤس من إيمانهم وبعد أن أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فطلب من ربه أن يهلك هؤلاء القوم، وأن لا يبقى منهم أحداً يسكن في الديار، وبين نوح عليه السلام علة دعائه على قومه وطلب هلاكهم بأنهم إن بقوا على ما هم عليه فإنهم سيتمادون في الكفر والإضلال، وسيستمر الضلال في ذريتهم وأبنائهم من بعدهم.

وختم نوح عليه السلام دعاءه بطلب المغفرة لنفسه ولوالديه ولكل من دخل داره مؤمناً ولجميع المؤمنين والمؤمنات، ثم دعا مرة أخرى على أهل الكفر والظلم بالهلاك والخسران التام.

استنباطات تربوية ودعوية:

- جواز شكوى حال المدعويين إلى الله تعالى وهو العالم بحالهم، لما في هذه الشكوى من راحة نفسية للداعي ورفع لهما همته وشحذ لها.
- المال والولد سببان للسعادة عند أهل الإيمان والاستقامة، وسببان للشقاوة وزيادة الخسران عند أهل الضلال.
- يتجمع أهل الباطل على محاربة الحق ويبدلون في ذلك جهداً كبيراً.

- حُرمت الصور والتمثيل من باب سدّ الذرائع وهو باب واسع من أبواب المحافظة على الدين، وذلك لئلا تعبد من دون الله بعد أجيال أو قرون.
- ذمّ المبالغة في تعظيم الأشخاص وتبجيلهم لما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من محاذير.
- بلغ من حرص قوم نوح على التمسك بالهتهم أن أضافوها إلى أنفسهم ﴿الْهَتَكُ﴾.
- يسلك الشيطان حيلًا ظاهرها الخير ومآلها الشرّ، فليكن المرء في غاية الحذر من حيل الشيطان وألعيه.
- ذكرت ﴿لَا﴾ مع ثلاثة من أسماء الأصنام وحذفت من الاثنين الآخرين، لأنه لا يزداد في التوكيد على ثلاث مرات^(١).
- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودّ كانت لكلب بدّومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غُطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحِمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين في قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت»^(٢)، وكانت هذه الأصنام غرقت في الطوفان، ثم أخرجها عمرو بن لحي ودعا إلى عبادتها^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ٢١٠.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٩٢٠.

(٣) فتح الباري ٨ / ٦٦٨.

- كان للعرب آلهة وأصنام أخرى منها: هبل والعزى واللات ومناة وإساف ونائلة ومناف وذو الخلصة وذو الكفين وذو الشرى والأقيصر^(١)، وفي هذا دلالة على ما كان فيه الناس من جاهلية عمياء وضلال بعيد.
- ضل بسبب عبادة الأصنام كثير من الخلق قديماً وحديثاً، وما يزال تعظيم الأصنام وإقامة المعابد لها موجوداً في دول عديدة، وهذا شأن الإنسان الخالي من الإيمان بالله، يعظم ما لا يستحق ولا يعمل عقله ولا المنطق السليم في فعله الضال.
- مع طول مدة دعوة نوح عليه السلام ومع كثرة ما لقي في دعوته من شدائد وإيذاء لم يدع على قومه بالهلاك والإبادة إلا بعد أن أعلمه الله بأنه لن يؤمن أحد من قومه، فلم يبق معه بعد هذا الإعلام مجال للدعوة، وكان لا بد في هذا الحال من التغيير والاستبدال.
- تضمن دعاء نوح عليه السلام على قومه أن لا يبقِيَ منهم أحداً، لعدم الفائدة في ذلك ولأن بقاء الكافر مفتاح لزيادة الشر والفساد.
- إن قيل: كيف علم نوح أن قومه إن بقوا سيضلوا الآخرين ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً؟ قيل: علمه بالنص والاستقراء، أما النص فمما أوحى الله إليه ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وأما الاستقراء فلطول لبثه فيهم وعلمه بأحوالهم.
- يلحظ أثر البيئة المحيطة بالمرء في سلوكه وعمله، فمن يعيش في بيئة أهل الضلال والفسق يتأثر بها ولو بشكل يسير.
- لا يعني عدم الاستجابة للدعوة حصول تقصير من الداعي.

(١) كتاب الأصنام للكليبي، ص ١٣ و ١٦ و ١٧ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٤ و ٣٧ و ٣٨.

- مما يدل على هوان المشركين على ربهم استجابة الله تعالى دعاء نوح عليه السلام وإغراقهم، والتعبير عن ذلك ببناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله ﴿أَغْرَقُوا﴾ **فَأَدْخِلُوا**.

- دعاء نوح عليه السلام لنفسه بالمغفرة من باب التمهيد لإتمام الدعاء لمن سيذكرهم بعد ذلك، ولتعليم من بعده من الداعين أن يتدرجوا في الدعاء بهذه الطريقة بدءاً بالنفس فالوالدين فالمعارف فعموم أهل الإيمان.

- في تخصيص نوح عليه السلام من دخل بيته مؤمناً بالدعاء دليل على جواز تخصيص المرء من يشاء بدعاء يتعلق به، ودليل على تعامل النبي الكريم مع أتباعه بلا كلفة ولا تطاول ولا تكبر، فكانوا يدخلون بيته ويجلسون معه.

- جواز الدعاء على عموم أهل الشرك والكفر والظلم بالهلاك والخسران والدمار، لما في ذلك من مصلحة البلاد والعباد.

- كرامة الصالحين على الله تعالى وعظيم منزلتهم عنده، حيث أهلك قوم نوح وجعل ذلك بآية كبرى وهي الطوفان انتقاماً لنبيه وأتباعه وإن كانوا قلة في العدد فهم في ميزان الله ذوو منزلة عظمى ومكانة كبرى.

القيم:

- قيمة اليقين بوقوع العذاب على المكذبين.

- قيمة تنزيه الله تعالى عن الشركاء والوسطاء.

- قيمة الثقة المطلقة بحكم الله تعالى.

- قيمة دعاء الله تعالى.

نشاط: استخراج ما ورد في السور الأخرى من دعاء نوح عليه السلام ربه وشكواه من قومه.

تفسير سورة الجن

مدخل إلى السورة:

أسمائها: تسمى سورة الجن، وسورة ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ و ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾^(١).

نزولها: مكية.

عدد آياتها: ثمانٍ وعشرون آية^(٢).

مقاصدها:

- إثبات وجود الجن وأنهم مكلفون بالإيمان والطاعة كالإنس.
- الإخبار بإيمان طوائف من الجن بهذا الدين.
- الإخبار عن بعض أحوال الجن، وأن قدرتهم محدودة غير مطلقة.
- إثبات التوحيد، ونفي الشرك.
- تبين تفرد علم الله تعالى بالغيب، وأن الجن لا يعلمون شيئاً من الغيب.

مناسبتها لما قبلها: سورة نوح والجن كالمقابلتين، ففي سورة نوح بيان حال المعرضين عن الدعوة وفي سورة الجن بيان حال المقبلين عليها، ونوح عليه السلام أول الرسل ومحمد ﷺ آخرهم، ونوح عليه السلام اتبعه

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة قل أوحى إلي، والتفسير الموضوعي ٣١١/٨.

(٢) اختلف علماء العدد في موضعين منها: ﴿أَحَدٌ﴾ المرفوع عدّه المكي وحده وترك عدّه الباقون، و ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ترك عدّه المكي وحده، وعدّه الباقون (الميسر، ص ٢٠٥).

قليل من قومه مع طول مدة دعوته فيهم، ومحمد ﷺ اتبعه كثيرون من الإنس والجن مع قلة مدة دعوته.

وفي سورة نوح الإخبار عن قومه وأنهم عبدوا الأصنام وتبعهم في ذلك العرب حتى تشابهت أسماء بعض أصنامهم، وكذب بالنبين الكريمين قومه، فكان الإخبار عن إيمان الجن تبكيًا لمن كفر وتباطأ عن الإيمان، فأخبرهم عن قوم أفضل منهم آمنوا بمجرد سماعهم الآيات.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِْلَنَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمِيعِ ۖ فَمَن يَسْمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۝﴾

معاني المفردات:

جدُّ ربِّنا: جلاله وعظمته.

صاحبة: زوجة.

شططًا: بعيدًا عن الحق.

رهقًا: طغيانًا وكبرًا.

شهابا رصداً: معدًا ومهيأً.

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة بأمر النبي ﷺ أن يبلغ كل من يصله البلاغ: أن الله تعالى أعلمه أن جماعة من الجن، عددهم ما بين الثلاثة والعشرة استمعوا إلى القرآن، فها لهم وأثر فيهم، فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم: لقد سمعنا كلاما في غاية العجب لشدة فصاحته وعظيم بلاغته، وهو كلام يخالف المألوف مما نسمعه عادة، ويتضمن هذا الكلام الإرشاد إلى الحق والدعوة إليه، والتعريف به، ولذا سارعنا إلى الإيمان بأنه كلام الله الخالق، وسنستمر على هذا الإيمان دائما ولن نعود إلى الشرك الذي كنا فيه من قبل.

وقال هذا النفر من الجن لقومهم: لقد علمنا من خلال ما استمعنا إليه من كلام الله أنه سبحانه تنزه في عظمته وجلاله عن الزوجة وعن الولد، فهو مستغن عن كل شيء، وهو صاحب العظمة المطلقة، وأن ما كان يقوله لنا الجاهل السفيف إبليس، ورؤساء الضلال من الجن عن الله تعالى خطأ وكفر، وبعيد عن الحق والصواب، ولم نكن نتوقع أن يتجرأ أحد من الخلق فيكذب على الله ويختلق كلاما باطلا على الله سبحانه.

وقالوا لهم: تبين لنا كذلك خطأ ما يفعله أفراد من الإنس من اللجوء إلى عظماء الجن طلبا للحماية من صغارهم، وكان هذا اللجوء يعجب كبراء الجن لما يحصل لهم بسببه من تعظيم، فزادوا كبرا واعتدادا بحالهم وإعجابا بشأنهم، وكان هؤلاء الإنس المستجيرون بالجن على بعضهم غير مؤمنين بالله ولا بالبعث، وكذلك كان عتاة الجن، فتشابهوا في الكفر والضلال.

وأنا حين اقتربنا من السماء لاستراق السمع كما كنا نفعل من قبل، منعنا من ذلك حراس من الملائكة الشداد، وأرسلوا شهابا حارقة على من يحاول

الوصول إلى السماء، ولا ينجو من هذه الشهب أحد بعد بعثة النبي ﷺ، وكنا قبل ذلك نصعد إلى السماء، ويستمتع من ينجو منا من الشهب إلى شيء من أخبار الأرض التي لم تحصل بعد، ونخبر به أوليائنا من الإنس، مع ما نضيفه إليه من أكاذيب وافتراءات.

استنباطات تربوية ودعوية:

- أفادت هذه الآيات أن الجن مخلوقات غيبية، يملكون إرادة وفهماً، وأنهم مكلفون كالإنس ومخاطبون بكلام الله تعالى، وأن منهم المؤمنين والكافر، والطائع والعاصي، وأنهم لا يعلمون شيئاً من الغيب، وأن دعاة الكفر والضلال فيهم هم الشياطين، وأن جزاءهم في الآخرة كجزاء الإنس^(١).
- ورد في الحديث بيان سبب استماع الجن للقرآن وهو أنه لما حيل بينهم وبين خبر السماء، انطلقوا في الأرض يبحثون عن سبب ذلك، وأن النفر الذين توجهوا نحو تهامة سمعوا رسول الله ﷺ وهو يصلي بأصحابه صلاة الصبح، فاستمعوا لتلاوته فآمنوا، ورجعوا إلى قومهم يخبرونهم ويدعونهم إلى الإيمان، وتدل روايات على حصول لقاء أو لقاءات بعد ذلك استمعوا فيها إلى النبي ﷺ وتحدثوا معه^(٢).
- في سرعة استجابة هذا النفر من الجن للإيمان، ومبادرتهم إليه مع قلة ما سمعوه من آيات، عبرة عظيمة ودعوة إلى سرعة الاستجابة لأوامر الله سبحانه، وتوبيخ لمن سمع الآيات ولم ينتفع بها.

(١) فتح القدير ٤٠٢/٥.

(٢) تنظر الرواية في صحيح البخاري، حديث رقم ٧٧٣، وصحيح مسلم حديث رقم ١٤٩.

- عظمة تأثير الآيات على السامع والقارئ، فقد استمع هذا النفر من الجن إلى آيات وقادهم ذلك إلى الإيمان بالله، والشهادة لهذا الكلام بالإعجاز والتفوق على كل كلام سواه.
- الاستماع إلى الآيات كافٍ في الهداية، دون حاجة إلى شرح وبيان أو تفصيل وتبيين، فعلينا أن نسعى للإكثار من نشر تلاوته بين المسلمين وغيرهم طلباً للاهتداء.
- الفطرة السليمة الخالصة من التحريف والتغيير والتأثير تقود إلى الإيمان، بأدنى الأسباب والوسائل فعلى الدعاة اغتنام مثل هذه المواقف ليوصلوا دعوتهم الصافية النقية إلى محاضنها العطشى لها.
- رسالة النبي ﷺ تعمّ الإنس والجن، وكذا رسالة كل نبي إلى قومه تعمّ إنسهم وجنهم، ولم يُرسل للجن رسل منهم، وهذا يدل على ثقل المسؤولية في الدعوة على الأنبياء الكرام، وعلى فضل الإنس على الجن.
- على الداعي تبليغ الدعوة بكل الوسائل المتاحة له ومنها تلاوة الآيات الكريمة، دون أن تؤثر المعوقات في همته وسعيه، فعليه العمل والأثر على الله سبحانه.
- الجَدُّ في اللغة: العظمة والجلال، وورد هذا المعنى في الأثر عن أنس رضي الله عنه قال: «كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جدّ في عيوننا»^(١)، أي عظم، ومنه ما ورد في الحديث: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/١٩.

(٢) الحديث رواه البخاري برقم ٨٤٤، ومسلم برقم ٢٠٦، ويُنظر فتح الباري لابن حجر ٩٧/١.

- تحتل الواو في قوله تعالى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أن تعود على الجن، فتعود الهاء على الإنس: أي فزاد الجنُّ المستعاضُ بهم الإنسُ المستعيذين إثمًا، وخوفًا ورعبا منهم، ويحتمل أن تعود الواو على الإنس، فتعود الهاء على الجن، أي فزاد الإنسُ المستعيذون الجنُّ المستعاض بهم ضللاً وطغياناً وكبراً وغروراً.

- الحكم على من تجاوز الحق إلى الباطل بالسفاهة.

- ضرر وسوء عاقبة الالتجاء لغير الله تعالى في الشدائد والملمات.

- يدل منع الجن من استراق السمع أنهم كانوا قبل بعثة النبي ﷺ يسمعون بعض ما يُقضى في السماء من أمور الأرض، وكانوا يزدون عليه أكاذيب وأقاويل، ويخبرون بها أولياءهم من الإنس^(١)، فيظن هؤلاء أن الجن يعلمون الغيب فيرهبونهم ويعظمونهم.

- مع منع الجن من استراق السمع ومن الوصول إلى السماء إلا أنهم يحاولون الحصول على أكبر قدر من المعلومات المتعلقة بالبشر ليوصلوها إليهم ممزوجة بكثير من الافتراء والمبالغة، ويبالغ العراف من الإنس المتعامل مع الجن بزيادة أكاذيب من عنده فيضيع الحق القليل بين ركाम الأكاذيب المتراكمة عليه، وفي الحديث عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها

(١) يُنظر الحديث في صحيح البخاري، برقم ٤٧٠١ و٤٨٠٠، وفي سنن الترمذي برقم ٣٣٢٣.

مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان - الراوي عن عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة - بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضُها فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقيها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مئة كذبة فيُصدّق، فيقولون: ألم نخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقًا، للكلمة التي سمعت من السماء»^(١).

- لا يجوز لأحد من الإنس الاستعانة بالجن ولا التعامل معهم، فليسوا أفضل منا لنستعين بهم، بل نفوقهم في كثير من الأمور، وليس مأذونا لنا أن نتواصل معهم بالكلام أو غيره، وكل من تجاوز حده في هذا الأمر باء بالخسران والضلال.
- يحب الجن أن يجدوا من يخضع لهم ويستجيب لأوامرهم، ويزيدهم هذا الفعل كبرًا وغرورًا.

القيم:

- قيمة إدراك الهداية في القرآن الكريم.
 - قيمة تنزيه الله تعالى عن جميع النقائص.
 - قيمة توحيد الله تعالى وتعظيمه.
- نشاط:** ارجع إلى كتاب في العقيدة، أو في الحديث النبوي، واستخرج منه صفات الجن وأفعالهم وحدود قدرتهم في علاقتهم مع البشر.

(١) رواه البخاري برقم ٤٧٠١.

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۚ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۚ فَلَا يَحْأَفُ بِخَسَا وَلَا رَهَقًا ۝ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ ۚ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ وَالْوَّاسِقُونَ ۚ فَمَن أَتَىٰ آلَ الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝ وَإِنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝﴾

معاني المفردات:

طرائق قددًا: مذاهب متفرقة.

بخسًا: نقصًا من ثوابه.

رهقًا: ظلمًا.

القاسطون: الظالمون.

غدقًا: كثيرًا.

صعدًا: شاقًا.

لبدًا: متراكمين.

المعنى الإجمالي:

في هذه الآيات تتمة كلام النفر من الجن الذين استمعوا القرآن إلى قومهم، فقالوا لهم: ولم نكن قبل استماع القرآن نعلم السبب الذي منعنا من محاولة السمع، وذهبت بنا الظنون إلى توقع حصول شرّ بأهل الأرض، أو توقع وجود خير أراده الله بهم، ولذا هيأ له أسبابًا منها هذا الأمر، وكنا قبل الهداية بالقرآن متفرقين مختلفين منقسمين إلى فئات عديدة، فمنا أهل

الصلاح والخير، ومنا فئة أقل منهم درجة أو درجات، ومنا أهل الشرور والآثام، وأهل الكفر والطغيان، وكنا نعلم أننا مهما بلغت قوتنا فإن الله تعالى قادر علينا، ولا يمكننا الفرار من أمره، ولا النجاة من عذابه، وفي هذا القول دليل على أن قائلِي هذه العبارات كانوا من صالحِي الجن قبل إيمانهم.

وقال هذا النفر من الجن لقومهم: بعد أن منّ الله علينا فسمعنا آيات القرآن الداعية إلى الخير والهدى انتقلنا إلى الإيمان الحق بالله وبرسوله وبكتابه، ونحن نعلم أن الله تعالى لا يظلم أحدا ممن يؤمن به، ولا يكلف عباده فوق قدرتهم وطاقتهم، وفي هذا دلالة على يسر التكليف، وحصول الجزاء العدل على الأعمال.

وبعد أن أخبر هذا النفر من الجن الذين بلغتهم الدعوة قومهم بما أخبرنا الله في الآيات السابقة؛ انقسموا إلى مسلمين استجابوا لأمر الله، وآمنوا به بعد أن بحثوا عن الحق الذي ينجيهم من العذاب، ويستحقون باتباعه الثواب، وإلى مائتين عن الحق مصرين على الكفر، وهؤلاء يستحقون العذاب على ذلك، وسيكونون وقودا للنار يوم القيامة جزاء كفرهم وضلالهم، وإلى هنا انتهى كلام الجن الذي حكته لنا الآيات الكريمة.

ثم أخبر سبحانه خلقه أن استجابة المكلفين من الإنس والجن، واستقامتهم على منهجه مفتاح لخير كثير، حيث يفتح الله سبحانه عليهم من بركات السماء والأرض جزاء لإيمانهم، واختباراً لهم ليظهر صادق الإيمان من مدعيه، أما من أعرض عن الإيمان بالله وطاعته فإنه يستحق عذاباً شاقاً مؤلماً. وأخبر الله تعالى الخلق أن المساجد بنيت لعبادته وتعظيمه وذكر اسمه سبحانه، وينبغي أن تبقى كذلك، وأن لا ينحرف الناس بها عن هذا الهدف،

وأن لا يعظم فيها أحد سوى الله، ولا يعبد فيها غيره، ولا يمدح فيها أهل الباطل والفجور، والحكام والأمراء الظلمة.

وأخبر الله تعالى الخلق أن الجن الذين استمعوا إلى تلاوة النبي ﷺ آيات القرآن كادوا من شدة حرصهم على الاستماع، ومن شدة رغبتهم في الدنو من النبي ﷺ وازدحامهم عليه أن يكونوا جماعات مترابطة فوق بعضها.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تأدب الجن في حديثهم عن الله، حيث نسبوا إرادة الخير والرشد إليه، ولم ينسبوا إليه إرادة الشر، حيث قالوا: ﴿أَشْرَأُيَدٌ مِّنَ الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.
- أخبر الجن أنهم لا يعلمون الغيب، وفي هذا إزالة لوهم كبير قديم علق في أذهان كثير من الناس، فعظموا الجن وتقربوا إليهم للحصول على شيء من علم الغيب المتوهم وجوده عند الجن.
- القسط هو النصيب بالعدل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْوْا لِّلْوَزَنِ بِالقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]، فإذا أخذ قسط غيره يكون بمعنى الجور، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، والإقسط أن يعطي قسط غيره وذلك إنصاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِسطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] (١).
- يعذب الجن بالنار وهم مخلوقون من نار، لأنهم لم يبقوا على صفة النار التي خلقوا منها كما أن الإنسان خلق من طين ولم يبق موصوفاً بصفاته، ولأن نار الآخرة عظيمة القوة إلى درجة هائلة، ولأن جهنم تحتوي أصنافاً أخرى من العذاب.

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة قسط، ٤٠٣.

- مع ما في محاولة الجن استراق السمع من خطورة قذف الشهب عليهم قبل الإسلام وازدياد هذه الخطورة بعده إلى درجة الاستحالة إلا أنهم يفعلون ذلك، لما ينتج عنه من تعظيم لهم ورفع لمنزلتهم عند أوليائهم من الإنس، ولظنهم احتمال النجاة، ورغبتهم في فعل الممنوع، وقد يفعلون ذلك في لحظة غفلة ونسيان كما يحصل مع بني آدم.
- في قوله تعالى: ﴿وَالْوَأَسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لَنُفَتِّنَّهُمْ فِيهِ﴾ إفادة أن من ثمرات الاستقامة الرخاء، وأن من أسباب الرخاء توفر الماء وكثرته، وأن من الرخاء ما يكون ابتلاء واختبارًا.
- الدنيا دار ابتلاء وامتحان وتمحيص، وعلى من تيقن من ذلك أن يأخذ للأمر أهبة ليتفوق في امتحانه ويجتاز العقبة الكؤود بليين ويسر فينجو من البلاء ويستحق رضوان الله.
- نسبة المساجد إلى الله تشریف لها ورفع لمقامها، ويقتضي ذلك الاعتناء بها وتطهيرها من الأدران المادية والمعنوية، وإخلاص العبادة والدعاء فيها لله وحده، والتزام الآداب التي تليق بها فيها.
- اختلف القراء العشرة في همزة ﴿وَأَنَّهُ﴾، ﴿وَأَنَّ﴾ في الآيات ٣-١٤ و ١٩، فقرئت بالفتح عطفًا على ﴿أَنَّهُ أَسْمَعَ﴾ ويكون الكلام إخبارًا من الله تعالى لنبيه ﷺ، وقرئت بالكسر عطفًا على ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ ويكون الكلام من تمة إخبار الجن عما حصل، واتفقوا على قراءة ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ بفتح الهمزة، على أنها من كلام الله تعالى وليست من كلام الجن^(١).

(١) إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز، ٧١١.

- وصف النبي ﷺ بالعبودية في قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ رفع لمقامه وتشريف له ، فإن مقام العبودية مقام شريف عظيم الشأن .
- يستحب حضور مجالس الخير والعلم والعبادة، ويستحب فيها التقارب والدنو من المتحدث ليحصل الاستماع إلى كلامه بشكل أفضل، وللحصول على الرحمة التي تنزل في هذه المجالس، وفي الحديث عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفوا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»^(١).

القيم:

- قيمة التأدب مع الله تعالى وعدم نسبة الشر إليه .
- قيمة استحضار قدرة الله تعالى على كل شيء .
- قيمة اليقين بعدل الله تعالى في حكمه بين خلقه .
- قيمة الثبات والاستقامة على أمر الله عز وجل .
- قيمة تعظيم المساجد والإخلاص لله تعالى .
- قيمة الحرص على سماع الخير والرغبة فيه والإقبال على مجالسه .

(١) رواه البخاري برقم ٦٦، ومسلم برقم ٥٨١٠ .

نشاط: بين ما الأوجه التي يحصل بها تعظيم المساجد والمحافظة على مكانتها ومنزلتها في نفوس المؤمنين .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿١٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضَعُ نَاصِرًا وَاقِلٌ عَدَدًا ﴿١٤﴾ قُلْ إِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿١٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا ﴿١٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٨﴾ ﴿١٨﴾

معاني المفردات:

يجيرني: يمنعني

ملتحدًا: ملجأ.

أمدًا: أجلاً.

رصدًا: حرسًا.

المعنى الإجمالي:

قل أيها الرسول الكريم ﷺ للخلق أجمعين، ومنهم المشركون الذين لم يستجيبوا لدعوتك: إني لا أعبد إلا ربي الذي خلقتني وأرسلني، ولا يمكن أن أشرك به غيره، وأدعوكم إلى توحيد الله وعبادته.

ومع أني رسول الله إلى الخلق فإني واحد من البشر، لا قدرة لي على إلحاق الضرر بمن عاداني، ولا على إلزامكم بالإيمان، إنما عليّ البلاغ، وكل

إنسان مكلف من الجن والإنس مسؤول عن اختياره، ولا يمنع عني عذاب الله تعالى، ولا يحميني من نزوله بي إلا قيامي بتبليغ ما أمرت به من الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله، وتنفيذ ما أرسلت به من الدين الحق، وإذا كان هذا هو حال الرسول الكريم ﷺ فكيف يكون حال من سواه؟ وقد أعد الله لمن لم يؤمن به وبرسوله الداعي إلى الحق المبين، ولمن عصى أمره وأمر رسوله عذاباً مؤلماً في النار، وهو عذاب مستمر دائم لا نهاية له.

وسيبقى المشركون في كفرهم وعنادهم حتى يعاينوا العذاب الذي وعدوا به فيحصل لهم وقتها العلم اليقين بأنهم كانوا في ضلال، وأنه لا قدرة لأحد من الخلق أن ينصرهم ويحميهم من العذاب، حيث تتلاشى قوتهم مهما عظمت، أمام قوة الله وعظمته، ويتضاءل عددهم مهما كثروا أمام أعداد أهل الإيمان المؤيدين بالملائكة الكرام.

ثم يؤمر الرسول ﷺ أن يقول: إني لا أعلم الغيب، فلا أعلم متى سيحصل العذاب الذي سينزل بكم، ولكني أعلم أنه كائن كما أخبر الله سبحانه، وهو من علم الغيب الذي اختص الله تعالى به نفسه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه إلا من شاء إطلاعه على بعض الغيب من رسله الكرام ليكون معجزة لهم وتأكيذا لصدقهم، ومن أطلعه الله تعالى من الرسل على شيء من الغيب فقد هياً له من الملائكة حفظة يحمونه من أذى الجن والإنس ليقوم بتبليغ الرسالة على أتم وجه وأكملة.

وإن الله تعالى يعلم علماً يقينياً أن الرسل السابقين قاموا بما أمروا به من تبليغ الرسالة على أحسن وجه، وعلم الله شامل لكل ما في الوجود ومنه علم ما حصل بين الرسل وأقوامهم، وعلم كل دقيق أو عظيم، ظاهر أو باطن، قديم أو حديث، دائم أو منقطع، فعلم الله محيط لعالم الغيب والشهادة.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تأكيد أن الضر والنفع بيد الله وحده، فالله سبحانه هو الخالق وهو المتصرف في خلقه كيف يشاء، ونفيه عن النبي ﷺ نفي له عن غيره.
- ينبغي على كل امرئ القيام بما يكلف به على أحسن وجه وأتم حال، وإذا كان القيام بالواجب يجير من العقوبة، فإن التقصير فيه يستلزمها.
- أفراد الله سبحانه بالدعاء والطلب، والتوجه إليه لقضاء الحاجات.
- يلحظ ورود الجمع بعد الأفراد في قوله ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ فالأفراد في ﴿يَعْصِ﴾ و﴿لَهُ﴾ مراعاة للفظ (مَنْ) وهو مفرد، والجمع في ﴿خَالِدِينَ﴾ مراعاة لمعنى (مَنْ) وهو جمع.
- يطلع الله تعالى من ارتضى أن يطلعه من الرسل على غيب خاص، ويكون هذا الإطلاع محاطًا بحماية كاملة من الشياطين كيلا ينقلوه إلى أوليائهم من الإنس فيفتنوا به الناس^(١)، وكذلك وحي الله تعالى إلى أنبيائه يحاط بالحماية التامة لئلا تسترق الشياطين منه شيئًا، وفي إعلامنا بهذا الأمر توجيه للعباد أن يببالغوا في حفظ المعلومات الهامة وحمايتها من التسرب والوصول إلى علم من قد يحرف ويغير فيها، ويجعل ذلك سلاحًا بيده ضد أصحاب المعلومة.
- المقصود بالعلم في قوله تعالى ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبَّهُمْ...﴾ العلم الذي يترتب عليه الجزاء، أو ظهور العلم للمخلوقين، فإن الله يعلم الأشياء كلها قبل حصولها^(٢).

(١) أيسر التفاسير ٥٦٩/٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٤٨/٨.

- رجّح بعض المفسرين أن فاعل ﴿لَيَعْلَمَنَّ...﴾ ضمير يعود على الرسول ﷺ، ورجح آخرون أنه ضمير يعود على الناس أو على المشركين منهم، والراجح عند كثير من المفسرين أنه يعود على الله تعالى^(١).

القيم:

- قيمة اليقين بأن النافع الضار هو الله وحده.
 - قيمة الإيمان بعلم الله تعالى الغيب.
 - قيمة اليقين بالمكانة العالية لرسول الله تعالى عنده.
 - قيمة الثقة بأمانة الرسل في تبليغ ما أرسلوا به.
- نشاط:** استخرج من سورة المؤمنون الآية التي تشبه الآية (٢٦) في سورة الجن، وبيّن أوجه التشابه والاختلاف بين الآيتين.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٢٤٨ والأساس في التفسير ١١/ ٦١٨٦.

تفسير سورة المزمل

مدخل إلى السورة:

اسمها: سورة المزمل، وهو الاسم الذي اشتهرت به.

نزولها: مكية وهي من أوائل ما نزل، وما قيل من استثناء آيتين منها وأنها مدنيتان قول مرجوح^(١).

عدد آياتها: ثمان عشرة آية في العدد المدني الثاني، وتسع عشرة في العدد البصري، وعشرون للباقيين^(٢).

فضلها: من فضائلها أنه ورد في آخرها التخفيف على المسلمين من فرضية قيام الليل.

مقاصدها:

- الإرشاد إلى عظيم مقام ومنزلة قيام الليل، ودوره في القرب إلى الله.
- تبين أهمية ملء الأوقات بتلاوة القرآن وذكر الله.
- بيان شيء من عذاب المكذبين في الآخرة.
- ذكر بعض أهوال يوم القيامة.
- رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين وتخفيفه عنهم مراعاة لأحوالهم.

(١) الهداية لمكي ٧٧٨٣/١٢، وفتح القدير للشوكاني ٤١٧/٥.

(٢) المواضع المختلف في عدّها ثلاثة: ﴿الْمَزْمَلُ﴾ عدّه المدني الأول والشامي والكوفي، وترك عدّه الباقون، ﴿إِلْيَكَ رَسُولًا﴾ عدّه المكي، وترك عدّه الباقون، ﴿شَيْبًا﴾ ترك عدّه المدني الثاني، وعدّه الباقون (الميسر في علم عدّ آي القرآن، ص ٢٠٦).

مناسبتها لما قبلها: من أوجه المناسبة بينها وبين سورة الجن: افتتاح السورتين بخطاب النبي ﷺ، الأولى تأمره أن يبلغ ما أوحى إليه من مقولة الجن، والثانية تأمره أن يقوم الليل عابداً لربه، واختتمت سورة الجن بذكر الرسل، وافتتحت سورة المزمل بثناء أحدهم^(١).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَيَّأْتُهَا الْمَزْمَلُ ① فُرَ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا ② نَضَفَهُ وَأَوْنَقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَقِلَ الْقُرْآنُ ④ تَرْتِيلًا ⑤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑧ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑩﴾

معاني المفردات:

المزمل: المتلفف بشيابه.

ورتل: بين وفصل.

ناشئة الليل: العبادة فيه.

أشد وطأ: أكثر موافقة للقلب.

وأقوم قيلاً: وأصوب قولاً.

سبحاً: تصرفاً في شؤونك.

تبتل: انقطع للعبادة.

(١) روح المعاني ٢٩/ ١٠٠، والتفسير المنير ٢٩/ ١٨٧.

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة بنداء من الله العلي العظيم لرسوله الحبيب محمد ﷺ قائلاً له: يا أيها المتلفف بثيابه، دع التزمّل والتلفف وقم إلى الصلاة متقرباً بها إلى الله، ومعدداً نفسك لتحمل أعباء الدعوة ومتطلباتها، واقسم وقت الليل بين القيام في الطاعة والعبادة وبين الراحة والنوم، بجعل معظم الليل أو نصفه أو ثلثه للقيام والعبادة، وباقيه للراحة والنوم، واقرأ القرآن بترؤ وت مهل، مع تبين حروفه وألفاظه، ليكون أعون لك على حضور القلب والفهم والتأمل في معنى ما يُقرأ.

إن ما سينزل عليك أيها النبي ﷺ من الآيات كلام عظيم القدر جليل المقام، قوي التأثير، يحوي المعاني العظيمة والتوجيهات السامية، وفي هذا الإعلام تهيئة له أن يستعد لما سيلاقيه من أحداث جسام تتضمن التكذيب والإيذاء، بسبب إنزال هذا القول الثقيل عليه.

وإن أوقات الليل أنسب للطاعة والعبادة، وأكثر مناسبة لحصول الخشوع، وأبعد عن الرياء، وأكثر بركة وثواباً، لما في أوقات الليل من الهدوء والبعد عن الشواغل، وإقبال القلب على الله، مع ما فيها من صعوبة وثقل على النفس بهجر الفراش وترك النوم، أما أوقات النهار فإنها تمتلئ بشواغل الأعمال، وإنجاز المهام وقضاء المصالح الدنيوية، فيصعب أن يحصل فيها فراغ القلب من الشواغل.

ويأتي بعد ذلك توجيه للنبي ﷺ ولمن يصلح للخطاب بعده: حافظ على ذكر الله تعالى في أوقاتك كلها، في الليل والنهار، ولا تشغلنك أعمال الحياة في النهار عن ذكر الله، وأقبل في ذكرك لله عليه بجميع حواسك، واقطع نفسك

في وقت الذكر عن العوائق والشواغل وفرغ قلبك للخشوع والإقبال على الله، فإن له سبحانه مُلك ما بين المشرق والمغرب، ويشمل ذلك الخلق كله، وهو وحده المعبود بحق، فاعتمد عليه في جميع أمورك، وتوكل عليه وحده فهو صاحب القدرة المطلقة.

استنباطات تربوية ودعوية:

- وصف النبي ﷺ بالمزمل في هذا النداء من باب التلطف في ندائه والتهوين عنه، وتبيين الحالة التي كان عليها بعد أن لقيه جبريل عليه السلام أول مرة في حراء، فرجع إلى بيته يرجف فؤاده وهو يقول: «زملوني زملوني»^(١)، وفي هذا دلالة على أن الآيات الأولى من سورة المزمل من أوائل ما نزل من القرآن.
- الأمر بالقيام يقتضي التهيؤ التام لحمل الرسالة، وأن القيادة تحتاج إلى جهد كبير ونبذ الراحة والسكون.
- أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بقيام قدر من الليل ولم يأمر بقيام الليل كله، لما في ذلك من المشقة والصعوبة، ويتفاوت هذا القدر بين ثلثي الليل وثلثه.
- يرى كثير من أهل العلم أن قيام الليل كان واجبا في أول الدعوة على النبي ﷺ وأتباعه، إلى أن خفف الأمر عن الأتباع لاحقا، والحكمة من ذلك تهيئة الصف الأول من حملة دعوة الإسلام ليكونوا في أتم حالات الاستعداد النفسي والجسدي لتبليغ الدعوة وتحمل الأعباء والتبعات، وقد أشارت الآيات اللاحقة إلى هذا.

(١) رواه البخاري، برقم ٣.

- أهمية قيام الليل لصفاء النفس وتقوية الصلة بالله تعالى، والإعداد لمواجهة الشدائد والعقبات التي تكون في طريق الداعية.
- الأكمل في قراءة القرآن أن تكون مرتلة مجودة محسنة متقنة، بتأن وتمهل، وحضور قلب، وتفكر في المعاني، واستشعار عظمة قائل هذا الكلام، ليحصل الانتفاع منها، ويعظم الأجر بها.
- الأمر بتلاوة الآيات يدل على أهمية التلاوة ودورها الكبير في تقوية الإيمان، وإعداد شخصية القارئ، وتهذيب سلوكه وأحواله.
- وُصفت الآيات بأنها قول ثقيل وذلك لأنها كلام الله الخالق العظيم، ولما حوته من المعاني الغزيرة، والتشريعات السليمة ومحاسن الأخلاق، وقصص السابقين، والتعريف بالله تعالى وصفاته وأركان الإيمان، وكل ذلك بنظم معجز وأسلوب عجيب لا يمكن لأحد الإتيان بمثله.
- ترشد هذه الآيات الكريمة المسلم إلى فضيلة المحافظة على ذكر الله في أوقاته كلها، وعدم الانشغال عن الذكر أثناء القيام بأعمال الدنيا ومعاشها ليبقى القلب موصولاً بالله في جميع الأحوال والأوقات.
- الأمور العظيمة بحاجة إلى تهيئة وإعداد، ومن أعظم الأمور حمل الرسالة ونشر الدعوة إلى الحق والخير، وقد قام الرسول ﷺ والسابقون من أصحابه بالاستجابة إلى أمر الله بالتهيئة لما هو قادم بقيام الليل وترتيل الآيات وإدامة الذكر، قالت عائشة رضي الله عنها: «إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا حتى

انتفخت أقدامهم...»^(١)، فصبروا بعد ذلك وتحملوا أعظم المشاق وركبوا الأهوال واستحقوا لذلك نصر الله.

- تضمنت هذه الآيات ذكر ثلاثة تعليقات للأمر بقيام الليل: أولها: أن القيام في الليل أجمع للخاطر وأكثر مواطأة بين القلب واللسان، وثانيها: أنه أثقل على النفس من الطاعة في النهار وبالتالي فهو أكثر تقويماً للنفس وتهذيباً لها، وثالثها: أن في النهار فسحة من الوقت كافية للنوم وقضاء المصالح والشواغل فليكن تفريغ الليل للقيام^(٢).
- في هذه الآيات خمسة أوامر هي: قيام الليل، وترتيل القرآن، وذكر الله، والانقطاع إليه، والتوكل عليه.
- تضمنت هذه الآيات التوجيه إلى حسن تنظيم الوقت، وتقسيم الأعمال، وتوزيع المهام، فلا تداخل ولا تضارب، بل نظام دقيق وتنسيق يريح النفس والآخرين.

القيم:

- قيمة المحافظة على قيام الليل بالذكر والصلاة وتلاوة القرآن.
- قيمة ذكر الله تعالى والالتجاء إليه.
- قيمة تعظيم الله رب المشرق والمغرب.

نشاط: اجتهد أن تحافظ على قيام الليل بشكل دائم ولو كان بمقدار يسير، وفي الحديث قوله ﷺ: «واعلموا أن أحب العمل إلى الله عز وجل

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٤٢٦٩، وابن حبان برقم ٢٥٥١، وقال محققهما: إسناده صحيح.

(٢) الأساس في التفسير ١١/ ٦٢٠٥.

أدومه وإن قل^(١)، وقوله: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل»، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا^(٢).

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١١ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ١٢ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ١٣ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ١٤ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ١٥ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ١٦ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ١٧ السَّمَاءُ مُنْفِطِرٌ بِهِ ١٨ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ١٩ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ٢٠ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٢١﴾

معاني المفردات:

النَّعْمَةُ: التمتع في الدنيا.
أنكالا: قيودا شديدة ثقيلة.
ذا غصة: يعلق في الحلق.
كثيبا مهيلًا: رملا متناثرا.
وبيلًا: شديدا.

المعنى الإجمالي:

واصبر أيها النبي الكريم ﷺ على ما يصيبك من إيذاء وجهالة من قومك، ولا تقابل إساءاتهم بمثلها، بل أعرض عنهم واترك الرد على إيذائهم بمثله واحتمل ذلك في سبيل الله وفي سبيل تبليغ دعوته، واتركهم لي أتولى جزاءهم بما يستحقون، ومعظم هؤلاء المكذبين من المترفين والمتنعمين في

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٤٩٤١ (١١٧/٤١)، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري برقم ١١٢٢، وعبد الله المقصود في الحديث هو ابن عمر رضي الله عنهما.

حياتهم، ولكن مدة التنعم قليلة حيث إنها ستنتهي قريباً بموتهم أو بظهور الإسلام.

وقد أعدّ الله تعالى لهؤلاء المكذبين بالحق قيوداً عظيمة ثقيلة يوثقون بها، ونارا هائلة يصلونها، وطعاماً في جهنم يعلق في حلوقهم ويغصون به، وأصنافاً أخرى من العذاب المؤلم المهين جزاء تكذيبهم بالحق وعدم اتباعه، وسيكون هذا العذاب في اليوم الذي تزلزل فيه الأرض، وتلك فيه الجبال وتتحول إلى رمال هشة ضعيفة.

إن إرسال رسولنا محمد ﷺ إليكم لينذركم ويدعوكم إلى الحق وليكون شاهداً لمن آمن وعلى من كفر ليس بدعاً من الأمر، فقد سبقه إرسال رسل آخرين إلى أقوامهم، ومنهم موسى عليه السلام الذي أرسل إلى فرعون وقومه، ولم يؤمن فرعون بموسى وبما أرسل به، فاستحق الهلاك على ذلك، وكان هلاكه بصورة عنيفة شديدة قاسية، حيث أغرقه الله وجنوده في البحر، وفي ذلك عبرة لمن يخاطب بهذه الآيات.

فاحذروا أيها الناس عقاب الله لكم إن لم تؤمنوا، وسيكون هذا العقاب في يوم القيامة الذي يشيب من هوله الصغار لما يكون فيه من فظائع الأمور ورهيب الأحداث، ومن الأحداث الرهيبة في ذلك اليوم تشقق السماء وتمزقها وتناثر ما فيها من كواكب ونجوم، وهو مشهد مخيف مجلجل، وإن هذا اليوم واقع يقيناً لأن الله أخبر عنه ووعد بحصوله، ووعد الله لا يخلف.

إن ما ورد في هذه الآيات من ذكر العذاب والتوعد به عبرة عظيمة وموعظة ودعوة إلى الإيمان والطاعة، وزجر وردع للخلق عن الكفر والجحود، فليغتنم من شاء هذا التذكير وينتفع من هذه العبرة فيسلك طريق الإيمان ودرب الهدى وسبيل الحق المبين.

استنباطات تربوية ودعوية:

- في أمر النبي ﷺ بترك أمر المشركين وجزائهم إلى الله وعيد عظيم لهم، وترهيب كبير لمن كان له قلب يتعظ ويعي، وتعظيم لمقام النبي الكريم ﷺ وإجلال لقدره.
- لم ترد النعمة بفتح العين في القرآن الكريم إلا هنا وفي سورة الدخان: (٢٧)، وهي في الموضعين في سياق الذم لمن اتصف بها، حيث لم ينتفعوا مما أنعم الله عليهم، وأقبلوا على الملذات وأعرضوا عن الهدى^(١).
- الترف من أبواب الصد عن سبيل الله والإعراض عن دعوته، ولذا كثر ذم المترفين في الآيات كما في قوله تعالى ﴿وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [المؤمنون: ٣٣] ﴿إِلَّا قَالُ مُتْرَفُوهُمْ...﴾ [سبأ: ٣٤، الزخرف: ٢٣].
- في ذكر بعض صور جزاء الكافرين في النار رادع كبير عن الكفر والفسوق والعصيان، فإن شكلا واحدا من أشكال هذا العذاب كاف لتنغيص الحياة وتحويلها إلى عذاب دائم.
- في ذكر إهلاك فرعون بعذاب وبيل مع ما كان عليه من جبروت واستعلاء وظلم وبطش لم يصل طغاة مكة إلى بعضه، تخويف لهم وإعلام بأنهم إن بقوا على حالهم سيلقون مصيرا كمصيره أو أشد.
- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل يذكر أحداث يوم القيامة: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، قال: فذاك يوم يجعل الولدان شيبا»^(٢).

(١) يُنظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٧٠.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٩٤٠.

- قد يؤدي حصول خوف شديد عند الشخص إلى انتشار الشيب في شعره، ولو كان فتى صغيراً.
- من رحمة الله بعباده إعلامهم بأحداث يوم القيامة وأحواله ليستعدوا لها ويتربحوها ولا يفاجئوا بها، ويعدوا لهذا اليوم عدته من الإيمان والعمل الصالح، ومن رحمته سبحانه بهم عدم إلزامهم بالإيمان أو بالكفر وترك المشيئة والاختيار لهم ليكون فعل المرء حاصلًا من ذاته وتابعًا لاختياره، ويكون المرء بذلك مستحقًا للجزاء على ما اختار بمحض إرادته دون إلزام ولا إجبار.

القيم:

- قيمة الصبر والهجر الجميل على أذى أعداء الدين.
 - قيمة استحضار أحوال يوم القيامة.
 - قيمة الثقة بوقوع العذاب بالمكذبين.
- نشاط:** اذكر آية أخرى تشبه الآية (١٣) في هذه السورة، وبين أوجه الشبه والاختلاف بين الآيتين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ، وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ وَ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ وَ مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

معاني المفردات:

لن تحصوه: لن تطبقوا ضبط وقت قيامه .
يضربون في الأرض: يسافرون .

المعنى الإجمالي:

في هذه الآية يخبر الله تعالى عن علمه باستجابة النبي ﷺ وأصحابه للأمر بقيام الليل في أول السورة، وأنهم فعلاً قاموا نحو ثلثيه ونصفه وثلثه، فهو سبحانه العالم بجميع ما يحصل في الكون، ولما كان الاستمرار في قيام الليل وجوباً لا ندباً فيه مشقة عظيمة حصل في هذه الآية تخفيف حكمه من الوجوب إلى الندب في حق المسلمين جميعاً، وبينت الآية أسباب التخفيف، وهي: علم الله أن قيام الليل على وجه الوجوب غير مستطاع، وعلم الله تعالى بحصول العوارض التي تمنع من قيام الليل كالمرض والسفر والجهاد حيث يشق على النفوس القيام في هذه الأحوال .

وهذا التخفيف في الحكم رحمة من الله تعالى بعباده، ومراعاة لظروفهم وأحوالهم، ووجه الله سبحانه بعد ذلك المؤمنين من عباده إلى فعل الطاعات والقربات بأداء الصلاة على وجهها الأتم الأكمل، وإخراج الزكاة إلى مستحقيها، والإكثار من الصدق وعمل الخير في وجوه البر المتعددة، وسيجد كل امرئ لما عمل من طاعة وعمل صالح جزاء أفضل منه وثواباً كبيراً وأجرًا مضاعفاً عند الله الكريم العظيم .

ومن رحمة الله بعباده جميعاً توجيهم إلى الاستغفار وهو طلب المغفرة من الله تعالى، ولا يستغني عن الاستغفار أحد من الخلق، والله سبحانه واسع المغفرة رحيم بعباده .

استنباطات تربوية ودعوية:

- تأخر نزول هذه الآية عن أول السورة سنة كما في الرواية عن عائشة رضي الله عنها: «إن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة»^(١)، أو تأخر نزولها عدة سنوات ونزلت في المدينة كما روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهم^(٢)، والقول الأول أقرب وأشهر، ومما استدل به أصحاب القول الثاني: ذكر الزكاة والقتال في سبيل الله في الآية وهما مما فرض بالمدينة، وردّ عليه أصحاب القول الأول بأن ذكر الزكاة والقتال تمهيد وتهية لفرضهما لاحقاً، أو أن الزكاة فرضت بمكة دون مقادير وتفصيل.
- اختلف العلماء في حكم قيام الليل في حق النبي ﷺ، فذهب فريق إلى بقاء وجوبه في حقه ﷺ دون غيره، وذهب آخرون إلى دخوله في التخفيف من الوجوب إلى الندب^(٣).
- من رحمة الله بعباده التخفيف عنهم في العبادات، ومن ذلك تخفيف وجوب قيام الليل إلى الندب، حيث يشق على الناس القيام كل ليلة لما يعرض لهم من مرض وسفر وقتال ولحاجة أجسامهم إلى الراحة والنوم بعد عناء النهار في طلب الرزق والمعاش^(٤).

(١) رواه مسلم برقم ٧٤٦.

(٢) ممن رواه عنهما النحاس والطبراني، يُنظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٤، وفتح القدير ٤١٧/٥.

(٣) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٤ و٥٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٥٣، والتحرير والتنوير ٢٩/٢٨٥.

- تنص القاعدة الفقهية أن المشقة تجلب التيسير، فلما ثقل على المسلمين وجوب قيام الليل خفف الله عنهم مراعاة لأحوالهم ورحمة منه سبحانه . ٣٢٠
- الاستغفار عبادة عظيمة القدر عالية المقام، وهي مشروعة من الطائع والعاصي، وفي كثير من الأحوال وفي أعقاب العبادات، وبها يستدرك ما عسى أن يقع في الطاعات من تقصير.
- عُلِمَ التخفيف في حكم قيام الليل من قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي أنه لم يعد محددًا بنصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، فيحصل القيام بأي قدر مهما قلّ، ولم يعد واجبًا بل مندوبًا، والمراد بالقراءة في الآية الصلاة، وهو من إطلاق البعض على الكل، وفيه إشارة إلى جواز القيام بتلاوة القرآن والذكر والتسبيح والاستغفار.
- يلحظ في هذه الآية الاعتناء بدقائق الوقت وتفصيله حيث ذكر فيها: ثلث الليل ونصفه وثلثاه، وما هو أدنى منها، وفي هذا دعوة للاعتناء بالوقت والاهتمام به وبأجزائه الدقيقة.
- من كرم الله تعالى وفضله أنه يعطي الأجر الكثير على العمل القليل، فهو أكرم الأكرمين، وعطاؤه سبحانه بغير حساب لمن يستحقه.
- احتوت سورة المزمل على تقسيم بديع للمهمات في اليوم على النحو التالي:
- بدء اليوم بقيام الليل وترتيل القرآن.
- العمل الجاد في النهار.
- الإكثار من ذكر الله والتخلق بالصبر.
- استحضار الاعتبار.

القيم:

- قيمة استذكار نعمة الله تعالى في تقدير الليل والنهار.
- قيمة شكر الله تعالى على نعمة التخفيف والتيسير.
- قيمة الاعتراف بفضل الله تعالى في مضاعفة الأجور.

نشاط: استخرج من أحد كتب اللغة، الأسماء التي أطلقها العرب على أوقات الليل والنهار، وعددها أربعة وعشرون اسمًا، ويدل كلُّ منها على الوقت الذي يتعلق به.

تفسير سورة المدثر

مدخل إلى السورة:

اسمها: المدثر، ولم يعرف لها اسم غيره.

نزولها: مكية، والآيات الخمس في أولها هي ثاني ما نزل، بعد الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله ﴿وَالْجُزْأَ الْفَجْرُ ﴿٥﴾﴾ فحمي الوحي وتتابع»^(١).

عدد آياتها: خمس وخمسون في العدد المدني الثاني والمكي والشامي، وست وخمسون للباقيين^(٢).

مقاصدها:

- دعوة النبي الكريم ﷺ إلى تبليغ الوحي.
- بيان عاقبة من كذب بالرسالة وزعم أن القرآن سحر.

(١) رواه البخاري برقم ٤، ومسلم برقم ١٦١.

(٢) الخلاف في موضعين: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ ترك عدّه المدني الثاني، وعدّه الباقيون، و﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترك عدّه المكي والشامي، وعدّه الباقيون (الميسر، ص ٢٠٦).

- ذكر جانب من عذاب الكفار في النار.
- بيان أسباب دخول النار.

مناسبتها لما قبلها: من أوجه المناسبة بينهما: بدؤهما بنداء النبي ﷺ، وتوجيه أوامره له بعد النداء، وفي كليهما: أمر بالصبر، وبالذكر، ومشاهد من يوم القيامة، وبيان أن القرآن تذكرة^(١)، وتحدثت سورة المزل عن المكذبين بإيجاز فصلته سورة المدثر مع أحدهم، وتمتاز كلتا السورتين بقصر الآيات إلا آية واحدة.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ١ قُمْ فَأَنْذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠﴾

معاني المفردات:

- المدثر: الملتف بثيابه.
- الرجز: الأوثان والآثام.
- الناقور: الصور أو البوق أو القرن.

المعنى الإجمالي:

تبدأ السورة بنداء النبي ﷺ: يا أيها المتغطي بثيابه قم من مضجعك لتنذر الناس وتبشرهم وتعلمهم بما أرسلت به، وخص ربك الذي خلقك وأرسلك بالتكبير، وخص نفسك بتنقيتها مما يسخط الله، وثيابك بتطهيرها من

(١) يُنظر: حقائق الروح والرياحان ٣٠/٣٨٢، والتفسير الموضوعي ٤٥٣/٨.

النجاسات، وابتعد عن الأصنام والأوثان التي تعبد وتعظم من دون الله، وعن كل رجز وقبيح من قول أو فعل، ولا تنظر إلى ما تنفقه من مال وجهد وعلم ودعوة على أنه كثير، بل اجعله في نظر نفسك قليلاً لتشعر دائماً بالحاجة إلى العطاء والعمل.

ومن أجل رضى الله والقرب منه احتمل ما يصيبك من ضر واصبر على ما تسمع وما ترى وما ينزل بك من إيذاء قومك بسبب دعوتك إياهم إلى التوحيد والهدى.

ثم انتقل الحديث إلى الآخرة: فإنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث والقيام، فزع الخلائق واضطربوا وخرجوا من قبورهم وهو يوم شديد قاس على الكافرين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله في الدنيا، أما المؤمنون فيكون يوماً يسيراً عليهم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- أصل المدثر: المتدثر، فأدغمت التاء في الدال، والدثار هي الثياب الظاهرة، ويقابلها: الشعار وهي الثياب التي تلي الجسد.
- نداء النبي ﷺ بالمدثر ملاطفة في الخطاب، وتبيين للحالة التي كان عليها عند حصول النداء له.
- احتوت هذه الآيات مجموعة من الأوامر، أولها: القيام بتبليغ الدعوة وإعلانها للناس، وثانيها: تعظيم الله تعالى وتكبيره، وثالثها: تطهير النفس والثياب، ورابعها: هجر الأوثان، وخامسها: عدم استكثار العطاء والعمل، وسادسها: الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله.
- خطاب النبي ﷺ بهذه الأوامر لأنه أول مكلف في الأمة، وهي تبع له في الالتزام والعمل بها.

- في الأمر بالقيام لتبليغ الدعوة وإنذار المدعويين، إشارة إلى أهمية الدعوة ومكانتها، وفي استجابة الداعي لهذا الأمر بيان لاتباعه أمر ربه المؤدي به إلى الفوز والأجر العظيم، وأول المستجيبين لهذا النداء رسولنا ﷺ فقد بذل واجتهد في الدعوة وحرص على وصولها إلى كل من يمكن أن ينتفع منها، وكان في هذا نعم القدوة لكل داع من بعده.
- تقديم المفعول على الفعل في عدد من هذه الآيات نحو ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ للاختصاص، فلا يكون التكبير لغير الله.
- ورد الأمر بتكبير الله تعالى بعد الأمر بالإنذار لتنبيه النبي ﷺ أن لا يكثر بالكفار، ولا يبالي بهم ولا بتهديدهم وإيذائهم، وأن لا يرهب إلا الله، فإن كل كبير مقهور تحت عظمتة تعالى وكبريائه^(١).
- يرى عدد من المفسرين أن المراد بالأمر بتطهير الثياب: تطهير القلب والنفس، وذلك لأن الثياب كالشيء الملازم للإنسان، فكفي بها عنه، ومثل هذا قول بعضهم: «المجد في ثوبه، والعفة في إزاره»، ولأن الغالب أن من يطهر باطنه فإنه يطهر ظاهره^(٢).
- أمر النبي ﷺ بهجر الأوثان والأصنام وسيئ الأخلاق مع أنه ﷺ كان بعيداً عنها، ليدوم على ذلك البعد ويحافظ عليه، وليعلم أن ما فعله بفطرته حق وصواب.
- في الأمر بعدم استكثار العطاء والعمل حكم كثيرة، منها: الحث على دوام العمل واستمراره، وعدم الاغترار به وبالنفس، ويرى بعض

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٣/ ٤٧٤

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ١٧٠.

المفسرين^(١) أن معنى الآية: لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه، وهذا أمر موجود عند كثير من الناس إذا أهدى غيره أو قدم له خدمة ينتظر منه أكثر منها، وهذا الفعل وإن كان جائزاً غير محرم إلا أنه ليس من مكارم الأخلاق.

- عبرت الآية الكريمة عن النفخ في الصور بالنقر في الناقور، والنقر في اللغة هو: القرع المفضي إلى النقب، والناقور: الصور^(٢)، وفي هذا التعبير إشارة إلى شدة هذا الصوت وعظمه.
- يوم القيامة يسير على المؤمنين، عسير على الكافرين، حيث يجد كل فريق ثمرة وثواب ما قدم، فالمؤمن يسر ويفرح ويكون حسابه يسيراً ومأموله دخول الجنة والاستمتاع بنعيمها، أما الكافر فيحزن ويتألم لعسر الحساب وعلمه بأن مصيره إلى النار وما فيها من عذاب.

القيم:

- قيمة تبليغ الدعوة.
 - قيمة تعظيم الله تعالى بالتكبير والثناء.
 - قيمة اجتناب مسالك الضلال والغواية.
- نشاط:** اذكر آية في غير هذه السورة ورد فيها ذكر التكبير، وبيّن ما بينها وبين الآية (٣) في هذه السورة من أوجه التشابه والاختلاف.

(١) جامع البيان للطبري ١٤٨/٢٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٦٤/٨.

(٢) المفردات للراغب، مادة نقر، ٥٠٣.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝
 ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ
 كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا
 سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقَى وَلَا تُدَّرُ
 ٢٨ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرِ ۝ وَمَا جَعَلْنَا أَحْبَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَكِيَّةً وَمَا جَعَلْنَا عَذَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ
 وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي
 مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۝ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ
 إِذَا أَفْجَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝﴾

معاني المفردات:

صعودًا: عذابًا شاقًا.

فُقُتِلَ: فُلِعِنَ.

بسر: كبح وجهه واسودَّ.

يؤثر: يروى ويتعلم.

سقر: من أسماء جهنم.

لواحة: تغير لون البشرة.

أسفر: أضاء.

لإحدى الكبر: لإحدى الدواهي العظيمة، وهي جهنم.

المعنى الإجمالي:

تبدأ هذه الآيات بالوعيد الشديد لمن اتصف بالصفات التي ستذكر لاحقًا، حيث يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: اترك لي أمر عقاب وجزاء هذا

الكافر الذي كان وقت ولادته وحيدا لا مال له، وجعلت له بعد ذلك مالا وفيرا كثيرا، ورزقته عددا من الأولاد يحضرون معه المحافل والمشاهد، ويأنس بوجودهم حوله، وبلغ من الرفاهية ورغد العيش منزلة عالية، وأصبح أحد كبار قومه، ومع حصول كل هذه النعم له طمع في الزيادة عليها، كلالن تحصل له زيادة على ما أعطي، فهو لا يستحق ذلك لعدم إيمانه بالله ومعاندته للحق مع تبينه له، وسيعذب يوم القيامة في النار عذابا شديدا يرهقه ويذهب قوته، وذلك في مقابل طمعه في زيادة النعيم والرفاهية.

وتذكر الآيات موقفا لهذا الكافر المعاند للحق، وتروي كتب السيرة والتفسير^(١) أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة بعد أن استمع مرة لتلاوة النبي ﷺ وتأثر بها وامتدح ما سمع خاف زعماء قريش أن يسلم وأن يؤثر إسلامه على أهل مكة، فذهب إليه بعضهم وطلبوا منه كلاما واضحا صريحا في شأن القرآن ليكون مقنعا لمن يسمعه، ليقولوه للناس ويصرفوهم عن اتباع الحق، فقال الوليد بعد أن فكّر وتأمل وأمعن النظر مرارا: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده، وما هذا الذي يقوله إلا سحر نقله عمن علّمه إياه، وفي هذه الآيات وصف هذه الحادثة حيث تبين أنه دخل في صراع كبير مع نفسه، وبحث بدأب عن كلام مقنع لمن يسمعه عن هذا القرآن، فأكثر من التفكير وترتيب الأفكار، وترث قبل أن يعلن ما توصل إليه من رأي وكلام في القرآن، وتهرب من إعلان الحق الذي علمه واستقر في قلبه، وهو مستحق لللعن والطرده من رحمة الله على ما فعل، بسبب العناد والجحود، ونتيجة الاضطراب الهائل في نفسه والتفكير الطويل في

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٣/١ و ٢٤٤، وجامع البيان ٢٩/٢٥٦، ومعالن التنزيل للبعوي ١٧٦/٥.

قلب الحقيقة قطب وجهه عابسا، ثم زاد في ذلك العبوس والتهجم حتى توصل إلى ارتضاء ما افتراه.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان ما سيعذب به هذا المعاند المكابر، حيث إنه سيدخل جهنم، وسقر من أسمائها أو إحدى دركاتها، والاستفهام عن سقر للتهويل والتفطيع وزيادة التخويف منها، فما أعلمك حقيقة سقر؟ إنها لا تبقي أحدا ممن يستحق دخولها خارجها ولا تذر لمن دخلها لحما ولا عظما إلا أهلكته وأفنته، ولعظمتها يراها الناس من مسافات بعيدة حيث تلوح لهم وتظهر هيئتها المرعبة.

ويشرف على أمور جهنم من تعذيب وغيره تسعة عشر ملكا أو تسعة عشر صنفا من الملائكة، وجعل الله القائمين على أمور العذاب في النار ملائكة، وجعل في هذا الصنف من الملائكة غلظة وشدة وقدرة كبيرة على التعذيب، وفي الإخبار بعددهم ابتلاء واختبار للخلق أدى إلى تيقن أهل الكتاب من صدق النبي ﷺ لتوافق هذه المعلومة مع ما في الكتب المنزلة من قبل، وأدى إلى زيادة إيمان المؤمنين وتثبيتهم على الحق أكثر فهم يصدقون كل ما يخبر به الله تعالى من أمور الغيب، فإذا وافق ذلك تصديق أهل الكتاب به كان أدعى لتصديقه، أما أهل الكفر والنفاق وضعاف الإيمان فقد استنكروا إعلام الله تعالى عباده بهذه المعلومة وعجبوا من ذلك وقالوا: لماذا يخبرنا الله عن سقر وعن خزنة جهنم وعددهم؟ وكما افترق الناس إلى فئات بسبب هذا الإعلام فإن الله تعالى يعلم من يستحق الهداية فيهديه وييسر له سبلها، ويعلم من يستحق الضلال فيتركه وما أراد بعد أن يبين له الحجج والبراهين.

ثم بين سبحانه أنه وحده يعلم دقائق وتفاصيل كل ما يتعلق بجنوده من الملائكة وغيرهم، من كثرة وقوة وتنوع مهام، وقد أعلم الله تعالى خلقه عن النار وصفاتها وأهوالها ليتذكروا ويعتبروا ويعملوا للنجاة منها، إلا أن فريقاً من الناس لا ينتفع من الذكرى ولا يستجيب للحق، وهذا الفريق يستحق الردع والزجر لما هو فيه.

ثم أقسم سبحانه بالقمر، وهو من الآيات العظمى الدالة على الخالق سبحانه، وأقسم سبحانه بالليل حين ينتهي وقته، وبالصبح الذي يتبع الليل فينشر الضياء والنور في أرجاء الأرض.

إن جهنم وما فيها من أهوال وعذاب شيء هائل كبير جداً، وفي هذا الوصف تخويف وإنذار للبشر جميعاً لينجوا من عذابها وجحيمها، فمن انتفع من هذا النذير تقرب إلى الله بعمل الطاعات وسبق إلى الخيرات وفاز بالجنات، ومن لم ينتفع به وتأخر عن الاستجابة وأقام على الشرك والضلال فهو ممن سيلقى سوء المصير.

استنباطات تربوية ودعوية:

- تشير الآيات الكريمة (١١-١٦) إلى فضيلة القناعة والرضى بالمقدّر، وعدم الإكثار من التطلع إلى زيادة المال، وعدم المبالغة في السعي إلى المنصب والجاه، وإلى التنفير من خُلُق العناد المذموم والمؤدي إلى كثير من المساوئ.

- تبين الآيات الكريمة (١٨-٢٥) ما أصاب الوليد بن المغيرة من حيرة وتردد، حيث تبين أنه فكّر ورتّب في نفسه ماذا يقول عن القرآن كلما يقبل ولا يطابق الحق، وهو مستحق لفعله هذا اللعن والطرده من رحمة

- الله، فما أعجب تقديره، وما أغرب صنيعه، وما أجراه على تبديل الحق والافتراء عليه، وما أعظم عذابه على ذلك .
- تبين الآيات الكريمة عظيم العذاب لمن يقلب الحقائق ويعرض عن الإيمان مع حصول أسبابه ودواعيه، فهذا أعظم جرماً ممن لم يعلم الحق ولم يتبين له الصواب .
 - ورد في هذه الآيات وصف النار بعدد من الأوصاف التي تبين جانباً من هول العذاب وتنوع أنواعه ودرجاته، ليرتدع الناس عن سلوك الطريق المؤدي إليها، ويعملوا جاهدين للفرار من الوقوع فيها .
 - المال الوفير والنعم الكثيرة ليسا دليلاً على محبة الله لمن حصلوا له، فهما ابتلاء واختبار، والفطن من سخر النعم لمرضاة الله، والغافل الضال من كانت حجة عليه .
 - الكبر من أكثر ما يؤدي إلى دخول النار، وهو دليل نقص في تفكير المتصف به، فيعرض له الكبر والغرور على الخلق ظناً منه أنه بهذا يتفوق عليهم ويعلو في المقام، ولا يعلم أن المتكبر مبغوض من الله ومن الخلق، وكما يحتقر من حوله هم يبادلونه الشعور فيحتقرونه، ومن لطيف ما مثّل به حال المتكبر مع غيره أنه كراكب الطائرة يرى الناس على الأرض صغاراً، وهم يرونه صغيراً .
 - من طبيعة الناس أن تتباين مواقفهم وتتعدد اتجاهاتهم وتختلف نظرتهم نحو شيء واحد، وذلك نظراً لاختلاف طبائعهم وتفاوت تقديرهم واتباع فريق منهم الهوى .
 - اختيار اسم ﴿سَقَر﴾ لجحهم في هذه الآيات دون غيره من الأسماء لما فيه من مشاكلة لكثير من آيات هذه السورة في الوزن وفي الحرف الأخير منها .

- من صفات المؤمن الحق المبادرة إلى التصديق والانقياد لما يخبر الله سبحانه ولما يأمر به، ولو لم يعلم الحكمة، فالله أعلم بما شرع وأنزل.
- استقل بعض المشركين عدد خزنة جهنم من الملائكة وأنهم تسعة عشر، فقال أبو الأشد وهو رجل من قريش: يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، وورد قريب منه عن أبي جهل^(١)، وهذا كله دليل غرور وعدم تقدير لعظمة الملائكة الكرام لظنهم أنهم كالبشر ولذا نزل قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

- الإعلام بعدد الملائكة خزنة النار كان فتنة للكافرين، وبقينا للمؤمنين، وآية لأهل الكتاب لموافقته ما في كتبهم، فالشيء الواحد تتنوع نتائجه.

القيم:

- قيمة اليقين بالوعيد الإلهي للمكذابين المعاندين.
 - قيمة الحذر من النار وما فيها من أصناف العذاب.
 - استحضار حكمة الله تعالى في كل شيء.
- نشاط:** استخرج من كتب الحديث النبوي حديثا يبين بعضا من صور تعذيب المشركين في النار.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٢٦٥، ولباب النقول في أسباب النزول ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٢٣.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ إِلَّا أَعْجَبَ الْيَمِينَ ۚ﴾ ^(٣٨) ^(٣٩) فِي جَنَّتٍ يَنْسَاءُ لُونَ ^(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ ^(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ^(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ^(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ^(٤٤) وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ^(٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ^(٤٦) حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ^(٤٧) فَمَا تَفْعَلُهُمُ الشَّفِيعِينَ ^(٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ^(٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ^(٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ^(٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنْشَرَةً ^(٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ^(٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ^(٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ^(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ ۖ﴾ ^(٥٦)

معاني المفردات:

رهينة: محاسبة على عملها.

سللكم: أدخلكم.

نخوض: نشارك.

مستنفرة: هاربة.

قسورة: أسد.

منشرة: مفتوحة غير مطوية.

المعنى الإجمالي:

يخبر سبحانه أنّ الكافرين يؤخّرون ويمنعون عن النعيم يوم القيامة بسبب كفرهم وضلالهم، أما المؤمنون فإنهم يدخلون الجنة ويزال عنهم الرهن والمنع بسبب أعمالهم الحسنة، وفي الجنة يتساءل المؤمنون عن مصير الكافرين حيث لم يروهم معهم في الجنة، فيعلمون أنهم في النار، ويسمح لهم بالحديث معهم، فيسألونهم عن سبب دخولهم النار وحرمانهم من الجنة.

يذكر أهل النار في الجواب أسباب دخولهم النار وهي: عدم أداء العبادات المطلوبة منهم وأهمها الصلاة، وعدم الإحسان إلى المحتاجين، والامتناع

عن إطعام المساكين، وعدم مراقبة النفس وما يصدر عنها من أقوال وأفعال غير لائقة ولا حسنة، والكفر بالله تعالى وعدم التصديق بحصول يوم القيامة، وأنهم بقوا على هذه الحال حتى أتاها الأجل وماتوا على غير الهدى، فاستحقوا دخول النار، ولأنهم لا يستحقون الشفاعة فلن يشفع لهم أحد من عباد الله الصالحين، وعلى افتراض حصول شفاعة أحد لهم فلن تقبل هذه الشفاعة لهم.

وإن مما يُستغرب ابتعادهم وإعراضهم عن القرآن وهدايته وقد كانوا يدعون إليه في الدنيا، ولكنهم كانوا يعرضون عنه إعراضاً شديداً كما تنفر الحمر الوحشية وتفر فزعة إذا رأت أسداً مقبلاً عليها يريد إهلاكها، فتتفرق في كل اتجاه بلا هدف سوى الهرب والنجاة، وهذا النفور من المشركين عن الحق مستغرب جداً، فهم يُدعون إلى الهدى والرشاد لا إلى الهلاك والافتراس، ولكن الوهم الذي في نفوسهم وتمكن الكفر من قلوبهم هيأ لهم ما هيأ.

وقد بلغ من شدة كفر وعناد المشركين طلب حصول كل واحد منهم على كتاب من الله يخاطبه فيه ويطلب منه الإيمان، كلا إن ذلك لن يحصل، فهم ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، ولا يخافون العقاب في ذلك اليوم، ولذلك تجرؤوا على مثل هذا الطلب.

حقاً إن في القرآن ما يغني عن ذلك وعن غيره، فهو كتاب الهداية، وفيه كثير من المواعظ والعبر التي تدعو الخلق إلى الإيمان بالله وإلى العمل الصالح، ولا ينتفع بهذه الآيات إلا من استجاب لأمر الله واهتدى بهداه، وهم الذين شاء الله هدايتهم ونور قلوبهم بسبب إقبالهم عليه وإيمانهم به، وهم يعلمون أنه سبحانه هو العظيم المستحق للعبادة والتقوى، وأنه هو الذي يغفر لهم ما سلف من كفر وذنوب.

استنباطات تربوية ودعوية:

- يؤخذ من هذه الآيات ومن الآيات التي في سورة الأعراف أن أهل الجنة وأهل النار يتحدثون مع بعضهم، وهذا الحديث يزيد أهل الجنة رضى وسعادة وحمدًا لله على ما هم فيه من نعم، ويزيد أهل النار شقاء وحسرة وعذابًا.
- كل إنسان مسؤول عن عمله ومحاسب عليه ومجزى به، ولذا فعلى العاقل أن يحسن العمل ويتقنه ويخلص فيه، ليكون حجة له، وليكون حسابه عليه يسيرًا.
- تشير الآيات إلى أن الكافر يشعر بطول زمن حسابه وأنه محبوس عن غيره في الحساب ومؤخر بسببه، والواقع أن الحساب للجميع سواء، ولكن من كان عمله حسنا فهو فرح مستبشر فيشعر بخفة الوقت وقصره، بخلاف صاحب العمل السيئ فهو متألم وجل يشعر بثقل الوقت وطوله، وكما قيل: «ساعات الفرحة قصيرة، ودقائق الألم طويلة».
- يبلغ العناد والغرور ببعض الناس مبلغًا عظيمًا يوصلهم إلى طلب المستحيل، ومن ذلك طلب المشركين كتبًا يخاطبهم الله بها بأعيانهم وأسمائهم يدعوهم فيها إلى الإيمان به، وكان الرد على هذا الطلب المقرون بالعناد والغرور بعدم استحقاقهم ذلك.
- بيان أكبر الجرائم وهي: ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والخوض في الباطل، وعدم التصديق بالحساب^(١)، ولا يُستدل بهذه الآيات على مخاطبة الكفار بفروع الشريعة^(٢).

(١) أيسر التفاسير ٤ / ٥٨٥.

(٢) يُنظر: التفسير الكبير ٣٠ / ١٨٦، والتحرير والتنوير ٢٩ / ٣٧٢.

- يبين قوله تعالى ﴿وَلَرَّكَ نَظْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ عظم جرم منع المسكين حقه في مال الغني، وأنه سيكون أحد أسباب دخول النار، ولهذا المنع أثر سلبي كبير في المجتمعات والعلاقات بين الأفراد.
- تشبيه هيئة المشركين في هروبهم من الهدى والرسول بالحمير الهاربة فيه احتقار لهم، وإظهار أنهم لا يستخدمون عقولهم، وأنهم يجتمعون على الباطل.
- للإنسان مطلق الحرية في اختيار ما يريد وفي سلوك الطريق الذي يرغب، ولذلك فهو مسؤول عن هذا الاختيار وسيحاسب عليه، ولا يُجبر أحد على الإيمان أو على الكفر.
- آيات الله تعالى تذكرة وعبرة ودعوة إلى الإيمان والخير، وما على المؤمن إلا أن يتبع ويصدق ويسير على وفق هديها.
- الله تعالى أهل لأن يُتَّقَى ويعبد ويعظم، فهو المنعم على خلقه بجلائل النعم ودقائقها، وهو أهل لأن يغفر الذنوب ويعفو ويصفح عن خلقه، فكيف يكفر به الكافرون ويجحده المنكرون!

القيم:

- قيمة الحذر من سلوك سبيل أهل الشقاء.
- قيمة الإحسان بإطعام المحتاجين.
- قيمة اجتناب صحبة صديق سوء.

نشاط: اذكر آية في سورة أخرى تنهى عن حضور مجالس اللهو والباطل، تشبه الآية (٤٥) في هذه السورة، وبين ما بين الآيتين من أوجه التشابه والاختلاف.

تفسير سورة القيامة

مدخل إلى السورة:

أسمائها: سورة القيامة وهو الاسم المشهور لها ووجه التسمية به أنه موضوع السورة الرئيسي، وتسمى سورة ﴿لَا أُقْسِمُ﴾^(١).

نزولها: مكية.

عدد آياتها: تسع وثلاثون لغير الكوفي، وأربعون له^(٢).

مقاصدها:

- إثبات يوم القيامة وذكر بعض أحداثه.
- تأكيد طبيعة النفس البشرية في جوانب: كثرة اللوم، والفرار من مواجهة الحقيقة، وإثارة العاجلة على الآجلة، ونسيان الحساب والجزاء.
- تطمين النبي ﷺ بحفظ القرآن في قلبه.
- عرض حال الإنسان وقت الموت.
- تبين قدرة الله المطلقة وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الأمور.

مناسبتها لما قبلها: من أوجه المناسبة بينهما: حديث كلتا السورتين عن القيامة وأحوال الناس فيها، وعن الكافر الجاحد، وورد في آخر سورة

(١) أسماء سور القرآن الكريم، ص ١٨٥.

(٢) الموضوع المختلف فيه ﴿لَتَعَجَّلَ بِهِ﴾ عدّه الكوفي وحده، وترك عدّه الباقون (الميسر، ص ٢٠٧).

المدثر ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٣] فناسب بدء ما بعدها بالدليل على البعث وتأکید حصوله.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝١ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلْ قَدَرِينَا عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْمَفْرُ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝١٥﴾

معاني المفردات:

لا أقسم: أقسم قسمًا عظيمًا.

اللوامة: كثيرة اللوم.

ليفجر: ليستمر على فعل السوء.

بنانه: أطراف أصابعه.

برق البصر: تحير فزعًا من الهول.

لا وزر: لا ملجأ.

بصيرة: حجة وشاهد.

ألقي معاذيره: أدلى بحججه.

المعنى الإجمالي:

بدأت السورة بالقسم بيوم القيامة وهو يوم البعث والجزاء، وبالقسم بالنفس المؤمنة التي تلوم صاحبها على التقصير والإهمال، و﴿لَا﴾ في بداية

القسم لتأكيد، وجواب القسم محذوف لوضوحه وظهوره، وهو تأكيد البعث والحساب.

وبعد القسم تنتقل الآيات إلى توبيخ منكر البعث والحساب الذي يجزم بأنه لا يمكن أن يعاد جمع عظامه بعد أن تبلى وتفنّى، ويبين سبحانه أنه قادر على أن يعيده كما كان، خلقاً سوياً حتى أدق ما فيه كأطراف الأصابع، وما أشبهها في الدقة وبديع الصنع.

ينكر الكافر البعث ليستمر على ما هو فيه من فجور وضلال وانغماس في الشهوات دون رادع أو زاجر، ولذا يسأل هذا الكافر عن وقت حصول يوم القيامة استهزاءً وتكذيباً به، وترد عليه الآيات بتأكيد حصول البعث، وأنه يبلغ من تأثير أحداث يوم القيامة أن يزيغ بصر الإنسان وينبهر من هول ما يرى، ومن ذلك أن يذهب نور القمر فيصبح مظلماً، وأن يضم إلى الشمس فيصبحان شيئاً واحداً، وعند حصول هذه الأحداث يسأل الإنسان الكافر الفرع من هول ما يرى: أين أجد ملاذاً ومهرباً من هذه الأحداث المروعة؟ ويأتيه الجواب بعدم وجود ملجأ أو مهرب مصحوباً بالردع والزجر عن السؤال وعن طلب الفرار، فهذا يوم البعث والرجوع إلى الله سبحانه للجزاء على الأعمال، حيث مستقر العباد في دار النعيم أو في دار الجحيم.

يُعلم الإنسان أثناء الحساب يوم القيامة بجميع أعماله، أولها وآخرها، عظيمها وحقيرها، حسنها وسيئها، كما يُعلم بما كان يريد عمله أو يجب عليه عمله ولم يعمل به بسبب التسويف والمماطلة أو العجز والكسل، يُعلم الإنسان بكل هذا مع أنه عالم بنفسه، ومع ذلك يحاول الإنكار والتنصل من أعماله السيئة ظناً منه أن ذلك ينفعه، ويخلق الأعذار الواهية ويجادل عن

نفسه بالباطل، ولا ينفعه ذلك لأنه في قرارة نفسه عالم بكذبه ولأن أعضاءه ستشهد عليه بما عمل فلا تبقى له حجة.

استنباطات تربوية ودعوية:

- يفيد دخول لا النافية قبل فعل القسم تأكيده، وهو من أساليب العرب، وفيه إشارة إلى أن الأمر واضح ولا يحتاج إلى قسم^(١).
- جمع سبحانه في القسم بين يوم القيامة والنفس اللوامة لأن المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفس اللوامة، والحكم عليها إلى السعادة أو إلى الشقاء^(٢).
- استخدام صيغة المبالغة في وصف النفس باللوامة لكثرة حصول هذا الأمر من الإنسان وفي ذلك امتداح لمن يكثّر من لوم نفسه على التقصير في حق الله والعزم على المسارعة إلى الخيرات^(٣).
- اللوم الحاصل من الإنسان إما أن يكون لنفسه وإما أن يكون لغيره، وقد يكون إيجابياً وقد يكون سلبياً، فالحاصل أربعة أنواع من اللوم: أن يلوم المرء نفسه على التقصير في الطاعات فهذا محمود، أو يلومها على فعل الخير فهذا مذموم، أو يلوم غيره على التقصير والإساءة فهذا مقبول، وقد يلوم غيره على الإحسان والبر فهذا سيئ.
- نصت الآية الكريمة على قدرة الله تعالى أن يعيد تسوية البنان كما كان، وفيه إشارة إلى ما اكتشفه العلماء أن البصمة التي على أطراف أصابع

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٤٤.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/ ١٩١.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/ ١٩١.

- الـيـدين تميز كل إنسان عن غيره حتى في التوائم المتشابهة، وهذه من أعظم الدلائل على إتقان الخلق وإبداعه.
- الفجور والغرور والرغبة في فعل السوء من صفات الإنسان الكافر المعاند، وعلى المسلم تجنب هذه الصفات الرذيلة.
- في بعض كتب التفسير أن الشمس والقمر بعد أن يجمعا معا يلقيان في النار أو في البحر، تبيكيتاً لمن عبدهما من دون الله فهما مخلوقان كغيرهما لا يملكان مخالفة ما يؤمران به^(١).
- أعيد لفظ الإنسان في هذه الآيات خمس مرات لأن المقام يقتضي توبيخه وتقريره وتسجيل الظلم والجحود عليه^(٢).
- من طبع الإنسان إذا خاف من شيء ما أن يحاول الهرب منه، وكذلك يوم القيامة سيحاول الهرب والفرار، ولكن بلا جدوى، فلا هروب من الحساب والعقاب.
- أعظم شاهد على الإنسان نفسه، وفي هذا أكبر واعظ له أن يستقيم على أمر الله، ويعمل بما يرضيه سبحانه، ليجعل من نفسه شاهداً له لا عليه.
- من طبع الإنسان أن يحاول دفع الضر والأذى عن نفسه باختلاق الحجج والأكاذيب وادعاء أحداث ووقائع، والتنصل من المسؤولية بمحاولة إلقاء التهمة على غيره، وكل هذا لا ينفعه يوم القيامة لأن المحاسب الجبار هو العليم بكل شيء.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٤٠٣، والكشاف للزمخشري ٤/٦٦٠.

(٢) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، ١٥/٢٨١.

القيم:

- قيمة القسم بالعظيم من الأمور.
 - قيمة الإيمان بقدرة الله على البعث وإعادة الخلق.
 - قيمة اليقين بعلم الله الواسع الشامل.
- نشاط:** تتبع من خلال الآيات الكريمة ما سيحصل لكل من الشمس والقمر يوم القيامة.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ (١٩)

معاني المفردات:

- جمعه: تثبيته في صدرك.
- وقرآنه: وقراءته على لسانك.
- فاتبع قرآنه: أنصت لتلاوة جبريل عليه السلام.
- بيانه: تفسيره.

المعنى الإجمالي:

سبب النزول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ﴾ قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۚ﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ ثم إن علينا أن

تقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه»^(١).

انتقلت الآيات الكريمة من الحديث عن يوم القيامة إلى وصف حال النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه وتوجيهات له في هذا الحال.

وتبدأ بنهي النبي ﷺ عن العجلة في ترديد الآيات أثناء نزول جبريل عليه السلام بها عليه، وتلقينه إياها تعجلاً منه ﷺ لحفظها وحرصاً منه على تثبيتها في ذاكرته، فالله تعالى يتعهد له بتثبيت هذه الآيات في قلبه وأن يحفظها فلا ينساها مطلقاً، فإذا قرأ جبريل عليه السلام الآيات فأنصت أيها النبي الكريم ﷺ إليه واستمع لتلاوته حتى ينتهي منها وتكون قد ثبتت في قلبك فاقرأها وقم بتبليغها كما أمرت بذلك.

وكما تعهد سبحانه بحفظ الآيات في قلب نبيه ﷺ تعهد ببيان معناها وتوضيح المراد منها.

استنباطات تربوية ودعوية:

- يلحظ أن هذه الآيات الأربع لا صلة مباشرة لها بسياق الآيات، فهي جمل معترضة جيء بها في ثنايا كلام متصل للإشارة إلى أهمية الموضوع الذي تتحدث عنه، وأنه لا يحتمل التأخير حتى الانتهاء من الحديث فأدخل التنبيه في وسط الكلام للإشعار بأهمية وخطورة الأمر^(٢).

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي باب كيف بدأ الوحي، رقم الحديث: ٣، ومسلم في باب الاستماع للقراءة، رقم الحديث: ١٠٣٢.

ومعنى قوله: «وكان مما يحرك شفثيه» أن من مظاهر هذه الشدة تحريكه شفثيه بكثرة وسرعة خشية أن ينسى.

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي، ٤٠ و ٥١.

- يمكن لمن يتأمل ويتدبر أن يستنبط عدة أوجه من المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها، منها: أن الآيات السابقة تضمنت الإعراض عن آيات الله، وهذه تضمنت المبادرة إليها بحفظها، ومنها: بعد أن بين سبحانه قدرته على جمع العظام ثم ذكر ما يحدث من جمع الشمس والقمر، بين قدرته على جمع القرآن في قلب نبيه محمد ﷺ ووعد بحفظه وبيانه^(١).
- ورد لفظ قرآن في هذه الآيات بمعناه اللغوي وهو: القراءة.
- تدل هذه الآيات على عظيم حرص النبي ﷺ على حفظ الآيات وتثبيتها في قلبه ليقوم بتبليغها على أحسن وجه وأتمه دون نقص ولا تحريف، كما تدل على إكرام الله تعالى له بإعفائه من بذل الجهد والوقت في حفظ الآيات حيث تولى سبحانه تثبيتها له في قلبه دون حاجة إلى معالجة وجهه منه ﷺ.
- نسب الله تعالى قراءة جبريل عليه السلام إليه، وفيه دلالة على عظيم شرف جبريل عليه السلام وعلو منزلته ومقامه.

القيم:

- قيمة الشكر لله تعالى الذي أعان رسولنا الكريم ﷺ على حفظ كتابه العزيز.
- قيمة الحرص على حفظ القرآن الكريم.
- قيمة تعظيم القرآن الكريم واستحضار منزلته العظمى.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/١٩٧، وفتح البيان لصديق حسن خان، ١٠/١٥٤، والتفسير الموضوعي ٨/٤٩٣.

نشاط: ارجع إلى كتب الحديث النبوي واستخرج منها حديثا يبين فضل حفظ القرآن الكريم وفهمه والعمل بما فيه .

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٤﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٥﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٦﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٧﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٨﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٩﴾ وَالْتَفَتِ إِلَىٰ آلِهَا بِالسَّاقِ ﴿١٠﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿١١﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صِلَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمَظِي ﴿١٤﴾ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿١٦﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿١٧﴾ أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً مِّنْ مِّمْنِي يَمْنَىٰ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿١٩﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٢١﴾﴾

معاني المفردات:

- ناضرة: بهية حسنة مشرقة .
- باسرة: عابسة كالحة .
- فاقرة: مصيبة عظيمة .
- التراقي: عظام أعلى الصدر .
- راق: يداوي ويشفي .
- التفت: التوت وتداخلت .
- الفراق: الموت .
- يتمطى: يختال في مشيه تكبرا .
- سدى: مهملاً .
- يمنى: يصل إلى الرحم .
- علقة: قطعة دم جامدة تعلق في الرحم .

المعنى الإجمالي:

رجع الحديث في هذه الآيات إلى يوم القيامة، وتضمن حديثاً عن الموت وعن قدرة الله تعالى، وتبدأ الآيات بالردع والزجر عن إنكار البعث، مع وضوح دلائله، وكثرة حججه، ومما يحمل الناس على ذلك التعلق بالدنيا وملذاتها وشهواتها مما يؤدي إلى نسيان الآخرة وعدم العمل لها، والخطاب في الآيتين للكفار.

ثم بين سبحانه جانباً من حال السعداء والأشقياء يوم القيامة، فذكر أن وجوه أهل السعادة والنعيم مشرقة تظهر عليها النضارة والبهاء وهي تنظر إلى ربها ذي الجلال والجمال والكمال، فتنعم بذلك غاية النعيم، ورؤية الله تعالى في الجنة أعظم النعم، ووجوه أهل الشقاء مظلمة عابسة، مكفهرة، فهي تترقب قبل دخول النار عذاباً عظيماً يصيبها وداهية كبرى تقصم فقار الظهر.

ثم انتقل الحديث إلى حال الإنسان عند الموت، وتبدأ الآيات بالردع والزجر عن إثارة الدنيا على الآخرة، ثم تخبر بأن الروح إذا بلغت عظام الترقوة، وهي العظام المحيطة بثغرة النحر أي أسفل الرقبة وأعلى الصدر، بدأ من حول المحتضر يسألون عن طبيب يعالجه ويشفيه ظناً منهم بإمكان ذلك، وأنه لم يحضر أجله بعد، وتيقن هو من حصول الأجل ومفارقة الدنيا وما فيها، وظهرت عليه علامات الموت ومنها التواء والتفاف إحدى ساقيه على الأخرى وعدم قدرته على تحريكهما لأن الموت دب فيهما.

ويوم القيامة يساق الخلق جميعاً ويحشرون إلى الله تعالى حيث يحاسب كلا منهم على عمله ويقضي بينهم بحكمه.

ثم انتقلت الآيات إلى الحديث عن الكافر الجاحد بآيات الله تعالى، وفيها ذم من كفر بالله تعالى فلم يصدق بالقرآن ولم يستجب لأمر الله بأداء الطاعات ومنها الصلاة واستمر في تكذيب الحق والإعراض عنه والتولي عن الاستجابة، وزاد على ذلك التكبر والغرور والتطاول على الآخرين، وتتعد الآيات هذا الكافر المتمرد المختال بعذاب شديد وعقاب أليم يتنامى ويزداد ويتضاعف جزاء كفره وعناده.

وتؤكد خاتمة السورة - كما أكدت فاتحتها - البعث من خلال الرد على الكافر الذي يظن أنه خلق عبثاً وأنه لا بعث ولا نشور بعد الموت ولا حساب ولا جزاء على الأعمال، والدليل على البعث ما ذكر في الآيات التالية: بدءاً من تبين أصل خلق الإنسان، حيث يبدأ تكوين الجنين من التقاء نطفة الرجل ببويضة المرأة، وتخصيبها، فتتمو حتى تصبح علقة في جدار الرحم ثم يتكامل خلق الإنسان ويولد سوياً خالياً من العيوب والآفات، واقتضت حكمة الله أن يجعل البشر من نوعين ذكر وأنثى، إن من خلق الإنسان من ماء حقير قليل يراق في الرحم قادر بلا ريب على إعادة خلقه بعد الموت، فإن إعادة في عرف الناس أهون من الإنشاء، فمن أنشأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى.

استنباطات تربوية ودعوية:

- ذم سبحانه المتعلقين بالدنيا ومحبيها والناسين للآخرة، فكل همهم الدنيا والإكثار من جمع متاعها دون مبالاة بظلم أو غش أو كذب، وفي هذا تنفير من سلوك هذا الدرب الخاطيء الأثيم.
- حال كثير من الناس العجلة في الأمور والرغبة في قضاء المصالح بأسرع ما يكون، ولا تُحمد العجلة في كثير من الحالات، وقد قال ﷺ: «التأني

من الله والعجلة من الشيطان»^(١) وقيل: لا تحمد العجلة إلا في إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب^(٢)، وقال القطامي^(٣):

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

- ورد في إثبات رؤية الله تعالى للمؤمنين في الجنة أحاديث عديدة، منها عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب؟ قالوا لا يا رسول الله، قال: فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك»^(٤).

- المذهب الحق أن رؤية الله تعالى في الدنيا غير ممكنة لأحد من الخلق، ورؤيته في الآخرة مقصورة على أهل الجنة إكراماً لهم ورفعاً لشأنهم وزيادة في ثوابهم، أما القول بإمكان رؤيته في الدنيا، والقول باستحالتها في الآخرة فلا يصحان، لمعارضتهما الصريح من الآيات والصحيح من الروايات.

- ورد في الآية الكريمة التعبير عن الشخص بالوجه، وهو من المجاز المرسل وعلاقته الجزئية، وذلك لأن الوجه محل الإدراك ومجمع

(١) الحديث مروي في عدد من دواوين السنة، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٧٩٥ (٤/٤٠٤) وقال: حديث حسن.

(٢) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء عن حاتم الأصم ٧٨/٨.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص ١٥٤.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم الحديث: ٨٠٦، ومسلم في كتاب الإيمان باب رؤية المؤمنين ربهم سبحانه، رقم الحديث: ٤٦٩.

محاسن المرء، ومنه يتميز المرء عن غيره، وبين قوله تعالى ﴿نَاطِرَةً﴾ وقوله ﴿بَاسِرَةً﴾ طباق^(١).

- في قوله تعالى ﴿إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ﴾ دليل على أن الروح تخرج من الجسد بتدرج حتى يتكامل خروجها منه وتحصل حينئذ الوفاة^(٢).
- ذكر بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أنه كناية عن اجتماع شدة مفارقة الدنيا مع شدة الموت وكرهه^(٣).
- أصل يتمطى: يتمطط وأبدلت الطاء ألfa للتخفيف أو هي من المطا وهو الظهر ومنه المطيئة للدابة، والتمطي: التبخر في المشي تكبراً، وقد ورد ذمه في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»^(٤)، وعن خولة بنت قيس أن النبي ﷺ قال: «إذا مشت أمتي المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم، سلط بعضهم على بعض»^(٥).
- ذكر عدد من المفسرين «أن رسول الله ﷺ أخذ بيد أبي جهل وقال له ﴿أَوَلَيْكَ فَاوَلَى﴾ فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني؟ لا تستطيع أنت ولا ربك

(١) وفي السورة طباق بين ﴿فَنَمَّ﴾ و﴿وَأَخَّرَ﴾ وبين ﴿صَدَقَ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾، وجناس ناقص بين ﴿بَنَانُهُ﴾ و﴿بَيَانُهُ﴾، وبين ﴿السَّاقُ﴾ و﴿الْمَسَاقُ﴾. صفوة التفاسير ٣/ ٤٦٤.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/ ٢٩٠٤، وهذا التدرج قد يكون بطيئاً ملحوظاً في حالات، وقد يكون سريعاً لا يُشعر به في حالات كالقتل والغرق ونحوهما.

(٣) جامع البيان للطبري، ٢٩/ ١٩٥.

(٤) رواه أحمد في المسند برقم ٥٣٤٠ وقال محققه: صحيح.

(٥) رواه ابن حبان برقم ٧٦١٦ (١٥/ ١١٢)، وهو صحيح.

أن تفعلوا بي شيئاً، وإني لأعز أهل هذا الوادي، ثم انسلّ ذاهباً فأنزل الله كما قال له رسول الله ﷺ^(١).

- بدأت السورة واختتمت بتأكيد حصول البعث، وردّت على منكره عدة مرات كل ذلك بأسلوب غاية في القوة والزجر.
- عن موسى بن أبي عائشة قال: «كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ ﴿لَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك، فبلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ^(٢).

القيم:

- قيمة الحذر من الموت على حين غفلة.
 - قيمة استشعار الضعف والعجز عن ردّ الموت إذا حضر وقته.
 - قيمة ترك الكبر والاغترار بالنفس.
 - قيمة استشعار نعم الله ومنها نعمة الخلق.
- نشاط:** اذكر آية أخرى تشبه الآية (٤٠) في مضمونها، وبيّن ما بين الآيتين من أوجه التشابه والاختلاف.

(١) الهداية لمكي ٧٨٩٥/١٢، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠٦/٣٠، والصحيح المسبور ٥٦٩/٤.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، رقم الحديث: ٨٨٤، وقال أبو داود بعد الحديث: قال أحمد: يعجبني في الفريضة أن يدعو بما في القرآن، والحديث صحيح.

تفسير سورة الإنسان

مدخل إلى السورة:

أسمائها: سورة الإنسان هو أشهر أسمائها، وتسمى سورة: ﴿هَلْ أَتَى﴾ و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ وسورة الدهر، والأبرار، والأمشاج^(١).

نزولها: مكية في قول جمهور العلماء، وهو الذي تعضده الروايات، ويناسبه موضوع السورة ووجود خصائص الآيات المكية فيها، وقيل: هي مدنية، وقيل بعض آياتها مدني، وكلاهما لم يصح^(٢).

فضلها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ﴿الْمَ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١ - ٢] السجدة و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾^(٣).

عدد آياتها: إحدى وثلاثون آية.

مقاصدها:

- بيان أصل خلق الإنسان.
- عرض جانب من نعيم أهل الجنة فيها، ومنها أمور لم تذكر في غير هذه السورة.
- التذكير بعمل بعض العبادات: كالصبر والذكر والسجود.

(١) أسماء سور القرآن الكريم لمحمد الشايع، ص ١٨٦ و ١٨٧.

(٢) المكي والمدني من السور والآيات، ص ٤٧٢-٤٧٨.

(٣) رواه البخاري في كتاب الجمعة باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، رقم الحديث: ٨٩١، ومسلم في كتاب الجمعة باب ما يقرأ في يوم الجمعة، رقم الحديث: ٢٠٦٨.

- بيان بعض الأعمال التي تؤدي إلى دخول الجنة من خلال الحديث عن أهل الجنة.
- بيان وظيفة القرآن وأنه تذكرة.

مناسبتها لما قبلها: تعدّ سورة الإنسان مكملّة لسورة القيامة، فسورة القيامة أكدت حصول اليوم الآخر، وسورة الإنسان بينت ما يكون في هذا اليوم، وما أعد الله فيه لنوعي الناس: الكفار والأبرار، كما أنها تذكر الطريق للنجاة يوم القيامة، وبهذا تتكامل السورتان^(١)، ومن أوجه المناسبة بين السورتين: حديثهما عن نزول القرآن، وعن نشأة الإنسان ومصيره، وفي سورة الإنسان تفصيل ما في سورة القيامة من حديث عن نعيم أهل الجنة.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ۝ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾

معاني المفردات:

الدهر: الزمن.

أمشاج: مختلط.

المعنى الإجمالي:

قد مر على الكون مدد متطاولة من الأزمان وهو خال من وجود جنس الإنسان، وذلك قبل خلق هذا المخلوق فلم يكن معلومًا ولا موجودًا، فالاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾ للتقرير.

(١) الأساس في التفسير لسعيد حوى ١١/ ٦٣٠٥.

ثم خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وجعل لهذا الخلق مراحل تبدأ من النطفة وهي الماء القليل المحتقر، إذا استقرت في الرحم والتقت بالبويضة واختلطت بها، إلى أن يتكامل خلق الإنسان فيولد مخلوقاً سوياً يسمع ويرى، والحكمة من الخلق هي الابتلاء والاختبار.

وبعد أن أعلم تعالى بالحكمة من الخلق وهي الابتلاء أعلمهم بأنه يسر لهم سبل الهداية الموصلة إلى التوحيد والطاعة، يهدي بها أناس فيحمدون الله ويشكرونه، ويضل عنها آخرون فيكفرون بالله سبحانه.

استنباطات تربوية ودعوية:

- في افتتاح السورة بالاستفهام تحفيز للقارئ والسماع أن يتأمل السؤال ويفكر في جوابه الصحيح.
- في إعلام الإنسان أنه مخلوق طارئ على الكون فوائد عديدة، منها: أن يعلم أن له خالقاً عظيماً يستحق العبادة، وأن يعرف قدره بين سائر المخلوقات فيتواضع ويتعد عن الغرور.
- ورد إعلام الإنسان بالحكمة من خلقه في ثنايا الحديث عن بدء الخلق ليستشعر الإنسان دوره في الحياة وليعلم خطورة منزلته عند مولاه، فيعمل بما يقوده إلى السعادة والنجاة.
- الابتلاء ملازم للإنسان في حياته من لحظة ولادته إلى وفاته، وللابتلاء صور ودرجات كثيرة، وعلى المؤمن أن يتعامل مع كل ابتلاء بما يناسبه من صبر أو شكر أو حسن تدبير، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: «إن من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم لذين يلونهم»^(١).

(١) رواه أحمد في المسند، برقم ٢٧٠٧٩ (١٠/٤٥)، وهو حديث صحيح لغيره.

- من رحمة الله بعباده أن أقام لهم دلائل الهداية، وبيّن لهم سبيل التوحيد والطاعة، وهي ظاهرة في الأنفس والآفاق، وسائر المخلوقات.
- ورد في الآية الكريمة ﴿كُفُورًا﴾ بصيغة المبالغة إنكارًا لكثرة حصول الكفر من الإنسان مع أن دلائل الهداية تحيط به من كل جهة ويشعر بها في كل وقت.

القيم:

- قيمة الانتباه للوقت في حياة الإنسان.
 - قيمة إدراك نعم الله ومنها السمع والبصر.
 - قيمة القدرة على اختيار طريق الحق أو الباطل.
 - قيمة الحذر من مخالفة أمر الله تعالى.
- نشاط:** اذكر آية أخرى فيها فضل شكر الله تعالى على نعمه، وبيّن ما بينها وبين الآية (٣) في هذه السورة من أوجه التشابه والاختلاف.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَغُلًّا وَسَعِيرًا﴾ ١ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٢ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ٣ يُوفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ٤ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينَتِهِمْ وَيَسِيرًا ٥ إِنَّمَا نُطْعِمُهُمْ لَوْ جَهِ اللَّهُ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ٦ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ٧ فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ٨ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ٩ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ١٠ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا ١١ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ١٢ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ١٣ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ١٤ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ١٥ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنُّنَا فُجْدُونَ إِذَا

رَأَيْتُمْ حَسْبَئِهِمْ لَوْلَا مَنُورُهَا ۚ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرَهَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۚ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۚ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَلَهُمُ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا ۚ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ۚ

معاني المفردات:

- أغلالاً: قيوداً.
- كافوراً: نباتاً به رائحة طيبة.
- يفجّرونها: يُجرونها حيث شاؤوا.
- مستطيراً: منتشراً.
- عبوساً: تعبس فيه وجوه الأشقياء.
- قمطيراً: شديداً.
- زمهريراً: برداً شديداً.
- قواريراً: صافية كالزجاج.
- مخلدون: لا يهرمون.
- ثمّ: هناك.
- سندس: ما رق ما ثياب الحرير.
- إستبرق: ما سُمك من ثياب الحرير.

المعنى الإجمالي:

بعد أن ذكرت الآيات انقسام الناس إلى مؤمن وكافر، ذكرت جزاء كل فريق منهم، بإيجاز في جزاء الكافرين وتوسع في جزاء المؤمنين.

فقد هيا الله سبحانه للكافرين به صوراً متعددة من العذاب، منها أنهم يقيدون في السلاسل وتشد أيديهم إلى رقابهم إمعاناً في تعذيبهم وإهانتهم ويقاسون مع ذلك حر النار التي تحيط بهم من كل جانب.

ثم انتقل الحديث عن جزاء أهل الجنة بوصفهم بالأبرار، وفيه إشارة إلى السبب الذي استحقوا من أجله هذا النعيم، ومن صور النعيم في الجنة، أنهم يشربون الخمر ممزوجة بالكافور فيضفي على الشراب طيب الطعم والرائحة، ويتدفق من عين في الجنة كما يتدفق الماء، وهم يتلذذون بهذا الشراب ويستمتعون به، ويمكنهم تحويل مجرى العين إلى حيث شاؤوا زيادة في إمتاعهم.

وذكرت الآيات من الأعمال الصالحة التي كان الأبرار يعملونها في الدنيا واستحقوا بها دخول الجنة: الوفاء بالنذر، وهو ما يلزم الإنسان به نفسه من طاعة، زيادة على ما افترض عليه، والخوف من العذاب يوم القيامة وهو اليوم الذي تعظم أهواله وتعم جميع الخلائق.

ومن أعمالهم الصالحة: إطعام المحتاجين مما يأكلون ومما يرغبون من أنواع الطعام، والمحتاجون أصناف فمنهم المسكين الذي لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله، واليتيم الذي فقد أباه فحرم من عطفه وعطائه، والأسير الذي فقد حريته ووقع في أيدي أعدائه، وبين هؤلاء الأبرار الهدف من الإطعام الذي يقدم للمحتاجين وهو نيل رضى الله سبحانه، فلا يبتغون من ذلك ردًا لهذا الجميل ممن يقدمونه له، ولا يطلبون منهم شكرهم عليه، فهو عمل خالص لوجه الله تعالى، ابتغاء رضوانه وخوفًا من عقابه يوم القيامة، وهو يوم شديد عظيم الأهوال فظيع الأحداث، تعبس فيه الوجوه خوفًا من العقاب وتأثرًا بما ترى من أهوال.

ثم أخبر الله سبحانه أنه تقبل العمل الصالح من هؤلاء الأبرار، فحفظهم من شدائد يوم القيامة وأمنهم من الفزع فيه، وأنعم عليهم بإعطائهم نصارة

وحسنًا في وجوههم وسعادة وسرورًا في قلوبهم، وأدخلهم مقابل صبرهم ومكابدتهم الجنة دار النعيم المقيم، يلبسون فيها ثياب الحرير متنعمين مترفين.

ومن نعيم أهل الجنة جلوسهم على هيئة الاتكاء حيث هيئت لهم الأماكن المناسبة لذلك من السرر والوسائد، ومن زيادة النعيم اعتدال الجو حولهم فلا يعانون فيها من إزعاج شدة الحر أو شدة البرد، ومع عدم وجود شمس في الجنة فهي مضيئة لأهلها بشكل دائم.

ومن زيادة تكريم أهل الجنة إثناء ظل الأشجار منهم، وتقريب ثمارها إليهم حتى لا يبذلوا جهدًا في تناولها وليكونوا في غاية الترف والنعيم، ويقوم الخدم في الجنة بالمرور على أهلها بأواني الطعام الفضية وأكواب الشراب التي تجمع بين نقاء وصفاء الزجاج وبياض الفضة ولمعانها، وكمية الشراب في هذه الأكواب مناسبة لحاجة الشاربين، بحيث لا يزيد فيها شيء يفضل ويبقى بعد شربهم، ولا تنقص عن حاجتهم فيحتاجون زيادة عليها، وفي مرور الخدم على أهل الجنة تكريم لهم فلا يحتاج أحدهم إلى الانتقال إليه حيث يأتيه كل ما يريد وهو في مكانه.

ويسقى أهل الجنة خمراً ممزوجاً بالزنجبيل لتصبح رائحته أطيب وطعمه ألذ، ويقدم لهم في كؤوس ممتلئة، ويشرب أهل الجنة من عين فيها اسمها: سلسبيل، وتدل هذه التسمية على عذوبة الماء وسهولة جريانه في الحلق.

ووصف خدم أهل الجنة بأنهم غلمان في مقتبل العمر، دائمو النظارة فلا يهرمون ولا يتغير حالهم، هيئتهم في قيامهم وحركتهم كاللؤلؤ المتناثر من

روعة جمالهم وحسن حالهم، وشبهوا باللؤلؤ المنثور لأن اللؤلؤ إذا تفرق انعكست أشعة بعضه على بعض فيكون أجمل وأروع، وإذا كان هذا حال الخدم فكيف يكون حال المخدومين؟

كل ما في الجنة نعيم دائم، وما يتمتع به أهل الجنة ملك لهم، وإذا رأيت ما في الجنة من نعيم تبين لك عظمته وكثرته وتنوعه، وملك المؤمن في الجنة كبير يزيد ملك أقلهم درجة عن عشرة أضعاف مساحة الدنيا^(١)، فكيف بأصحاب الدرجات العلى؟

ويلبس أهل الجنة ثيابا من الحرير الرقيق أخضر اللون تعلوه طبقة أو طبقات أخرى من الحرير الثخين والمزركش، ويحلى أهل الجنة بأساور من فضة لتكميل زينتهم وزيادة جمالهم، ويمنّ الله سبحانه عليهم بشراب بالغ الطهارة، يطهر أجسامهم وقلوبهم.

كل هذا النعيم لأهل الجنة جزاء إيمانهم وطاعتهم لله في المنشط والمكره ومكابدتهم في الدنيا وهم يستحقون الشكر على ما بذلوا وضحوا وعملوا وتحملوا، وما أعظمه من جزاء وما أروع من شكر.

استنباطات تربوية ودعوية:

- بدأت هذه الآيات بذكر مآل الكافرين ولم تفصل فيه، وأتبعته بذكر نعيم الأبرار مفصلاً، والحكمة من تقديم الوعيد لأن تصوير الإنذار أهم وأنفع، وإتباعه بالتبشير أحسن وأوقع^(٢).

(١) سيأتي ذكر الحديث المبين لهذا في الاستنباطات.

(٢) المقتطف من عيون التفاسير للمنصوري ٣٨٢/٥.

- ذكرت الآيات خلط شراب الجنة بالكافور وبالزنجبيل وكلاهما يعطي الشراب نكهة حسنة ورائحة طيبة، والناس تفضل من الشراب والطعام ما كان ممزوجاً من نوعين أو أكثر، ولا ريب أن ما في الجنة من كافور وزنجبيل يخلو مما في هذين الصنفين في الدنيا من أقدار وصفات سلبية.
- النذر: هو التزام المرء القيام بطاعة زيادة عن الفريضة، وهو نوعان: النوع الأول بلا مقابل وهو مستحب، والنوع الثاني يكون فيه العمل الصالح في مقابل أمر كشفاء مريض أو انفراج كرب أو حصول مأمول، وهذا النوع مكروه لما فيه من اشتراط حصول نعمة في مقابل القيام بعمل صالح، ولذا نهى عنه رسول الله ﷺ وقال: «إنه لا يرد شيئاً وإنما يستخرج به من البخيل»^(١).
- جواز إظهار نية العمل الصالح وإظهار العمل نفسه إذا كان بقصد أن يقتدى به.
- فضيلة الجمع بين العمل الصالح والكلمة الطيبة والبشاشة في وجه المحتاج.
- لا ينبغي أن يحمل عمل الخير المرء على الإعجاب بنفسه.
- مشروعية الإحسان إلى الأسير، كما يُحسن إلى سائر المحتاجين.
- وصفت أحداث يوم القيامة في آيتين في هذه السورة بالشرّ، وذلك في قوله تعالى ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ وفي قوله تعالى ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾

(١) رواه البخاري في كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، رقم الحديث: ٦٦٠٨، ومسلم في كتاب النذر، باب النهي عن النذر، رقم الحديث: ٣٤٢٥.

والمقصود بالشر فيهما الشدائد والأحوال التي تحصل فيه، وسميت شرا من باب التوسع^(١).

- ذكرت هذه الآيات صوراً عديدة من نعيم أهل الجنة تضمنت أصناف الطعام والشراب واللباس كما ذكرت هيئة جلوسهم وارتكائهم ووصف الجو المحيط بهم ووصف الأشجار والثمار وهيئة من يخدمهم ويطوف عليهم، كل هذا من باب زيادة الترغيب في العمل للوصول إليها.

- ذكرت هذه الآيات الكأس ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ والكوب ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَازِيرًا﴾ والفرق بينهما أن الكأس ما كان فيه شراب، والكوب قدح بلا عروة أي بلا يد لحمله^(٢).

- وصفت أساور أهل الجنة في هذه الآيات بأنها من فضة، ووصفت في سورة الكهف بأنها من ذهب، ووصفت في سورة فاطر بأنها من ذهب ولؤلؤ، ويجمع بينها بأنهم يحلون بصنف تارة، وبصنف آخر تارة أخرى، وقد يجمعون بين صنفين أو أكثر.

- لم يطلب الأبرار من الخلق جزاء ولا شكوراً ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ فمن الله عليهم جزاءً وشكراً مقابل ذلك ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

- خاف أهل الإيمان في الدنيا، فأمنهم الله يوم القيامة، فإن من عدل الله سبحانه أن لا يجمع على عباده بين خوفين، وفي الحديث عن أبي هريرة

(١) التفسير الكبير للفيخر الرازي ٣٠ / ٢٤٧.

(٢) مختار الصحاح، ولسان العرب، مادة كأس وكوب.

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم سبحانه: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمني، فمن خافني في الدنيا أمنت في الآخرة، ومن أمني في الدنيا أخفته في الآخرة»^(١).

- مما يدل على سعة ملك أصحاب الجنة ما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجل يخرج من النار كبوا، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: تسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يقول: «ذاك أدنى أهل الجنة منزلة»^(٢).

- في تشبيه خدم أهل الجنة باللولؤ المنثور إشارة إلى حركتهم الدائبة في الخدمة فهم في جيئة وذهاب وحركة دائبة، كما أن اللؤلؤ إذا كان منثوراً ظهر جماله أكثر.

- ذكرت الآية الكريمة أن لون لباس أهل الجنة هو الأخضر، وهو اللون الذي ترتاح له النفوس وترغبه وتألفه وتأنس به أكثر من سائر الألوان.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٦٤٠ (٤٠٦/٢) وهو حديث حسن.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم الحديث: ٦٥٧١، ومسلم في كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، رقم الحديث: ٤٧٩.

- بدأت هذه الآيات بذكر شراب أهل الجنة وختمت به، لأنه أروع ما يتلذذ به ولشدة حاجة الإنسان إليه وكثرة تلهفه عليه وعدم صبره على فقدته كما يصبر على فقدان الطعام.

القيم:

- قيمة التعرف على واجب المرء نحو مجتمعه.
- قيمة مخافة الله ومراقبته في كل صغيرة وكبيرة من أعمالنا.
- قيمة المكافأة لمن كان سعيه وعمله على منهج الله تعالى وما يرضيه سبحانه.

نشاط: ارجع إلى كتب الحديث النبوي واستخرج منها حديثاً يبين نعم أهل الجنة فيها، وبيّن أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين هذه الآيات الكريمة.



﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ٢٣ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ٢٤
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ
الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ٢٧ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ
تَبْدِيلًا ٢٨ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اخْذِلْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٣١ ﴾

معاني المفردات:

- بكرة: أول النهار.
- أصيلًا: آخر النهار.
- أسرهم: خلقهم.

المعنى الإجمالي:

يخبر سبحانه أنه أنزل القرآن الكريم على نبيه محمد ﷺ مفرقاً، وذلك لحكم سامية وأهداف عظيمة، والقرآن منزل لهداية البشرية وإسعادها إلا أن أقواماً كفروا به، فاصبر أيها الرسول على كفرهم واحتمل أذاهم، ولا تستجب لما يدعوك إليه من ترك الدعوة أو التنازل عن بعض الثوابت من كان منهم غارقاً في الإثم أو موغلاً في الكفر والعناد، واملاً وقتك بذكر الله تعالى والتقرب إليه بالأعمال الصالحات، وخص الليل بمزيد من الطاعة والتقرب، فأكثر فيه من التسبيح والسجود فإنه مظنة حضور القلب والخشوع وإجابة الدعاء، ولا تأبه لمن كذبك وكفر بك، فإنهم منغمسون بتفضيل الدنيا على الآخرة، غير مباليين ولا مؤمنين باليوم الآخر، وهو يوم ثقیل لما فيه من أحداث عظام وأهوال جسام وهم غافلون عن خالقهم الذي أوجدهم من العدم بقدرته وأحسن خلقهم ومكنهم من مزاولة الأعمال، وهو القادر سبحانه على إهلاكهم وتبديلهم بخلق آخرين يطيعونه إن شاء ذلك إلا أن حكمته اقتضت أن يمهل خلقه ولا يعجل بالعقوبة.

إن هذه الآيات المنزلة على الرسول الكريم فيها تذكرة وموعظة للخلق أجمعين، فمن أراد سلوك طريق الخير والهداية أخذ بالأسباب الموصلة إليه وأطاع ربه واستجاب لأمره، وهذه المشيئة لا يمكن أن تصدر من الإنسان إلا أن يشاء الله ذلك فهو سبحانه الخالق ومقدر الأمور في هذا الكون، وكل مشيئة من الخلق تابعة لمشيئته المطلقة، وقد سبقت مشيئة الله سبحانه بدعوة عباده إلى طاعته والتقرب إليه، وهو سبحانه عليم بأحوال عباده حكيم في تقديره وأمره.

يُدخل سبحانه في رحمته وجنته من يستحق ذلك، وهم المؤمنون من عباده، أما الظالمون فقد أعد لهم عذاباً أليماً يستحقونه جزاء على فعلهم.

استنباطات تربوية ودعوية:

- لنزول القرآن الكريم مفرقاً منجماً حِكَمَ عديدة منها: تثبيت قلب النبي ﷺ، والتدرج في تعليم القرآن، وتربية الصحابة، وموافقة الحوادث والوقائع.
- تعلمنا هذه الآيات الكريمة أن مقاومة ما يحصل من أعداء هذا الدين من إلهاء وصد عن سبيل الله لا ينبغي أن يشغل عن الذكر والعبادة، وأن الثبات على الحق من أهم ما ينبغي على المؤمن التمسك به في مواجهة عواصف الفتن.
- في قوله تعالى ﴿وَلَا تَطْغَوْا مِنْهُمَ إِثْمًا أَوْ كُفُورًا﴾ جمع بين الآثم والكفور، والفرق بينهما أن الآثم هو المقدم على المعاصي أيًا كانت، والكفور هو الجاحد للنعمة، فكل كفور آثم وليس كل آثم كفوراً^(١).
- النص على تخصيص وقت الليل بالعبادة والسجود والتسبيح دليل على فضيلة العبادة في هذا الوقت، لما فيه من صفاء النفس وسمو الروح وهدوء الجو واستجلاب الخشوع والقرب من الله تعالى.
- لا ينبغي أن يشغل الداعية بهوم الدعوة عن العبادة، فهي الزاد الذي يمنحه الطاقة اللازمة للدعوة، ويزيد من عطائه، ويمكنه من الثبات في مواجهة التحديات والصعاب.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥٩/٣٠.

- وصف الدنيا بالعاجلة في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجْبُونَ الْعَاجِلَةَ﴾ تعريض بحماقة من يؤثرها إذ رضوا بالدون لأنه عاجل وليس ذلك من شيم أهل التبصر^(١).
- من تكريم الله سبحانه للإنسان تعريفه بأنه مخلوق سوي مميز، ثم شد أسره وإحكام خلقه وتقوية ربط مفاصله، وجعله في أحسن تقويم.
- القادر على الخلق قادر على إعادته وقادر على تبديله، وفي هذا وعيد وتهديد للإنسان إن لم يستقم على أمر الله تعالى ودينه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].
- من الأدلة على أن القرآن كلام الله: كشفه لخفايا النفوس وما تخفي القلوب، فهو سبحانه العالم بذات الصدور ولا يخفى عليه من أحوال خلقه شيء.
- وُصف يوم القيامة في هذه السورة بثلاث صفات هي: ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ و﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ و﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾.
- المشيئة المطلقة في هذا الكون لله سبحانه، وأي مشيئة لأحد من خلقه تابعة لها ولا يمكن أن تقع إذا خالفتها ولم تدر في فلکها، والمقصود هنا المشيئة الكونية لا الشرعية.
- رحمة الله الواسعة لا تكون إلا لمن يستحقها، وكم من طامع بها لن يحصل عليها لعدم الأخذ بأسبابها، ولذا كان قوله تعالى ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهؤلاء الداخلون في الرحمة هم المستحقون لها جزاء أعمالهم.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٩/٤٠٨.

القيم:

- قيمة الاهتمام بالقرآن والحرص عليه .
 - قيمة الثبات والاستقامة على أمر الله تعالى .
 - قيمة المواظبة على الذكر والتسبيح .
 - قيمة المحافظة على قيام الليل .
 - قيمة الحذر من المثبطات عن أداء الأمانة والرسالة .
 - قيمة انتباه الإنسان إلى خلقه وإتقان إبداعه .
 - قيمة التذكر والاتعاظ بما يُقرأ من القرآن .
 - قيمة اليقين بأن مشيئة المرء لا تخرج عن مشيئة الله جل جلاله^(١) .
- نشاط:** اذكر آية أخرى ورد فيها ذكر التبديل، وبيّن ما بينها وبين الآية (٢٨) في هذه السورة من أوجه التشابه والاختلاف .

(١) تُنظر هذه القيم وغيرها في كتاب: سور من القرآن الكريم، مقاصد وقيم ودلالات، سورة الإنسان والحديد وسبأ والنمل، ص ١٩- ٢١ .

تفسير سورة المرسلات

مدخل إلى السورة:

أسمائها: المرسلات، بلا واو، وبالواو قبلها: والمرسلات، كما سميت: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ بالآية الأولى منها^(١).

نزولها: مكية.

عدد آياتها: خمسون آية.

فضلها: ورد في فضل هذه السورة أن رسول الله ﷺ كان يكثر من قراءتها، فعن ابن عباس عن أم الفضل بنت الحارث أنها سمعته يقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾، فقالت: «يا بني لقد ذكّرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب»^(٢)، وعن ابن عباس أن أبا بكر قال: «يا رسول الله قد شئت؟» قال: «شيتني هود والواقعة والمرسلات و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»^(٣)، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى إذ نزل عليه ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ﴾ وإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي

(١) أسماء سور القرآن، ص ١٨٨ و ١٨٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب القراءة في المغرب، رقم الحديث: ٧٦٣، ومسلم في كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، رقم الحديث: ١٠٦١.

(٣) رواه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الواقعة، رقم الحديث: ٣٢٩٧، وهو صحيح.

ﷺ: اقتلوها، فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: وُقيت شركم ووُقيت شرها»^(١).

مقاصدها:

- إقامة الحجج والبراهين على إثبات حصول يوم القيامة.
- ذكر مشاهد من يوم القيامة.
- ذكر بعض أدلة قدرة الله على الخلق والبعث.
- ذكر جانب من عذاب المجرمين في النار، ونعيم المؤمنين في الجنة.
- بيان سبب امتناع الكفار عن الإيمان.

مناسبتها لما قبلها: تعدّ سورة المرسلات مكملّة لسورة الإنسان، التي تحدثت عن جزاء المؤمنين بتوسع وعن جزاء الكافرين بإيجاز فجاء الأمر مكملًا في هذه السورة بالتوسع في الحديث عن جزاء الكافرين والمكذّبين، والإيجاز في الحديث عن جزاء المؤمنين، ومن أوجه المناسبة بينهما: حديثهما عن خلق الإنسان.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝۱﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝۲ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ۝۳ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ۝۴ فَالْمَلَقَتِ ذِكْرًا ۝۵ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝۶ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝۷ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝۸ وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّتْ ۝۹ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝۱۰ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ ۝۱۱ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝۱۲ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝۱۳ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝۱۴ وَيَلُوكُ ۝۱۵ الْمُكَذِّبِينَ ۝۱۶ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝۱۷ ثُمَّ نَبْعُثْهُمْ الْآخِرِينَ ۝۱۸ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝۱۹﴾

(١) رواه البخاري برقم ١٨٣٠، ومسلم برقم ٥٩٧٢.

وَيَلُومِذِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلُومِذِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كَهَاتَا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتَا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَمِخَتْ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلُومِذِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾

معاني المفردات:

والمرسلات عرفاً: الرياح المتتابعة.
فالعاصفات عصفاً: الرياح شديدة الهبوب.
والناشرات نشرًا: الملائكة تنشر أجنحتها.
فالفارقات فرقاً: الملائكة تفرق بالوحي بين الحق والباطل.
فالملقىات ذكرا: الملائكة تبلغ الوحي إلى الرسل.
طمست: مٌحي نورها.
فرجت: تشققت.
نسفت: قُلعت من مكانها.
أقنت: جعل لها وقت محدد.
ماءٍ مهينٍ: النطفة.
قرارٍ مكينٍ: رحم المرأة.
إلى قدر معلوم: مدة الحمل.
كفأتًا: وعاءً.
شامخات: ثابتات.
فراتًا: عذبًا.

المعنى الإجمالي:

يقسم الله سبحانه بالرياح التي تهب متتابعة بيسر وسهولة وينتفع بها الخلق جملة من المنافع، ويقسم سبحانه بالرياح العاصفة التي تهلك

المكذبين وتؤدي إلى التدمير والتغيير، ويقسم سبحانه بالملائكة التي تنشر أجنحتها وهي خاضعة لأمر الله منقادة له، وتفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، وتلقي الذكر إلى الرسل وتبلغه كما أمرت، وهذا الوحي فيه إعذار من الله لخلقه لئلا يبقى لهم حجة، وفيه إنذار لهم من نقمة الله وعذابه، وجواب القسم ما بعده، أي: أقسم بما سبق على أن الذي توعده من حصول يوم القيامة كائن حاصل بلا ريب.

ثم بين سبحانه بعض أحداث ذلك اليوم: ففيه نزول النجوم ويذهب ضوءها، وتنشق السماء وتفتح أبواباً، وتتطاير الجبال فلا يبقى لها وجود ولا أثر، ويفصل بين الرسل وأقوامهم في وقت محدد من أوقات يوم القيامة، وتم تأجيل الفصل بين الرسل وأممهم ليوم الفصل لأنه اليوم العظيم الذي يجتمع فيه جميع الخلائق، ويحاسب الله فيه العباد، فناسب الفصل فيه بين الخلق، ومنه الفصل بين الرسل وأقوامهم، والاستفهام في ﴿لَا يَوْمَ أُجِّلَتْ﴾ وفي ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ للتعظيم والتهويل فإنه يوم البعث والحشر والقضاء بين الخلق جميعاً والجزاء على الأعمال، وفيه عذاب شديد مؤلم مهين لمن كذب بالله ورسله.

ويأتي بعد ذلك الاستفهام عن إهلاك الأمم السابقة، وهو استفهام تقرير، فإنه سبحانه أهلك قوم نوح وعاد، وأهلك أقواماً أتت بعدهم تبعثهم في الكفر والتكذيب كقوم لوط وشعيب، ومثل هذا الإهلاك يهلك الله كل من كفر به وسار في ركاب المجرمين المعاندين للحق، ولهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم وإجرامهم، وفي هذا الإخبار وعيد وتخويف من عذاب الله في الدنيا وفي الآخرة لمن كفر به ولم يتبع الحق والهدى.

ثم يأتي تذكير الإنسان بأصل خلقه للاستدلال به على قدرة الله وعظمته، فإنه سبحانه خلق الإنسان من ماء مستقذر وهو النطفة، حيث يلتقي بالبويضة في الرحم، الذي جعله الله مهياً لحصول الحمل، فيه كل ما يحتاج إليه الجنين من حماية وغذاء وراحة، إلى أن تتم مدة الحمل المحددة في علم الله سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه، وقدر أمور الخلق بقدرته التي لا يعجزها شيء، وفي الآخرة عذاب شديد لمن لم يؤمن بالله تعالى وهو يرى آثار قدرته في خلقه وتكوينه.

وجعل الله سبحانه الأرض مهيةً مذللةً للبشر، يعيشون عليها ويدفنون في جوفها، فهي بمثابة الأم الكبرى لجميع بني الإنسان، ظاهرها لأحيائهم، وباطنها لأمواتهم، وجعل الله في الأرض الجبال العالية التي تحميها من أن تنزل أو تضطرب فهي بمثابة الأوتاد لها، كما أنه سبحانه أوجد الماء العذب ليشرب منه الإنسان ويسقي الأرض ويستعين به على مصالحه، ولولا الماء لهلك الإنسان ولانتهت الحياة على الأرض، وفي الآخرة عذاب شديد لمن كفر بالله وكذب رسله مع توافر النعم ورؤيته آثار قدرة الله في كل ما حوله.

استنباطات تربوية ودعوية:

- لما كان مدار هذه السورة على الوعيد والتهديد ناسب أن تذكر فيها جملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، لما في ذلك من زيادة التخويف والتذكير بالعذاب العظيم المعد لمن كفر بالله وكذب بما أخبر به.
- ورد في هذه الآيات التذكير بأصل الخلق قبل التذكير بنعمة تذليل الأرض وتسخيرها، لأن النعم التي في الأنفس كالأصل للنعم التي في

الآفاق فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان الانتفاع بشيء من المخلوق ممكناً^(١).

- لما كان المقسم به في أول السورة صفات لم يذكر موصوفها، جاز حملها على معان عديدة، ولذا تعددت أقوال المفسرين فيها، وكثير مما قالوه محتمل، والله أعلم بمراده.

- في ذكر مظاهر قدرة الله وإنعامه على خلقه في هذه الآيات دعوة للإيمان به وشكره على نعمه الكثيرة العظيمة^(٢).

- تبين بعض مهمات الملائكة الكرام في تبليغ الرسالة والقيام بأمر الله، والإذعان له سبحانه.

- في القسم بالرياح دعوة إلى التأمل في هذا الخلق العجيب الذي يكون نعمة في حال ونقمة وهلاكاً في حال آخر، وهو من أعظم الأدلة على قدرة الله وعظمته.

- إهلاك المكذبين الكفرة سنة كونية، وفي إعلامنا بما حصل مع الأمم السابقة تحذير وتنبيه لنا من فعل ما فعلوه.

- وصفت الآية الكريمة الرحم بأنه قرار مكين، حيث هيء هذا المكان لاستقبال الجنين من جميع الجوانب، ومن لحظة تكونه إلى لحظة ولادته، وهو محاط بوسائل حماية عديدة منها عظام الحوض المحيطة به وكونه في وسط الجسم تماماً^(٣).

(١) التفسير الكبير للفرافري ٣٠ / ٢٤١.

(٢) الأساس في التفسير لسعيد حوى ١١ / ٦٣٢٢.

(٣) الطب محراب للإيمان لخالص جلبي ٢ / ٢٤١-٢٥١.

- الأرض هي أم البشر جميعا، منها خلقوا وعليها يعيشون، وفيها يدفنون ومنها يبعثون، وهي مهياة لحياة الإنسان مذلة مسخرة له، بجبالها وسهولها ووديانها وكل ما فيها وهذه نعمة عظيمة ينبغي علينا شكرها.
- كل شيء في هذا الخلق يسير وفق النظام الرتيب له، بتوقيت وأجل محدد، لا يخرج عنه ولا يحيد، فسبحان من أحسن كل شيء خلقه، وجعله بهذا النظام والتقدير الفائق، وهو سبحانه القائل ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].
- إذا تأمل الإنسان في أصل خلقه من ﴿مَاءٍ مَّهِينٍ﴾ وفي مآله بعد الموت، يتقن أنه لا يليق به الكبر والتعالي والغرور.

القيم:

- قيمة القسم بالعظيم من الله العظيم.
 - قيمة اليقين بوقوع العذاب على المكذبين يوم الدين.
 - قيمة استشعار نعمة الماء العذب.
- نشاط:** قارن بين الآيات الست الأولى من سورة الذاريات والآيات السبع الأولى من سورة المرسلات، وبين ما بينها من أوجه التشابه والاختلاف.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ ٢٩ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ٣٠ لَا ظِلِّيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ
الْهَبِّ ٣١ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ٣٢ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ٣٣ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٣٤ هَذَا يَوْمُ لَا
يَنْطَفُونَ ٣٥ وَلَا يُؤْدِنُ لَهُمْ فِعْتَدُونَ ٣٦ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَى ٣٨
فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ٣٩ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٤٠ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ٤١ وَفَوْكَةٍ مِّمَّا

يَسْتَهْوَونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَامْتَغُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ كُفْرًا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا
يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

معاني المفردات:

بشر: ما تطاير من النار متفرقاً.

جمالت: جمع جمل.

المعنى الإجمالي:

انتقلت الآيات إلى الحديث عن بعض مشاهد يوم القيامة، وفيه يقال يوم القيامة للمكذبين المنكرين: توجهوا إلى العذاب الذي كنتم تنكرونه ولا تؤمنون به، اذهبوا إلى جهنم حيث يتشعب ظل دخانها إلى ثلاث اتجاهات من كثرتة وعظمتها، وبسبب تفرقه لا يعود ظلاً يصلح للاحتماء به من لهيب جهنم وحرها، فتسميته ظلاً من باب التهكم بهم، ويتطاير من جهنم قطع عظيمة من النار بسبب شدة اتقادها وعظيم لهيبها، هذه القطع من النار تشبه القصر وهو البناء العظيم في حجمها، وتشبه الجمال العظيمة في اللون والسرعة والحركة، فإذا كان هذا حال الشرر المتطاير من النار فكيف يكون حال النار؟ إن من يعذب في النار مستحق للويل والهلاك وأشد العذاب.

وفي بعض مراحل يوم القيامة وذلك بعد انتهاء الحساب لا يتكلم الكفار ولا يسمح لهم بالاعتذار، حيث يكون قد مضى وقت الإذن بذلك، وأعطى كل امرئ الفرصة للدفاع، والعذاب الشديد لمن لم ينفعه العذر ومنع من الكلام، بسبب كفره وتكذيبه في الدنيا.

يوم القيامة يفصل الله بين العباد ويقضي بينهم بعدله، ويجمع الأولين والآخرين فإن كان عند أحد حيلة للخلاص والنجاة من العذاب فليفعل، وهذا الأمر من باب التعجيز والتوبيخ حيث لا يمكنهم ذلك ولا يقدرُونَ عليه، وهم مستحقون لأشد العذاب بما كفروا وكذبوا.

ثم انتقل الحديث إلى وصف حال أهل الجنة الذين اتقوا الله والتزموا أمره في الدنيا، فهم في ظلال الأشجار الوارفة تحيط بهم عيون الماء الجارية، يتلذذون بأكل ما يشتهون من أصناف الفاكهة وثمار الجنة، ويقال لهم على سبيل التكريم: كلوا ما شئتم واشربوا شرباً هنيئاً فأنتم تستحقون ذلك بسبب تقواكم لله وخشيتكم من عذابه، فهذا الجزاء لكم مقابل حسن عملكم في الدنيا، أما الكافرون المكذبون فهم مستحقون للعذاب العظيم.

ثم توجه الخطاب للكافرين في الدنيا على سبيل التهديد والوعيد لهم: أن يأكلوا ما شاءوا ويتمتعوا قدر ما يستطيعون في حياتهم فإنه زمن قليل حيث يوافيهم الأجل فيقطع عنهم متعتهم، وهم لا يستحقون متعة أكثر من ذلك فهم مجرمون معتدون ولهم عذاب شديد في الآخرة، وكانوا في الدنيا إذا أمروا بطاعة الله والركوع له تعظيماً لشأنه وتذلاً له يأبون ذلك ويرفضون الانقياد لأمره، فلهم عذاب شديد مقابل هذا الإباء والتكذيب.

إن لم يؤمن هؤلاء المكذبون بالقرآن وما فيه من إثبات وجود الله وعظمته وقدرته، وإثبات البعث والحساب والجزاء، وما فيه من روعة البيان وجمال الأسلوب وغزارة المعاني ووجوه الإعجاز فبأي شيء يؤمنون بعد ذلك؟ وهذا دليل على شدة كفرهم وعنادهم مع وضوح الحجة وظهور البينة، ودليل على عظمة هذا القرآن المعجز.

استنباطات تربوية ودعوية:

- في مقابل حرمان أهل النار من الظل يتمتع أهل الجنة بالظلال المتعددة، وكل مجزي بما يستحق.
- أمر أهل النار بالانطلاق إلى ظل غير ظليل لا يغني شيئاً ولا يمنع حرّاً تهكّم بهم، وهم مستحقون لهذا التهكم، فكم صدر منهم في الدنيا تهكم وسخرية واستهزاء بالرسل وأتباعهم.
- تشبيه شرر النار بالقصر وبالجمال الصفّر لزيادة ترويع الكفار وتهويل العذاب لعل ذلك يؤدي إلى إيمانهم ونجاتهم من المصير المرعب في نار جهنم.
- في تشبيه الشرر بالقصر تهكم بالكافرين، لأن القصر موضع الأمن وفيه إشارة إلى أن الكافر يعذب بما يتوقع منه الأمن^(١).
- شبه الشرر بالجمال لأن الجمال إذا نفرت وشردت نال من وقع في طريقها ضرر كبير، فتشبيه الشرر بها يفيد كمال الضرر.
- بينت الآيات الكريمة حصول أنواع من العذاب لأهل النار منها: أنه لا ظل فيها، وأن شررها عظيم كبير، وأنه لا يسمح لهم بالكلام ولا يقبل عذرهم، وأن محاولتهم الهرب أو النجاة من العذاب لن تفلح، يضاف إليها العذاب المعنوي بالتهكم بهم وتوبيخهم.
- عبرت الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَتَرَكَعُونَ﴾ عن الصلاة بالركوع لأنه من أهم أركان الصلاة، ولأن الركوع فيه تعظيم للرب حين ينحني العبد له.

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ١٣٩/٢٩.

القيم:

- قيمة الحذر من الإهانة التي ستحصل للمكذبين يوم الجزاء.
 - قيمة التقوى والخوف من الله العظيم.
 - قيمة الثقة بما وعد الله تعالى به المتقين من ثواب ونعيم.
 - قيمة الحذر من سلوك سبيل المجرمين عصاة أمر الله تعالى.
- نشاط:** قارن بين الآيات (١٧-١٩) من سورة الطور والآيات (٤١-٤٤) من هذه السورة، وبين ما بينها من أوجه التشابه والاختلاف.

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ

قائمة المراجع

- ١ - أحكام القرآن، محمد بن عبد الله ابن العربي (ت ٥٤٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- ٢ - إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) دار المعرفة، بيروت.
- ٣ - الأساس في التفسير، سعيد حوى (ت ١٩٨٩م)، دار السلام، ط الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ٤ - أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ) تحقيق: عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط الثانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- ٥ - أسماء سور القرآن الكريم، محمد الشايع، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ط الأولى، ١٤٣٢هـ.
- ٦ - الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٧ - إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدرة الرباني، صلاح الخالدي، دار عمار، ط الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- ٨ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، عبد الله بن عمر (ت ٦٩١هـ)، تحقيق محمد مرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٩ - أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري (ت ٢٠١٨م)، ط الثانية، ١٤٠٧هـ.
- ١٠ - إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة للقباقبي، محمد بن خليل (ت ٨٤٩هـ) تحقيق: أحمد شكري، دار عمار، ط الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ١١ - البحر المحيط في التفسير، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.

- ١٢ - بيان إعجاز القرآن، حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨هـ) تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط الثالثة.
- ١٣ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- ١٤ - تفسير القرآن، منصور بن محمد السمعاني (ت ٤٨٩هـ) تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم عباس غنيم، دار الوطن، الرياض، ط الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- ١٥ - تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة، ط الثانية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- ١٦ - التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ) دار الفكر، بيروت، ط الأولى، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- ١٧ - تفسير مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) تحقيق: عبد الله شحاتة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٣هـ.
- ١٨ - التفسير المنهجي، مجموعة من المفسرين، دار المنهل، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- ١٩ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي (ت ٢٠١٥هـ)، دار الفكر، ط العاشرة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- ٢٠ - التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من علماء التفسير بإشراف مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
- ٢١ - التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (ت ٢٠١٠م)، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ٢٢ - جامع الأحاديث (الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير)، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) جمع وترتيب: عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجواد، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

- ٢٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، أ- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط الثالثة، ١٣٨٨هـ. ب- تحقيق أحمد ومحمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- ٢٤- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) دار الشعب، القاهرة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- ٢٥- الجامع الصحيح، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، دار الجيل، بيروت.
- ٢٦- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) تحقيق عبد المحسن التركي وفريق من الباحثين، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- ٢٧- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري (ت ١٤٤١هـ ٢٠١٩م)، دار طوق النجاة، بيروت، ط الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- ٢٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) دار الكتاب العربي، ط الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- ٢٩- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق د أحمد الخراط، دار القلم، ط الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٣٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٣١- زاد المسير من أفعال أئمة التفسير، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

- ٣٢- الزهرة، محمد بن داود الأصبهاني (ت ٢٩٧هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط الثانية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.
- ٣٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ) دار المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- ٣٤- السنن، أبو داود سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- ٣٥- السنن، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ) تحقيق: أحمد شاکر ورفاقه، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣٦- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
- ٣٧- سنن النسائي، أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- ٣٨- سور من القرآن الكريم مقاصد وقيم ودلالات، سورة الإنسان والحديد وسبأ والنمل، سليمان محمد الدقور ومحمد سعيد بكر، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ط الرابعة، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.
- ٣٩- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣هـ)، تحقيق: طه سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٤٠- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط السابعة، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- ٤١- الشعر والشعراء، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ) دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

- ٤٢- صحيح ابن حبان، حاتم محمد البستي (ت ٣٥٤هـ) بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثانية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
- ٤٣- الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، حكمت بشير ياسين، دار المآثر، ط الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٤٤- صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط الرابعة، ١٤٠٢هـ.
- ٤٥- الطب محراب للإيمان، خالص جلبي، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٧٤م.
- ٤٦- العمدة في غريب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) تعليق: يوسف المرعشلي، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- ٤٧- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن بن محمد النيسابوري (ت ٨٥٠هـ) تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٤٨- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تصحيح: محب الدين الخطيب، ١٩٧٣م.
- ٤٩- فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان (ت ١٣٠٧هـ)، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤١٢هـ.
- ٥٠- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، السعودية، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
- ٥١- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم (ت ١٩٦٦م) دار الشروق، ط ١٧، ١٤١٢هـ.
- ٥٢- كتاب الأصنام، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤هـ) تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط الثالثة، ١٩٩٥م.

- ٥٣- الكشف، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) باعتناء: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- ٥٤- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، مجموعة من الباحثين، دار التفسير، جدة، ط الأولى، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.
- ٥٥- كلمات القرآن تفسير وبيان، لحسين محمد مخلوف (ت ١٩٩٠م)، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- ٥٦- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥٧- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ) دار صادر، بيروت، ط الأولى.
- ٥٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب ابن عطية (ت ٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٥٩- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ) مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٥هـ.
- ٦٠- المختصر في التفسير، جماعة من المفسرين، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ط الثانية، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.
- ٦١- المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٦٢- المسند، أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وجماعة، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

- ٦٣- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، ١٤٢٠هـ.
- ٦٤- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: طارق عوض ورفيقه، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- ٦٥- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط الرابعة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- ٦٦- المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد مكّي، دار نور المكتبات، ط الأولى، ١٤٢٧هـ.
- ٦٧- مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصبهاني، (ت نحو ٤٢٥هـ) تحقيق: صفوان عدنان داوودي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط الأولى، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م.
- ٦٨- المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى الحصن المنصوري (ت ١٣٩٠هـ)، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القلم، دمشق، ط الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٦٩- المكي والمدني من السور والآيات، محمد الفالح، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ط الأولى، ١٤٣٣هـ.
- ٧٠- الميسر في علم عد آي القرآن، أحمد خالد شكري، معهد الإمام الشاطبي، جدة، ط الثانية، ٢٠١٥م.
- ٧١- النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠هـ) دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ٧٣- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكّي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، ط الأولى، ١٤٢٩هـ.

قائمة المحتويات

المقدمة	٥
تفسير سورة الجمعة	٩
تفسير سورة المنافقون	٢٥
تفسير سورة التغابن	٤٣
تفسير سورة الطلاق	٥٧
تفسير سورة التحريم	٧٣
تفسير سورة الملك	١٠٣
تفسير سورة القلم	١٢١
تفسير سورة الحاقة	١٣٧
تفسير سورة المعارج	١٥١
تفسير سورة نوح	١٦٥
تفسير سورة الجن	١٨١
تفسير سورة المزمل	١٩٧
تفسير سورة المدثر	٢١١
تفسير سورة القيامة	٢٢٧
تفسير سورة الإنسان	٢٤١
تفسير سورة المرسلات	٢٥٧
قائمة المراجع	٢٦٩
قائمة المحتويات	٢٧٧